بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الإسراء وهي مكية.

روى الإمام الحافظ المتقن أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري -رحمه الله تعالى- عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العِتاق الأُوَل وهن من تِلادِي[١].

وروى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل، والزمر"[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول ابن مسعود -رضي الله عنه- في هذه السور: إنهن من العتاق الأُوَل، العتيق: هو القديم، ويأتي بمعنى النفيس البالغ في النفاسة، أو البالغ النفاسة، وهناك ارتباط بين العتيق والقديم؛ لأن كلمة عتيق أحياناً تفيد التاقدم وطول العهد، والقدم يزيد الشيء نفاسة أحيانا، وهذا أحد الأسماء لبيت الله الحرام، البيت العتيق، قيل: المعتق من الجبابرة، ومن الأقوال: إنه القديم، {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ} [سورة آل عمران:٩٦]، "إنهن من العتاق الأُوَل وهن من تِلادِي"، التلاد يقصد به الشيء القديم الذي حفظته، وتقول: الطارف والتليد، الطارف: هو الشيء الجديد، والتليد: هو الشيء القديم.

وحديث عائشة -رضي الله عنها-: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر"، القراءة تحتمل أن يكون ذلك في صلاة الليل، ويحتمل أن يكون ذلك من غير صلاة، وبعض أهل العلم يجعله مما كان يقرأه -صلى الله عليه وسلم- في الصلاة، في صلاة الليل –القيام-، ويحتج لذلك بذكر الصوم معه، كان يصوم، ذكرتْ صيامه، قالوا: وأرادت بذلك قيامه، يعني بقولها: وكان يقرأ، -والله تعالى أعلم-.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}[سورة الإسراء:١].

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة بني إسرائيل الإسراء، برقم (٤٤٣١).

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند (٤٥٢/٤٠)، برقم (٢٤٣٨٨)، وقال محققوه: حديث صحيح، دون قوله: وكان يقرأ في كل ليلة ببني إسرائيل والزمر، وابن خزيمة في صحيحه برقم(١١٦٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه؛ لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه، {الَّذِي أَسْرَىَ بِعَبْدِهِ} يعني: محمداً -صلى الله عليه وسلم-، {لَيلاً} أي: في جنح الليل، {مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} وهو مسجد مكة، {إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى} وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل -عليه السلام-؛ ولهذا جُمعوا له هناك كلهم، فأمهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم -صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين-، وقوله تعالى: {الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} أي: في الزروع والثمار {لِنُرِيَهُ} أي: محمداً، {مِنْ آيَاتِنَا} أي: العظام، كما قال تعالى: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه -صلى الله عليه وسلم-، وقوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} أي: السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلًّا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

قوله -تبارك وتعالى-: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، سبحان: بعضهم يقول: هذا مصدر لسبح يسبح تسبيحاً وسبحاناً، وبعضهم كسيبويه يقول: إن هذا اللفظ "سبحان" العامل فيه ليس من لفظه، يعني الكلام هكذا: نزّه ينزه تنزيهاً، فوضع مكان "تنزيهاً" "سبحان"، وبعضهم يقول: إنه مفعول مطلق، والكلام فيه كثير.

وقوله: {أَسْرَى بِعَبْدِهِ} يعني: محمداً -صلى الله عليه وسلم-، وذِكْر العبودية في هذا المقام الشريف الذي رقى النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه السبع الطباق، يدل على شرف العبودية ومنزلتها، وهكذا ذِكْر ذلك في مقام الإيحاء {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [سورة النجم:١٠]، وفي مقام الدعوة: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} [سورة الجن:١٩]، وفي مقام تنزيل الوحي: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [سورة الفرقان:١]، وما شابه ذلك.

قال: {الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ}، أسرى: الإسراء هو سير الليل، وبعضهم يخص ذلك بسير أول الليل، وإذا كان الإسراء لا يكون إلا بالليل -سواء قيل: في أوله، أو قيل: هو سير الليل مطلقاً- ولا يكون في النهار فوجْهُ قولِه بعدَه: {لَيْلاً}، من أهل العلم من يقول: إن هذا مع التنكير في قوله: {لَيْلاً}؛ لبيان أن ذلك وقع في بعض الليل لا في كله، وهذا فيه آية عظيمة، وهي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يذهب هذا المسير الذي يقدر بأربعين ليلة، ثم بعد ذلك يعرج به إلى السماء في بعض ليلة وليس في ليلة كاملة، فهذا من آيات الله -تبارك وتعالى-.

قال: {مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} "**وهو مسجد مكة**"، ذهب إلى هذا بعض السلف، وبه قال الحسن وبعضهم يقول: إنه أسري به -صلى الله عليه وسلم- من بيت أم هانئ، وهذا ذهب إليه كثيرون، وبعضهم يقول: من بيته -عليه الصلاة والسلام-، والروايات الواردة في هذا كثيرة جداً، وهذه الروايات يفهم من بعضها أنه أسري به من المسجد، كان نائماً في المسجد، وفي بعضها أنه من بيته، والعلماء اختلفوا في ذلك بناء على اختلاف الروايات، وذهب كثير منهم إلى أنه أسري به -عليه الصلاة والسلام- من بيت أم هانئ، وقوله: {إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى}: وهو بيت المقدس، قيل له: الأقصى لبعده عن المسجد الحرام، فهو المسجد الأقصى: يعني الأبعد، وليس بعده مسجد، فحينما نزلت الآية لم يكن وراءه مسجد يُعبد الله -عز وجل- فيه، قال: {الَّذِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بَارَكْنَا حَوْلَه}، بعضهم يقول: يعني ببعث الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، والأقرب -والله أعلم- أن تحمل الآية على ظاهرها وإطلاقها، فالله -عز وجل- جعله مباركاً، ووصف الأرض تلك بأنه بارك فيها للعالمين، لمّا ذكر نجاة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ولوط -عليه الصلاة والسلام- ذكر أن ذلك كان إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [سورة الأنبياء:٧١]، وذلك يعني بلاد الشام، وبعضهم يقول: أكناف بيت المقدس، بيت المقدس وما حوله، وبلاد الشام ورد فيها من الأحاديث أنها أرض مباركة، ومن البركة التي فيها ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أنه لا تزال طائفة من الأمة منصورة))[٣]، وجاء في بعض الأحاديث قال: ((وهم بالشام))[٤]، وجاءت الأحاديث: ((إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم))[٥].

والإسراء العلماء مختلفون فيه كثيراً متى كان؟، ولا شك أنه كان قبل الهجرة، فكثير من أهل العلم يقولون: قبل الهجرة بسنة، وبعضهم يقول: قبلها بسنوات باعتبار أن خديجة -رضي الله عنها- صلت مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، قالوا: والصلاة لم تفرض إلا حينما عرج بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، واختلفوا في وقت وفاة خديجة أيضاً، فبعضهم يقول: كان ذلك قبل الهجرة بخمس، وبعضهم يقول غير هذا، اختلفوا فيه كثيراً، وللعلماء كلام كثير فيها بناء على الروايات المتفاوتة، ثم اختلفوا هل أسري به في ليلة، وعرج في مرة أخرى غير ليلة الإسراء؟ هل صلى ببيت المقدس بالأنبياء قبل أن يعرج به أو بعدما عرج به؟ وحينما خُير بين الآنية من الخمر واللبن والعسل هل كان هذا قبل المعراج أو كان بعد المعراج؟ أو أن ذلك وقع مرتين؟ وحادثة شق الصدر أيضاً هل كانت مرة واحدة؟ ومتى كانت؟ لأن من الروايات ما يدل على أن ذلك وقع ليلة الإسراء، ومنها ما يدل على أنه وقع -كما في حديث أنس -رضي الله عنه- وهو في الصغر حينما كان مسترضعاً ببني سعد، فلذلك اختلفوا هل وقع ذلك مرة واحدة ومتى كانت؟ أو وقع أكثر من مرة؟ والأنبياء الذين رآهم جاء في الأوصاف التي ذكرها حينما أتى على وادي الأزرق -صلى الله عليه وسلم-، إلى غير ذلك مما ورد في سؤاله -صلى الله عليه وسلم- وهو في الطريق إلى مكة: ((أي وادٍ هذا؟))، ((كأني أنظر إلى يونس بن متى، كأني أنظر إلى موسى -عليه الصلاة والسلام-))[٦]، كذلك حينما ذكر الدجال وعيسى -عليه الصلاة والسلام- وهو يطوف بالكعبة، هل رأى ذلك في ليلة الإسراء والمعراج، أو أن ذلك كان رؤيا منام؟ أو أنه -عليه الصلاة والسلام- أخبر عن أمر أطلعه الله عليه مثلاً في علم الغيب دون أن يراه في ليلة

---

٣ - رواه ابن ماجه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب اتباع سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٠٣).

٤ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي -صلى الله عليه وسلم- آية فأراهم انشقاق القمر، برقم (٣٤٤٢).

٥ - رواه الترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الشام، برقم (٢١٩٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٠٣).

٦ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات، برقم (١٦٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعراج، أو غير ذلك مما قاله أهل العلم في مثل هذه الأشياء؟، يعني هل هذا حديث عن أمر وقع في السابق، أو أنه قد وقع لهم هذا الحج وهم في الملأ الأعلى؟ وقد ذكر الإمام مسلم -رحمه الله- كثيراً من الروايات والتفاصيل في صحيحه، ويمكن الرجوع إلى ما قاله العلماء في فتح الباري، وشرح صحيح مسلم، وشرح الطحاوية، فشرح النووي على المسلم في الجزء الأول صفحة: (١٤٥، ٣٨٤، ٤٠٣) وكذلك شرح القاضي عياض على مسلم الجزء الأول: (٤٩٤)، والفتح الجزء الأول: (٤٥٨)، والثالث: (٤١٤)، والسادس: (٥٧٩، ٤٨٥، ٤٧٨)، والسابع: (٢٠٣)، والثامن: (٦٠٩)، والعاشر: (٣٣،٧٠)، والثالث عشر (٩٦، ٤٧٨)، تجدون فيها الكلام على هذه القضايا.

ومن الأشياء التي اختلفوا فيها هل كان الإسراء بالروح، أو بالجسد والروح؟ فذهب بعض السلف إلى أن الإسراء كان بالروح، وهذا قول غير صحيح، والذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً أن الإسراء كان بروحه وجسده -عليه الصلاة والسلام-، والأدلة على هذا كثيرة، منها ما في هذه الآية من الأدلة، {سُبْحَانَ} فالتسبيح لا يكون إلا على أمر عظيم، وأما ذهاب الروح فهو أمر يحصل للإنسان في المنام، وكذلك في قوله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} والعبد يكون لمجموع الروح والجسد، فالإنسان لمجموع الروح والجسد، وكذلك لقوله: {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا} المقصود بذلك رؤية العين، وللأحاديث الواردة في هذا، فقد ركب البراق، والركوب لا يكون للأرواح بمجردها -ولا تحتاج إلى ركوب-، وكذلك أنه كذبه المشركون واستفظعوا ذلك وشنعوا عليه، وارتد بعض ضعفاء الإيمان، ولو كانت رؤيا منام لما استكثروا شيئاً من ذلك، ففي الرؤيا يصل الإنسان إلى أبعد من هذا، ولكن إنما شنعوا واستكثروا هذا واتهموه بالكذب -عليه الصلاة والسلام-؛ لأنها لم تكن بمجرد الروح.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أُتيت بالبراق وهو دابة، أبيض، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلَقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن فقال جبريل: أصبت الفطرة، قال: ثم عرج بي إلى السماء الدنيا...)).

التخيير بين الآنية هنا كان في البداية، لكن في بعضها أنه لما نزل إلى بيت المقدس بعد المعراج، وبعض العلماء يقول: وقع ذلك مرتين، فذلك أولاً كان لضيافته، والضيافة يكون فيها الإكرام في أولها وفي آخرها، فأعطي في أول مجيئه ثم بعد العروج.

((... فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف -عليه السلام-، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب بي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير، ثم يقول الله تعالى: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً} [سورة مريم:٥٧]، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بموسى -عليه السلام- فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم -عليه السلام-، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقُها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها))[٧].

وسدرة المنتهى قيل: لأنه ينتهي إليها ما يعرج به إلى الله -عز وجل-، وما ينزل منه، وهكذا فسرها بعض السلف كابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-، وقيل: ينتهي إليها علم الخلائق، وقيل: لأنه انتهى جبريل عندها فلم يتقدم بعد هذا.

---

٧ - رواه أحمد في المسند (١٩٤٨٥)، برقم (١٢٥٠٥)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات، برقم (١٦٤)، واللفظ لأحمد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في سياق ذكره لقصة الإسراء والمعراج: ((قال: فأوحى الله إليّ ما أوحى، وقد فرض عليَّ في كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، قال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف لأمتك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك، وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربي، فقلت: أي ربِّ خفف عن أمتي، فحط عني خمساً، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فقال: ما فعلت؟ فقلت: قد حط عني خمساً، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى ويحطّ عني خمساً خمساً، حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت عشراً، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فنزلتُ حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك)) فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فقلت: لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت)) ورواه مسلم بهذا السياق[١].

وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه-: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أُتي بالبراق ليلة أسري به مسرجاً ملجماً ليركبه، فاستصعب عليه فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما ركبك قط أكرم على الله منه، قال: فارفضّ عرقا. ورواه الترمذي وقال: غريب.

وروى أحمد أيضاً عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لما عرج بي إلى ربي -عز وجل- مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم))، وأخرجه أبو داود[٢]، وروى أيضاً عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مررت ليلة أسري بي على موسى -عليه السلام- قائماً يصلي في قبره))، ورواه مسلم[٣].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

[١] - صحيح مسلم: (١٤٥/١) باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات: برقم: (١٦٢).

[٢] - سنن أبي داود: (٢٦٩/٤) باب في الغيبة: برقم: (٤٨٧٨).

[٣] - صحيح مسلم: (١٨٤٥/٤) برقم: (٢٣٧٥) عن أنس بن مالك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أتيت)) وفي رواية ((مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره)).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالرواية السابقة في مراجعة النبي -صلى الله عليه وسلم- لربه فيما فرض عليه من الصلوات ذكر أنه خفف عنه خمساً خمساً، وفي بعض الروايات الأخرى: ((عشراً عشراً))، فيمكن أن يكون المقصود بذكر العشر أن ذلك على سبيل الاختصار والإجمال، وهذا على سبيل التفصيل، وقوله: ((فارفضّ عرقاً)): يعني سال عرقه، وفي هذا الحديث الذي مضى، قال: ((مررت ليلة أسري بي على موسى -عليه السلام- قائماً يصلي في قبره))، النبي -صلى الله عليه وسلم- كما مضى رأى موسى -عليه الصلاة والسلام- في السماء السادسة ورآه وهو يصلي في قبره، وكذلك صلى بهم في بيت المقدس بعدما هبط من السماء، فكل هذا لا تعارض فيه ولا منافاة؛ لما ورد في الروايات مما ذكر، وذلك أن الأرواح لها شأن آخر، لا تقاس على الأبدان وتنقلاتها وحركاتها، فرآه في مكانه في منزلته في الملأ الأعلى -والأرواح أيضاً لها تعلق بالأجساد فهي تهبط وتصعد- ورآه -صلى الله عليه وسلم- مرة في قبره يصلي، والأمر الآخر: وهو أن صلاته هنا ليست من قبيل التكاليف؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف في الأصل، وإن كان هناك بعض الأشياء التي يؤمر بها الناس مثل أنهم يدعون إلى السجود في عرصات القيامة، وكذلك أيضاً ما ورد من أن أهل الجنة يلهمون التسبيح إلهاماً، فإلهامهم التسبيح ليس ذلك من قبيل التكاليف، وإنما هو شيء يلتذّون به، وكذلك الذين يمتحنون في الآخرة: المجنون، والذي لم تبلغه الدعوة، فهذه خارجة من هذا الأصل ومستثناة من كون الآخرة ليست بدار تكليف، فهذا الذي يفعله موسى -عليه الصلاة والسلام- إنما هو لحبه للصلاة إذ صارت قرة عين، كما كان بعضهم يقول: "اللهم إن كنت آتيت أحداً الصلاة في قبره فآتني الصلاة في قبري".

وروى الإمام مالك عن أنس بن مالك أن مالك بن صعصعة -رضي الله تعالى عنهما- حدثه أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- حدثهم عن ليلة أسري به قال: ((بينما أنا في الحطيم))[٤] وربما قال قتادة: في الحجر.

بعضهم يقول: إن الحطيم هو ما بين الركن والباب، وبعضهم يقول وهو المشهور: إن الحطيم هو هذا الجزء الذي لم يبن من الكعبة كما هو معلوم، لمّا قصرت النفقة عند قريش، فلم يبنوا هذا الذي فيه الحجر -وليس كل ذلك من الكعبة- فتُرك وقيل: إنه كان يلقى فيه الثياب، ثياب الطائفين إذا فرغوا من طوافهم، من غير الحمس، فإنّ غير الحمس كان الواحد منهم إذا جاء فإنه يطوف عارياً، إلا إن كان عنده ثياب جديدة، أو كان يعرف أحداً من الحمس، فأعاره ثوبه، ثم بعد ذلك إذا فرغ من الطواف ألقى هذا الثوب، فيسمونه اللقى، يطئونه بأقدامهم في الطواف، وكانوا يلقون هذه الثياب، تجمع حتى تبلى في هذا المكان الذي يقال له: الحطيم، والمقصود به الحجر في المشهور والله أعلم. ولاحظوا هذه الرواية: ((بينما أنا في الحطيم))، هذه الرواية صريحة بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان أُسري به من المسجد، وكما سبق من الرواية الأخرى أنه من بيت أم هانئ، وهذا الذي عليه أكثر أهل العلم، وقوله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [سورة الإسراء: (١)] والمسجد الحرام تارة يطلق على مسجد الكعبة، وتارة يطلق على منطقة الحرم بكاملها، فيقال له: المسجد الحرام، {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [سورة الفتح: (٢٥)].

---

[٤]- صحيح البخاري: (١٤١٠/٣) كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج: برقم: (٣٦٧٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال: ((بينما أنا في الحطيم)) وربما قال قتادة: ((في الحجر مضطجعاً إذ أتاني آتٍ، فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة، قال: فأتاني فقدَّ)) سمعت قتادة يقول: ((فشق ما بين هذه إلى هذه)) وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته.

الجارود: قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: ما رأيت مَن نسَبَه، ولعله ابن سبرة البصري، صاحب أنس بن مالك -رضي الله عنه-، ويوجد آخر يدعى الجارود غير هذا، صحابي، لكن هنا مع أنس -رضي الله عنه-.

وقد سمعته يقول من قصته إلى شعرته قال: ((فاستخرج قلبي)) قال: ((فأُتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة، فغسل قلبي ثم حُشي ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض)).

هذه الرواية في شق الصدر عند الإسراء، وفي بعض الروايات أن ذلك كان في صغره -صلى الله عليه وسلم-، حينما كان مسترضعاً في بني سعد.

فقال الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال: نعم يقع خطوُه عند أقصى طرفه، قال: ((فحُملت عليه فانطلق بي جبريل -عليه السلام- حتى أتى بي إلى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوَ قد أرسل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء)) قال: ((ففتح لنا فلما خلصت فإذا فيها آدم -عليه السلام-، قال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح)) الحديثَ بنحو ما سبق، وفيه في ذكر موسى -عليه السلام- قال: ((فلما تجاوزته بكى قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي؛ لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي)).

طبعاً بكاء موسى -عليه الصلاة والسلام- هنا ليس من قبيل الحسد، حاشا وكلا، وإنما من قبيل الغبطة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فالإنسان قد يبكي غبطة، وكذلك حزناً على قومه الذين فضلهم الله -عز وجل- على العالمين في زمانهم، فبكى حزناً عليهم.

قال: ((ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء)) قال: ((ففتح لنا فلما خلصت فإذا إبراهيم -عليه السلام- فقال: هذا إبراهيم فسلم عليه)) قال: ((فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح)) قال: ((ثم رُفعتْ إليّ سدرةُ المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى)).

قلال هجر، القُلَّة: ما يعرفونه بالقَلَّة –بالتفخيم- يوضع فيها التمر، زنبيل كبير، تَسَعُ مقدار قربتين، وهجر هذه قيل: هي التي في الساحل، وبعضهم يقول: قرية قرب المدينة، وهو الأرجح، والله أعلم.

قال: ((وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات)) قال: ((ثم رُفع إليّ البيتُ المعمور)).

قال قتادة: وحدثنا الحسن عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون فيه، ثم رجع إلى حديث أنس -رضي الله تعالى عنه-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طبعاً هنا في هذا الحديث البيت المعمور في السماء السابعة، وجاء في بعض الروايات ما يفهم منه غير هذا، ولهذا ذكر بعض أهل العلم أن كل سماء فيها بيت معمور جمعاً بين الروايات، والله أعلم.

قال: ((ثم أُتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل)) قال: ((فأخذت اللبن. قال: هذه الفطرة أنت عليها وأمتك)) قال: ((ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم)) قال: ((فنزلت حتى أتيت موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟)) قال: ((فقلت: خمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك)) قال: ((فرجعت فوضع عني عشراً)) قال: ((فرجعت إلى موسى، فقال: بمَ أُمرت؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك)) قال: ((فرجعت فوضع عشراً أُخَر، فرجعت إلى موسى فقال: بمَ أمرت؟ قلت: أمرت بثلاثين صلاة، قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك)) قال: ((فرجعت فوضع عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بمَ أمرت؟ قلت: أمرت بعشرين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع عشرين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك)) قال: ((فرجعت فوضع عشراً عني أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بمَ أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع العشر صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك)) قال: ((فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قال أمرت بخمس صلوات كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع الخمس صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك)) قال: ((قلت: قد سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم، فنفذتْ، فنادى منادٍ قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي)) وأخرجاه في الصحيحين بنحوه[٥].

روى البخاري[٦] عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: كان أبو ذر -رضي الله تعالى عنه- يحدث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء: افتح قال: من هذا؟ قال: جبريل، قال هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد -صلى الله عليه وسلم-، فقال: أُرسِل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة)).

---

[٥]- صحيح البخاري: (١٤١٠/٣) كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج: برقم: (٣٦٧٤) وصحيح مسلم: (١٤٥/١) كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات: (١٦٢).

[٦]- صحيح البخاري: (١٣٥/١) كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء برقم: (٣٤٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأسودة يقال: السواد للشخص؛ لأنه لا يستبين من بعيد، نحو رأيت سواداً، جاء سواد إنسان، أو رأيت سواد إنسان، أسودة: يعني شخوصاً أو جماعات.

((فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة، إذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح)) **قال**: ((قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسَمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، ثم عرج بي إلى السماء الثانية)) **فذكر الحديث، قال**: ((ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم)).

قال الزهري: فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري -رضي الله تعالى عنهما- كانا يقولان: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام)).

قال: قال الزهري: فأخبرني ابن حزم، ابن حزم يعني أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وهو لم يدرك أبا حبة الأنصاري، فأبو حبة الأنصاري -رضي الله تعالى عنه- من أهل بدر، واستشهد بأحد قبل أن يولد ابن حزم، وقبل أن يولد أيضاً أبوه محمد.

((لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام)) صريف الأقلام يعني صوت الأقلام عند الكتابة، والأقلام اليوم ليس لها صوت، لكن الأقلام التي كانت في السابق يكتبون بها، -هم يعرفون مثل هذه العبارة- التي كانت تنحت نحتاً، فيضعها في الدواة ثم يكتب، كان لها صوت باحتكاك القلم بالورق، فيقال له: صريف.

قال ابن حزم وأنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى -عليه السلام-، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال موسى: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها، فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك، قلت: قد استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها حبائل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)) **وهذا لفظ البخاري في كتاب الصلاة، ورواه في ذكر بني إسرائيل وفي الحج وفي أحاديث الأنبياء من طرق أخرى عن يونس به، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان منه نحوه**[٧].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر -رضي الله تعالى عنه-: لو رأيتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لسألته، قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إني قد سألته، فقال: ((قد رأيته نوراً أنىّ أراه))[٨] **هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد، وأخرجه مسلم في صحيحه عن**

---

[٧]- صحيح مسلم: (١٤٨/١) كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: برقم: (١٦٣).

[٨]- مسند أحمد بن حنبل: (١٤٧/٥) برقم: (٢١٣٥١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هل رأيت ربك؟ قال: ((نور أنىّ أراه))[٩].

وعن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لسألته، فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألتُ، فقال: ((رأيت نوراً))[١٠].

روى الإمام أحمد[١١] **عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- يحدث أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه)) أخرجاه في الصحيحين**[١٢] **من طرق.**

وعند البيهقي: قال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: فتجهز -أو كلمة نحوها-، ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة؟ فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه بأن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء. قال أبو سلمة: فبها سُمي أبو بكر: "الصديقَ"[١٣].

الصدِّيق يعني مبالغة من الصدق، يعني كثير التصديق، هذا كله يدل على أن الإسراء كان بروحه وجسده -عليه الصلاة والسلام-، وكما سبق لو أنه كان بروحه فإن ذلك ليس بمستبعد بالنسبة للناس، فلا يحتاج إلى هذا التكذيب.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ليلة أسري برسول الله -صلى الله عليه وسلم- دخل الجنة فسمع في جانبها وَجْساً، فقال: ((يا جبريل ما هذا؟))

سمع وَجْساً، بالسين والجيم، الصوت الخفي يقال له: وَجْس.

قال: هذا بلال المؤذن، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- حين جاء إلى الناس: ((قد أفلح بلال رأيت له كذا وكذا)).

في ذاك الوقت لم يكن قد شرع الأذان، ولم تفرض الصلاة بعد، وبلال لم يكن يؤذن، ولهذا بعضهم يقول: إن المعراج تكرر أكثر من مرة، وبعضهم أوصل ذلك إلى ثلاث مرات، والراجح أنه كان مرة واحدة، لكن مثل هذا يمكن أن يقال فيه -والله أعلم-: إنه باعتبار ما سيكون، فيكون من باب الإخبار عن الأمر الغيبي، وإن

---

[٩]- صحيح مسلم: (١٦١/١) كتاب الإيمان، باب في قوله -عليه السلام-: ((نور أنى أراه)) وفي قوله: ((رأيت نوراً)) برقم: (١٧٨).

[١٠]- صحيح مسلم: (١٦١/١) كتاب الإيمان، باب في قوله -عليه السلام-: ((نور أنى أراه)) وفي قوله: ((رأيت نوراً)) برقم: (١٧٨).

[١١]- مسند أحمد بن حنبل: (٣٧٧/٣) برقم: (١٥٠٧٦).

[١٢]- صحيح البخاري: (١٤٠٩/٣) باب حديث الإسراء وقول الله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى} برقم: (٣٦٧٣) ومسلم: (١٥٦/١) باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال: برقم: (١٧٠).

[١٣]- دلائل النبوة: (٣٦٠/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اختيار بلال -رضي الله تعالى عنه- للأذان كان له مثل هذه المقدمات، فذُكر قبل أن تفرض الصلاة على الناس، قبل أن يصلى، ومكة لم يكن يصلى فيها جماعة، ولم يكن يؤذن للصلاة قبل الهجرة، ويحتمل أن يكون قال هذا ليوضح المقصود، فيكون النبي -صلى الله عليه وسلم- أراد أن يعيّنه؛ لئلا يلتبس بغيره مثلاً، فتكون لفظة ((المؤذن)) ليست من قول جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وإنما تكون من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأيضاً لا يستبعد أن يكون هذا من قول من رواه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن بعده ليوضح المراد ببلال، فقد عرف بذلك "بلال المؤذن"، لكن ظاهره أن ذلك من كلام جبريل -عليه الصلاة والسلام- والله أعلم.

قال: ((فلقيه موسى -عليه السلام-، فرحب به قال: مرحباً بالنبي الأمي)) قال: ((وهو رجل آدم طويل، سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما، فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى)) قال: ((فمضى)).

((رجل آدم طويل)) الآدم يعني الأسمر، ((آدم طويل سبط))، وجاء في بعض الروايات الأخرى في صفته غير هذا، وبعض العلماء حاول أن يجمع بين هذه الروايات، وقد يكون هذا يرجع إلى ضبط الرواة، والله أعلم.

قال: ((فمضى فلقيه شيخ جليل متهيَّب فرحب به وسلم عليه، وكلهم يسلم عليه)) قال: ((من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم)) قال: ((ونظر في النار فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً، قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا عاقر الناقة)).

كما ورد أيضاً ((أحيمر ثمود))[١٤]، {فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}[سورة القمر: (٢٩)].

قال: فلما أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المسجد الأقصى، قام يصلي فإذا النبيون أجمعون يصلون معه، فلما انصرف جيء بقدحين: أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذي كان معه القدح: ((أصبت الفطرة)). إسناده صحيح، ولم يخرجوه.

على كل حال هذا الحديث جملٌ منه لها شواهد أخرى، وإن كان إسناده عند الإمام أحمد فيه ضعف[١٥].

وروى الإمام أحمد[١٦] عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: أسري برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبِعِيرهم.

قافلة كانت آتيةً، هي عيرٌ لقريش، فرآها في الطريق.

فقال الناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول، فارتدوا كفاراً فضرب الله رقابهم مع أبي جهل، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمراً وزبداً فتزقموا، ورأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم، وسئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الدجال فقال: ((رأيته فيلمانياً)).

---

[١٤] - مسند أحمد بن حنبل: (٤/٢٦٣) برقم: (١٨٣٤٧).

[١٥] - مسند أحمد بن حنبل: (١/٢٥٧) برقم: (٢٣٢٤).

[١٦] - مسند أحمد بن حنبل: (١/٣٧٤) برقم: (٣٥٤٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا في ليلة المعراج، ومعروفٌ أن الدجال ليس في السماء، وأنه في جزيرة من جزائر البحر، ورآه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فمثل هذه الأشياء هي من أمور الغيب وعالم الأرواح يختلف، قال: ((فيلمانياً)): يعني عظيم الجثة، ضخم الخلق، كما جاء وصفه بذلك في بعض الروايات.

وسئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الدجال فقال: ((رأيته فيلمانياً أقمر هجاناً)).

((أقمر)) يعني شديد البياض، ((هجاناً)): يعني أبيض شديد البياض عظيم الخلق.

((إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري)).

((قائمة)): يعني على حالها في موضعها وهيئتها، لكنه لا يبصر بها، يعني صحيحة من حيث الصورة لكنه لا يبصر بها.

((كأن شعر رأسه أغصان شجرة، ورأيت عيسى -عليه السلام- شاباً أبيض، جعد الرأس حديد البصر)).

هنا وصفه بأنه جعد الرأس، وفي بعض الروايات وصفه بأنه أملس، بخلاف ذلك، فالجعودة هي مثل شعر العرب، يقال له: جعد، والشعور التي فيها ملاسة يقال: سبط الشعر، فهذا جاء في بعض الروايات، وجاء في بعضها أنه جعد، وبعض العلماء حمل الرواية التي ورد فيها أن عيسى -عليه الصلاة والسلام- جعد فقال: المقصود الخلق، يعني في اكتمال الخلق وقوته وتمامه، لكن في هذه الرواية أضاف ذلك إلى الشعر، جعد الشعر، بخلاف الروايات التي ورد فيها الإطلاق، والذي يظهر -والله أعلم- أن مثل هذا يرجع إلى ضبط الرواة.

((ورأيت عيسى -عليه السلام- شاباً أبيض، جعد الرأس حديد البصر ومبطَّن الخلْق)).

مبطن الخلق: يعني ليس له بطن كبير، يعني ضامر البطن.

((ورأيت موسى -عليه السلام- أسحم آدم، كثير الشعر، شديد الخلق، ونظرت إلى إبراهيم -عليه السلام- فلم أنظر إلى إرْب منه إلا نظرت إليه مني)).

لم أنظر إلى عضو منه، إرْب: يعني عضو، لشدة المشابهة، أشبهه في كل أعضائه.

((إلا نظرت إليه مني حتى كأنه صاحبكم، قال جبريل: سلم على أبيك، فسلمت عليه)). **ورواه النسائي من حديث أبي زيد ثابت بن يزيد عن هلال -وهو ابن خباب- به، وهو إسناد صحيح.**

وروى البيهقي[17] عن أبي العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم -صلى الله عليه وسلم- ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة)).

في رواية أخرى أيضاً قال عن موسى -عليه الصلاة والسلام- إنه: سبط الشعر، فهنا قال: ((طوالاً جعداً))، فبعض العلماء قال: المقصود بالجعودة هنا القوة يعني قوي الخلق ومكتمل الخلق ((كأنه من رجال شنوءة))، شنوءة: قبيلة من قبائل اليمن، ويقال: أزد شنوءة، قيل لهم ذلك: لشناءتهم، أو لشنوءتهم، يعني تقززهم أو

---

[17] - دلائل النبوة: (٣٨٦/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقذرهم أو تباعدهم من الأدناس أو الأقذار، وقيل: باعتبار أنهم تباغضوا، ويرجع إليهم من القبائل المعروفة الآن غامد وزهران، هم من أزد شنوءة.

((ورأيت عيسى ابن مريم -عليه السلام- مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس، وأُرِى مالكاً خازن جهنم والدجال في آيات أراهن الله إياه)).

عيسى -عليه الصلاة والسلام- هنا قال عنه: ((سبط الرأس))، وهناك قال: ((جعد الرأس)).

وقال هنا: ((مربوع الخلق)): يعني معتدلاً، ليس بالطويل ولا بالقصير.

قال: {فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ}[سورة السجدة: (٢٣)] فكان قتادة يفسرها أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- قد لقي موسى -عليه السلام- {وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة السجدة: (٢٣)] قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل، رواه مسلم في الصحيح[١٨] وأخرجاه[١٩] عن قتادة مختصراً.

وروى الإمام أحمد[٢٠] أيضاً عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لما كان ليلة أسري بي، فأصحبت بمكة فظعتُ، وعرفت أن الناس مكذبيّ)).

يقول: ((فأصبحت بمكة))، الذي في السنن الكبرى للنسائي[٢١] قال: ((قطعت بأمري وعرفت أن الناس مكذبي))، وهنا قال: ((فظعتُ، وعرفت أن الناس مكذبي))، و((فظعت)): يعني اشتد الأمر عليّ وهبتُهُ.

فقعد معتزلاً حزيناً، فمر به عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم)) قال: وما هو؟ قال: ((إني أسري بي الليلة))، قال: إلى أين؟ قال: ((إلى بيت المقدس)) قال: ثم أصبحتَ بين ظهرانينا؟ قال: ((نعم))، قال فلم يرَ أن يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه، فقال: أرأيت إن دعوتُ قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم)) فقال: يا معشر بني كعب بن لؤي، قال: فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدّث قومك بما حدثتني، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إني أسري بي الليلة)) فقالوا: إلى أين؟ قال: ((إلى بيت المقدس)). قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: ((نعم)). قال: فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب -زعم-، قالوا: وتستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فما زلت أنعت حتى التبس عليّ بعض النعت)) قال ((فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال)).

هذه العبارة ((دون دار عقيل أو عقال)) ليست في النسائي.

---

[١٨]- صحيح مسلم: (١٥١/١) كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم-: برقم: (١٦٥).

[١٩]- صحيح البخاري: (١١٨٢/٣) كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء برقم: (٣٠٦٧) و(١٢٤٤/٣) كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} [سورة طه: (٩)] {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [سورة النساء: (١٦٤)] برقم: (٣٢١٥).

[٢٠]- مسند أحمد بن حنبل: (٣٠٩/١) برقم: (٢٨٢٠).

[٢١]- سنن النسائي الكبرى: (٣٧٧/٦) برقم: (١١٢٨٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

((حتى وضع دون دار عقيل أو عقال فنعتُه وأنا أنظر إليه)) قال: ((وكان مع هذا نعت لم أحفظه)) قال: ((فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه)). وأخرجه النسائي[٢٢] ورواه البيهقي[٢٣].

روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: لما أسري برسول الله -صلى الله عليه وسلم- فانتهى إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة.

هذه الرواية: أنها في السماء السادسة، الروايات الأخرى: أنها في السماء السابعة.

وإليها ينتهي ما يصعد به حتى يقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهبط به من فوقها.

هذا تفسير من ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- لسدرة المنتهى، لماذا قيل لها ذلك؟

وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها حتى يقبض منها، {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى} [سورة النجم: (١٦)] **قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً المقحمات، يعني الكبائر، ورواه مسلم في صحيحه**[٢٤].

المقحمات قيل لها ذلك؛ لأنها تقحم من قارفها في النار، وهنا: أعطي خواتيم سورة البقرة، وفي الحديث الآخر في صحيح مسلم[٢٥] بينما النبي -صلى الله عليه وسلم- قاعد وعنده جبريل سمع صوتاً فرفع رأسه فقال: ((هذا باب فتح من السماء لم يفتح قبل قط، وهذا ملك نزل من السماء لم ينزل قبل قط، فقال: أبشِر بنورين أوتيتهما فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة))، هذا في المدينة؛ لذلك من أهل العلم من يقول: إن من القرآن ما نزل به غير جبريل، مع أن الله -عز وجل- يقول: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [سورة الشعراء: (١٩٣)]، قالوا: هذا من حيث الجملة، لكن لا يمنع أن يكون بعض الآيات نزل بها غير جبريل -عليه الصلاة والسلام-، واحتجوا بهذا الحديث، حديث ابن عباس، ويجاب عنهم بأن حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- فيه البشرى، ((أبشر بنورين أوتيتهما))، ولا يعني أنه نزل بها، وهذا الحديث يدل على أن هذا كان متقدماً، وسورة الفاتحة نزلت بمكة، وكانوا يصلون بمكة، وما كانوا يصلون بغير سورة الفاتحة، والذي عليه الجمهور أن سورة الفاتحة نزلت بمكة، ولم تنزل بالمدينة، وإن كان من أهل العلم من قال: إنها نزلت في المدينة، لكنه قول ليس بصحيح، ومنهم من يقول: نزلت مرتين، ومنهم من يقول: نزل شقها الأول في مكة، وشقها الثاني في المدينة، وهذا بعيد جداً، فعلى كل حال هنا ذكر في هذا الحديث في ليلة المعراج أنه أوتي خواتيم سورة البقرة.

وروى الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- كان بالجابية، فذكر فتح بيت المقدس قال: قال أبو سلمة: فحدثني أبو سنان عن عبيد بن آدم، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب: أين ترى أن أصلي؟.

يقول لكعب الأحبار، كعب الأحبار معروف أن أصله كان من اليهود ثم أسلم، وكان من يهود اليمن.

فقال: إن أخذتَ عني صليتَ خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك.

---

[٢٢]- سنن النسائي الكبرى: (٣٧٧/٦) برقم: (١١٢٨٥).

[٢٣] - دلائل النبوة: (٣٦٣/٢).

[٢٤]- صحيح مسلم: (١٥٧/١) كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى: برقم: (١٧٣).

[٢٥]- صحيح مسلم: (٥٥٤/١) باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة: برقم:(٨٠٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن أخذت عني: يعني إن قبلت ما أشير به صليت خلف الصخرة، الصخرة هي التي عليها الآن القبة التي لا تكاد تجد من يذكر المسجد الأقصى إلا ويضع هذه القبة قبة الصخرة، وهي صخرة تعظمها اليهود، وهي قبلتهم، يصلون إليها، وإنما عظمها هذا التعظيم وبنى عليها هذا البناء عبد الملك بن مروان لما أراد أن يصرف الناس عن مكة، لما كان فيها ابن الزبير فقال له أناس: إن الناس يأتون إلى مكة، ويلقون ابن الزبير، فذهب وعظم الصخرة وبنى عليها هذا البناء والقبة، وزينها، من أجل أن يأتي الناس إليها، فلما قتل ابن الزبير تركت، لكنه لم يهدم القبة، ولم يصنع شيئاً، فهذا كان بداية هذا البناء الذي لا يزال على هذه الصخرة، وليس لها شيء عند المسلمين إطلاقاً، تعظم وليس هذا هو المسجد الأقصى، وإنما مسجد قبة الصخرة، وقد نحت في قلوب الأجيال منذ نعومة أظفارهم أن المسجد الأقصى هو هذا -مسجد قبة الصخرة-، وهذا غير صحيح، حتى الذين يتكلمون عن المسجد الأقصى من الدعاة، وأحياناً من أهل البلد من فلسطين، يضعون قبة الصخرة خلف أظهرهم في المؤتمرات، وإلى الآن أنا لا أعرف وجه هذا، لا أدري لماذا؟.

فقال: إن أخذتَ عني صليتَ خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: ضاهيتَ اليهودية.

ضاهيت اليهودية، بالفتح، يعني كأنه أشار عليه بشيء فيه تعظيم لبعض ما عند اليهود، قبلة اليهود.

طالب: والضم -رعاك الله- له وجه لو قال: ضاهيتُ.

لكن هي ضبطتْ هكذا ضاهيتَ اليهودية.

فقال عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: ضاهيت اليهودية، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فتقدم إلى القبلة فصلى، ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة في ردائه، وكنس الناس.

الصخرة كان النصارى لشدة عداوتهم لليهود ولغلبتهم عليهم، كانوا قد جعلوها مكاناً للمزابل يلقون فيها الأقذار والنفايات على هذه الصخرة، فعمر -رضي الله تعالى عنه- أزال ذلك عنها، وبدأ بنفسه فأزال شيئاً فتتابع الناس.

فلم يعظم الصخرة تعظيماً يصلي وراءها وهي بين يديه كما أشار كعب الأحبار، وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم.

سبق في بعض المناسبات أن التابوت كانوا يستقبلونه في الصلاة، فإذا سافروا وذهبوا في غزواتهم ونحوها حملوه، فإذا أرادوا الصلاة وضعوه فصلوا إليه، فإذا كانوا في البلد وضعوه على الصخرة، واستقبلوه، ثم بعد ذلك لما ذهب التابوت من بين أيديهم صاروا يصلون إلى مكانه وهي الصخرة.

فلم يعظم الصخرة تعظيماً يصلي وراءها وهي بين يديه كما أشار كعب الأحبار، وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم، ولكن منَّ الله عليه بالإسلام فهُدي إلى الحق، ولهذا لما أشار بذلك، قال له أمير المؤمنين عمر: ضاهيتَ اليهودية، ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبلة اليهود، ولكن أماط عنها الأذى وكنس عنها الكناسة بردائه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذه الرواية على كل حال إسنادها عند الإمام أحمد فيه ضعف، وفيه رجل اسمه عيسى بن سنان، ضعفه جماعة كالإمام أحمد وأبي زرعة وابن معين.

سؤال: ما معنى الشطر؟

الشطر: النصف، ((ووضع شطرها فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها قال: ارجع إلى ربك، فوضع شطرها، فرجعت)) إلى آخره، كل هذا إجمال يعني في عشر عشر، خمس خمس، هنا شطرها شطرها، فإذا وضع الشطر ثم وضع شطره الآخر، فشطر الشطر الذي بقي، وهكذا.

ترتيب الأنبياء في السماوات:

كلما ارتفع النبي كان أشرف، فإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- في السماء السابعة، وموسى -عليه الصلاة والسلام- في السادسة، فكلما ارتفع كان أرفع، فإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أفضل الأنبياء سوى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وموسى -عليه الصلاة والسلام- هو أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهكذا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((حين أسري بي لقيت موسى -عليه السلام-))، فنعته فإذا رجل -حسبته قال:- ((مضطرب، رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة))، قال: ((ولقيت عيسى)) فنعته النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ربعة، أحمر كأنما خرج من ديماس)) -يعني حمام-، قال: ((ولقيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به)) قال: ((وأُتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، قيل لي: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربت، فقيل لي: هديت الفطرة -أو أصبت الفطرة- أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك))[١]. وأخرجاه من وجه آخر.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله إلي أنظر إليه ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلي، وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي، أقرب الناس شبهاً به عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي، أقرب الناس شبهاً به صاحبكم -يعني نفسه- فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت قال قائل: يا محمد هذا مالك خازن جهنم فسلم عليه، فالتفتُّ إليه فبدأني بالسلام))[٢].

روى البيهقي عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: "لما أسري برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟، قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة؛ فلذلك سمي أبو بكر: الصدِّيق"[٣].

---

١ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} [سورة طه:٩]، برقم (٣٢١٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات، برقم (١٦٨).

٢ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، برقم (١٧٢).

٣ - رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣٦١/٢)، والحاكم في المستدرك، (٦٥/٣)، برقم (٤٤٠٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٠٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال موسى بن عقبة الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة، وكذا قال عروة، وقال السدي: بستة عشر شهراً، والحق أنه -عليه السلام- أسري به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتي بالمعراج -وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها-، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماءٍ مقرَّبوها، وسلّم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما -صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء-، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها.

ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لمّا حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذٍ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله -تعالى-، ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع به هو وإخوانه من النبيين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل -عليه السلام- له في ذلك.

ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه في بيت المقدس، وجاء أنه في السماء، ويحتمل أن يكون ههنا وههنا؛ لأنه كالضيافة للقادم، والله أعلم.

ثم إنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، والدليل على هذا قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} [سورة الإسراء:١]، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقال تعالى: {أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً}، وقال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ} [سورة الإسراء:٦٠]، قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة أسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، رواه البخاري، وقال تعالى: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} [سورة النجم:١٧] والبصر من آلات الذات لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الروح، وأيضاً فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلو أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- اختار أوفى الروايات في هذا الباب واقتصر عليها لكان ذلك أحسن في التفسير -والله أعلم-؛ لأن المقصود هو إيضاح كلام الله -عز وجل- وبيان المعاني دون الخروج عن ذلك إلى الحديث عن الوقائع التي يذكرها القرآن بشيء من التفصيل وإيراد الأدلة، فهذا قد يكون خروجاً عن المقصود بالنسبة للتفسير، وإن كان لا يخلو من فائدة، لكن به يطول الكتاب، ولذلك أعرضَ عن هذا التفصيل كثير من المفسرين قصداً، ونبهوا على هذا، وأن هذا من طلبه وجده في الكتب المصنفة في السنة، وفي السيرة.

روى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب دلائل النبوة من طريق محمد بن عمر الواقدي: حدثني مالك بن أبي الرجال عن عمرو بن عبد الله عن محمد بن كعب القرظي قال: بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دحية بن خليفة إلى قيصر، فذكر وروده عليه وقدومه إليه، -وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل-، ثم استدعى من بالشام من التجار فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم كما سيأتي بيانه، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده. قال في هذا السياق عن أبي سفيان: والله ما منعني من أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها علي ولا يصدقني في شيء، قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به، قال: فقلت أيها الملك ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قال: قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا -أرض الحرم- في ليلة فجاء مسجدكم هذا -مسجد إيلياء-، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح، قال: وبطريق إيلياء عند رأس قيصر، فقال بطريق إيلياء: قد علمت تلك الليلة، قال: فنظر إليه قيصر وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فعالجتُه، فغلبنا فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلاً، فدعوت إليه النجاجرة، فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان، ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى، قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين، فلما أصبحت غدوت عليهما، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة، قال: فقلت لأصحابي ما حُبس هذا الباب الليلة إلا على نبي، وقد صلى الليلة في مسجدنا، وذكر تمام الحديث.

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه [التنوير في مولد السراج المنير] وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد، ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس، وشداد بن أوس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن قرط وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو، وجابر وحذيفة وبريدة، وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانئ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-، منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون، {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [سورة الصف:٨].

{وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً}[سورة الإسراء:٢-٣].

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد -صلى الله عليه وسلم- عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد -عليهما من الله الصلاة والسلام-، وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} يعني التوراة، {وَجَعَلْنَاهُ} أي: الكتاب {هُدًى} أي: هادياً {لبني إسرائيل ألاّ تتخذوا} أي: لئلا تتخذوا، {مِن دُونِي وَكِيلاً} أي: ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له.

في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}** قال: يعني التوراة، **{وَجَعَلْنَاهُ}** أي: الكتاب **{هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}**، وبعضهم يقول: **{وَجَعَلْنَاهُ}** أي: موسى -صلى الله عليه وسلم- وهذا خلاف الظاهر المتبادر، والأقرب -والله أعلم- ما ذكره الحافظ ابن كثير، **{جَعَلْنَاهُ}** أي: الكتاب؛ لأنه أقرب مذكور، والأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور.

{هُدًى} أي: هادياً، **{لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً}**، قال: "**أي لئلا تتخذوا**"، واللام هنا للتعليل، **{أَلاَّ تَتَّخِذُواْ}**، يعني أن الله -عز وجل- أنزل الكتاب الذي أنزله على موسى -عليه الصلاة والسلام- وجعله هادياً لهم لئلا يتخذوا من دون الله وكيلاً، ويحتمل أن تكون "أن" هذه مفسرة، و"أن" المفسرة كما هو معلوم هي التي تأتي بعد معنى القول، لكن لا بحروفه، فـ **{أَلاَّ تَتَّخِذُواْ}**، **{وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}**، ثم فسر هذا الهدى وهو ألا يتخذوا، بمعنى أن الكتاب جاء بالتوحيد، بالأمر بالتوكل على الله -عز وجل-، وتفويض الأمور إليه، والاستعانة به وحده، والثقة بما عنده وأن يكون هو الوكيل.

يقول: "**أي لئلا تتخذوا {مِن دُونِي وَكِيلاً} أي: ولياً، ولا نصيراً، ولا معبوداً من دوني**"، فالوكيل فعيل من التوكل، أي متوكَّلاً عليه، تفوضون إليه أموركم فيوصل إليكم النفع ويدفع عنكم الضر، فإن هذا لا يكون إلا لله -عز وجل-، **{وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ}** [سورة المائدة:٢٣]، **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ}** [سورة الفرقان:٥٨]، والأقوال التي ذكرها السلف -رضي الله تعالى عنهم- في هذا المعنى متقاربة وترجع إلى شيء واحد، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا جمع جملة من هذه المعاني التي ذكروها بهذا السياق، فبعضهم يقول: **{وَكِيلاً}** أي: كفيلاً بأموركم، وبعضهم يقول: شريكاً، وبعضهم يقول: كافياً، والله -عز وجل- يقول: **{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}** تفوض أمورك إليه وتركن إلى جنابه، وتعتمد عليه، ولا تلتفت إلى أحد سواه، وهذا هو التوحيد، إفراد الله -عز وجل- بالتوكل، والثقة به، دون الالتفات إلى أحد سواه؛ لينفعك أو ليضرك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} تقديره يا ذرية من حملنا مع نوح، فيه تهييج وتنبيه على المِنَّة، أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم {إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً}، فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً -صلى الله عليه وسلم-.

قوله: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا} منادى ويحتمل أن يكون منصوباً على الاختصاص، ومن أهل العلم من خص بذلك بني إسرائيل مع أن ذرية من حُملوا مع نوح -عليه الصلاة والسلام- تشمل جميع الناس، فكلنا من ذرية أولئك، من ذرية نوح -عليه الصلاة والسلام-، والله -عز وجل- كما أخبر: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} [سورة الصافات:٧٧]، فمن أهل العلم من يقول: لما كان السياق في خطاب بني إسرائيل وجه ذلك إليهم خاصة، ومن أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- من حمله على العموم، {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ}، أي: يا ذرية من حملنا مع نوح كيف يقع منكم الالتفات والإشراك والتكذيب، والله -عز وجل- قد حملكم في السفينة وأنجاكم وأغرق العالمين، ثم بعد ذلك يقع منكم ما وقع من أولئك الذين أغرقهم الله؟، هذا أمر لا يليق ولا يحسن!.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها))[٤]، وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي.

وقال مالك عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال، وقد ذكر البخاري هنا حديث أبي زرعة عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة)) بطوله وفيه: ((فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك))[٥]، وذكر الحديث بكامله.

وذكر الشكر {إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً}، والشكر كما هو معلوم لا يكون إطلاقاً ممن يضيف الإنعام أو يقابل الإنعام إلى غير المنعِم، يقابله بعمل يوجهه إلى غير المنعِم المتفضل، فيعبد غيره، ويستعين بغيره، ويتقرب إلى غيره، فهذا هو أظلم الظلم، وتوجيهُ أو جعلُ العبادة في غير مَن خلق خلافُ الشكر.

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، برقم (٢٧٣٤)، وأحمد في المسند (٣٦/١٩)، برقم (١١٩٧٣)، وقال محققوه: إسناده على شرط الشيخين.

٥ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[سورة نوح:١]، برقم (٣١٦٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً * عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً} [سورة النحل:٤-٨].

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي تَقدّم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علواً كبيراً، أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، كقوله تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ}[سورة الحجر:٦٦] **أي: تقدمنا إليه، وأخبرناه بذلك، وأعلمناه به.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ}: قوله: {وَقَضَيْنَا} هذه الكلمة أو الفعل، أو المادة، مادة القضاء تأتي بمعنى الإعلام، وتأتي بمعنى الإحكام للشيء، والفراغ منه، ومعانيها الفرعية متعددة، قضينا، القضاء يأتي بمعنى الحكم، تقول: قضى بين الخصوم، ويقول الله -عز وجل-: {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ} [سورة البقرة:٢٠٠] يعني فرغتم منها، وتقول: قضاء الفائتة، يراد به الفعل، الصلاة خارج الوقت، وقوله: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} بناءً على الاختلاف في المعنى اللغوي اختلف المفسرون، ما معنى {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}؟، فهنا يقول: يخبر أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب، فهنا فسر القضاء {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} بمعنى الإعلام، أعلمناهم، ومن أهل العلم -كابن جرير -رحمه الله- مَن قال: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} أي: فرغنا إليهم، يعني بإعلامهم، وإخبارهم -عن طريق كتابهم الذي أنزلناه على موسى -صلى الله عليه وسلم- أن ما ذكر سيقع لا محالة، وكلمة "قضى" يمكن أن تكون مضمنة معنى الإيحاء، ولذلك عُديت بـــ"إلى"، بمعنى أوحى إليه، وإذا أردت الفصل بين الخصوم تقول: قضى بين الخصوم، وهكذا كل معنىً بحسبه، وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم**" وهو التوراة، وهذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم، وبعضهم يقول: المقصود {فِي الْكِتَابِ} يعني: اللوح المحفوظ، أي أن الله قدر ذلك عليهم أزلاً، والأول هو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأقرب؛ لأنه يتحدث عن بني إسرائيل وحينما يذكر الكتاب في مثل هذا المقام فهو الكتاب الذي أنزل عليهم، والله أعلم.

وقوله: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا} أي: أولى الإفسادتين، {بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} أي: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد، أي قوة وعدة وسلطنة شديدة، {فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ} أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي بينها ووسطها، فانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً، وكان وعداً مفعولاً.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلَّطين عليهم من هم؟

قول الله -تبارك وتعالى-: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ}، هذه الأرض قيل: هي أرض الشام، وقيل: بيت المقدس، وبعضهم يقول: هي مصر وهذا بعيد، والإفساد المعروف الذي حصل منهم كان في الشام أو في بيت المقدس؛ لأنه مكان وجودهم، وقوله -تبارك وتعالى-: {لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ}، ليس هناك شيء يمكن أن يعتمد عليه في هاتين الإفسادتين متى كانتا؟، ومتى كانت إدالة عدوهم عليهم؟ وكل ما يذكر في هذا الباب مرجعه إلى الأخبار الإسرائيلية، ومثل هذه الأخبار لا يعول عليها، ولذلك تجد بينها من الاختلاف والمنافاة الشيء الكثير، وبعضهم يقول: إن الإفسادة الأولى هي بقتل أشعيا، وبعضهم يقول: حبس أرميا، وبعضهم يقول: مخالفة أحكام التوراة، وبعضهم يقول: قتل زكريا -عليه الصلاة والسلام-، والثانية: بعضهم يقول: بقتل يحيى، ومحاولة قتل عيسى -عليه الصلاة والسلام-، {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ}، يقول: "**أي سلّطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد**"، ولا يوجد ما يعتمد عليه في معرفة من سُلطوا عليهم، بعضهم يقول: سلط عليهم في المرة الأولى بُخْتُنَصَّر، وبعضهم يقول: جالوت، وبعضهم يقول: جند من فارس، وبعضهم يقول: جند من بابل، -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: الأولى جالوت، والثانية بُخْتُنَصَّر، وبعضهم يقول: في الأولى ملك يقال له: سنحريب من ملوك العراق الأقوياء، ومعرفة مثل هذا لا يترتب عليه شيء، {فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ} يعني أولى الإفسادتين المذكورتين اللتين قضاهما الله -عز وجل- على بني إسرائيل، فيعاقبهم بتسليط عدوهم عليهم وإدالته عليهم، فاستباح بلادهم وقتل نفوساً كثيرة، وخرب البلاد وأخذ الأموال، كل هذا قد وقع، لكن لا يدرى على يد من كان؟ -الله أعلم-، والمفسرون يطبقون على أن هاتين الإفسادتين قد وقعتا، وأن هذه العقوبات قد نزلت، وسلط الله عليهم من سلط من جنده، أو من خلقه فعثوا بهم فساداً، وخربوا ملكهم، كل هذا قد وقع، ولا حاجة إلى ما يقوله بعض الناس اليوم: إن الإفسادة الثانية لم تقع، وأنها هي التي وقعت الآن، يعني لم تقع في القديم، والمفسرون مطبقون على أن ذلك قد وقع، لكن الله -عز وجل- قال بعد ذلك: {وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا}، والمفسرون يقولون: إنهم قد عادوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- بنقض العهود وبتكذيبه -عليه الصلاة والسلام-، وبمحاولة قتله، فسلط الله -عز وجل- عليهم نبيه -صلى الله عليه وسلم- ومن معه من أهل الإيمان، فوقع ما وقع لقريظة والنضير وقينقاع وأهل خيبر، فهؤلاء يقولون: هذه هي المرة الثالثة، وهذا الوعد مفتوح {وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا}، والله -عز وجل- حكَمٌ عدلٌ، ويقول: {قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَنْفُسِكُمْ}[سورة آل عمران:١٦٥]، فما يُسلط هؤلاء الأراذل على المسلمين إلا بسبب ذنوبهم وتقصيرهم في حق الله -عز وجل-.

وقوله: {فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ} يقول: "**أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم أي بينها، فانصرفوا ذاهبين**"، إلى آخره، هذا المعنى هو الذي عليه عامة المفسرين، والجوس يأتي بمعنى طلب الشيء باستقصاء، وفي قراءة لابن عباس {فحاسوا} يقال: جاسوا وحاسوا وهاسوا، كل ذلك بمعنى واحد، جاسوا خلال الديار، والمعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير يشمل أقوالاً عدة، قال: تملكوا بلادكم، وسلكوا خلال بيوتكم، وانصرفوا ذاهبين، هذه معانٍ ذكرها المفسرون، {فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ} بمعنى أنهم تمكنوا منها، ودخلوا فيها، حتى تمكنوا وصاروا يذهبون ويجيئون، ويتخللون البيوت والأحياء والطرقات ذاهبين وراجعين لا يخافون، بمعنى حصل لهم التمكن، وأصل المعنى: طلب الشيء باستقصاء، فإنهم بذلك كما قال بعض المفسرين: صاروا يطلبون من يخالفهم ومن يقف في وجوههم، أو يتطلبون النفوس بقتلها، يذهبون ويرجعون، يقتلون الناس وينهبون الأموال ويخربون ما وجدوه، والألفاظ القرآنية مهما وضعت من الألفاظ مكانها فإنها لا تؤدي معناها، يعني لو كانت مكان هذه اللفظة {فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ}، لو قال مثلاً: فجاسوا، فتغلغلوا خلال الديار، أو جعلوا يذهبون ويرجعون، أو تمكنوا لما أدت المعنى المراد، ويمكن تصور هذا المعنى بتصور المحتل حينما يتغلغل ويتمكن في البلد، وتنتشر جنوده بين البيوت وفي الطرقات، وفي كل مكان يذهبون ويجيئون، فهذا معنى {فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ}.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم من هم؟ وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أرَ تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، مِن وضْع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن في غُنْية عنها، ولله الحمد، وفيما قص الله علينا في كتابه غُنْية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم، وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا، سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم جزاءً وفاقاً، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [سورة فصلت:٤٦]، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء، وقد روى ابن جرير عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بُخْتُنَصَّر على الشام، فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كِبًا، فسألهم، ما هذا الدم؟

على كِبًا: يعني على كناسة.

فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر.

يعني مهما وضع عليه من الكناسة يظهر ويعلوها.

قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن، وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ منهم خلقاً كثيراً أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} أي: **فعليها، كما قال تعالى:** {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا}.

الخطاب في قوله: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ}، يحتمل أنه متصل بما قبله، {لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ}، فيقول لهم: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ} فيكون الخطاب موجهاً إلى أولئك الذين وقع منهم الإفساد، ويحتمل أن يكون موجهاً لأحفادهم ممن عاصر النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويحتمل أن يكون موجهاً للمخاطبين بالقرآن، وبعضهم يقول: للعرب من المشركين الكفار، ويمكن أن يحمل على العموم، وما قبله وما بعده في بني إسرائيل، والله تعالى أعلم.

وقوله: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ} **أي: الكرّة الآخرة، أي إذا أفسدتم الكرّة الثانية وجاء أعداؤكم،** {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ} **أي: يهينوكم ويقهروكم،** {وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ} **أي: بيت المقدس،** {كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ} **أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار،** {وَلِيُتَبِّرُوا} **أي: يدمروا ويخربوا،** {مَا عَلَوْا} **أي: ما ظهروا عليه،** {تَتْبِيراً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ} **أي: فيصرفهم عنكم،** {وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا} **أي: متى عدتم إلى الإفساد،** {عُدْنَا} **إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال؛ ولهذا قال:** {وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً} **أي: مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: حصيراً أي سجناً، وقال مجاهد: يحصرون فيها، وكذا قال غيره، وقال الحسن: فراشاً ومهاداً، وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحيَّ -محمداً -صلى الله عليه وسلم- وأصحابَه-، يأخذون منهم الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.**

قوله: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ} جواب "إذا" محذوف تقديره: فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوءوا وجوهكم، وقوله -تبارك وتعالى-: {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ} يقول ابن كثير -رحمه الله-: "**أي يهينوكم ويقهروكم**"، هذا تفسير بالمعنى، والمعنى الأدق من هذا يمكن أن يكون هكذا {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ} يعني: ليفعلوا بكم ما تحصل به المساءة لكم مما يظهر أثره في وجوهكم، فالإنسان يظهر على وجهه الأثر الذي يقع عليه، فالوجه مرآة، يعكس ما في داخل الإنسان من هم أو خوف أو ظلمة قلب، أو غير ذلك من المعاني والأحوال، فالشاهد {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ} يعني: ليفعلوا بكم ما يحصل به مساءتكم، فيظهر أثر ذلك على وجوهكم، {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ}، قال: "**أي يهينوكم ويقهروكم**"، {وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ} يعني بيت المقدس، {كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا} أي: يدمروا ويخربوا، {مَا عَلَوْا} أي: ما ظهروا عليه {تَتْبِيرًا}، قال: {عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ}، وعسى من الله واجبة، أي متحققة الوقوع، فأدالهم الله -عز وجل- على عدوهم وأظهرهم عليه، قال: {وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا}، إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى الإدالة عليكم، {وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا} عامة المفسرين يقولون: إن ذلك قد وقع في زمان النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وفي قوله هنا: {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ} في قراءة لأبيّ {لِنَسوءنْ وجوهكم} يكون من فعل الله -عز وجل-، وفي قراءة متواترة لحمزة وابن عامر {ليسوء}، وفي قراءة للكسائي {لنسوء} كل ذلك من فعل الله -عز وجل-، وبعضهم يفسر الوجوه بالأشراف والسادة، {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ} كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً} [سورة النمل:٣٤] وهم وجوه الناس، وهذا المعنى بعيد؛ لأنه خلاف الظاهر المتبادر من القرآن.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا}**، ذكر المعنيين، المعنى الأول: أنها تحصرهم، وإذا كانت تحصرهم يلزم من ذلك أن تكون سجناً لهم، فمن فسره بالسجن فهذا تفسير باللازم، فجهنم تحصرهم **{وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا}** [سورة الفرقان:١٣]، والمعنى الثاني: هو ما نقله عن الحسن قال: "**فراشاً ومهاداً**"، فسر هنا حصيراً بالحصير الذي يُفرش ويُجلس عليه، والله -عز وجل- قال: **{لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ}** [سورة الأعراف:٤١]، فيمكن أن يفسر الحصير هنا بهذا المعنى، فالمعنيان كلاهما تحتمله هذه اللفظة، ويمكن أن يفسر بهما فيقال: جهنم تكون سجناً لهم، لا يستطيعون الخلاص، ولا الخروج منها، وتكون كذلك أيضاً فراشاً ومهاداً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشّرُ الْمُؤْمِنِينَ الّذِينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحَاتِ أَنّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً * وأَنّ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً} [سورة الإسراء:٩-١٠].

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-، وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، {وَيُبَشّرُ الْمُؤْمِنِينَ} به {الّذِينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحَاتِ} على مقتضاه، {أَنّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً} أي: يوم القيامة، {وأَنّ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة} أي: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن {لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً} أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الإنشقاق:٢٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {يِهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**لأقوم الطرق وأوضح السبل**"، والله -تبارك وتعالى- أطلق هنا {يِهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ} في كل شيء، مما يحتاج الناس إليه، فهذا القرآن قد اشتمل على ألوان الهدايات، والشنقيطي -رحمه الله- في أضواء البيان تكلم على هذه الآية بكلام طويل مفصل يزيد على خمسين صفحة، تكلم على مسائل فيما يتعلق بتعدد الزوجات والمصالح المترتبة على هذا، وتكلم على الرق، وغير ذلك.

قال: {وَيُبَشّرُ الْمُؤْمِنِينَ الّذِينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحَاتِ}، وهذا فيه ذكر لبعض الموضوعات التي تضمنها القرآن، أو جاء القرآن لتقريرها كالهداية، وكذلك البشارة لأهل الإيمان، {وَيُبَشّرُ الْمُؤْمِنِينَ الّذِينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحَاتِ}، وهذا اشتمل على شروط قبول العمل الثلاثة: الإيمان والإخلاص والمتابعة.

وقوله: {وأَنّ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة} قال: "**أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذاباً أليماً، أي يوم القيامة، كما قال تعالى: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}**"، البشارة كما هو معروف قيل لها بشارة لأنه يظهر أثرها على بشرة المبشَّر، وغالب ما تستعمل في الإخبار بما يسر، وقد تأتي معبراً بها عن الإخبار بما يسوء، كقوله: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، وبعضهم يقول: إن هذا الاستعمال هو من قبيل المجاز، وهذا عند القائلين بالمجاز، كقول بعضهم:

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بَخِيلٍ *** تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

فسماه تحية، الشاهد أن من يقول بالمجاز يقول: إن هذا من قبيل المجاز، والذين لا يقولون بالمجاز يقولون ما سبق من أن الاستعمال الغالب لهذه اللفظة إنما يكون في الإخبار بما يسر، وقد تستعمل في الإخبار بما يسوء، وبعضهم يقول: هذا من قبيل التهكم بهم، وهذه الآية من أهل العلم من يقول: إن المقصود بذلك البشارة لأهل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإيمان بأمرين، يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالثواب، وبما ينتظر المكذبين من العقاب، يعني كل هذا بشارة لأهل الإيمان بأن الله -عز وجل- سيعذب أعداءه وأعداءهم وينتقم منهم، والأول أقرب أنه جاء مشتملاً على التبشير والإنذار.

{وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً}[سورة الإسراء:١١].

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه، أو ولده، أو ماله بالشر، أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ} [سورة يونس:١١] الآية، وكذا فسره ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة، وقد تقدم في الحديث: ((لا تدعوا على أنفسكم، ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها))[1]، وإنما يحمل ابنَ آدم على ذلك قلقُه وعجلته؛ ولهذا قال تعالى: {وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً}، وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- ههنا قصة آدم -عليه السلام- حين همّ بالنهوض قائماً قبل أن تصل الروح إلى رجليه، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه، فلما وصلت إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله، فقال الله: يرحمك ربك يا آدم، فلما وصلت إلى عينيه فتحهما، فلما سرت إلى أعضائه وجسده، جعل ينظر إليه ويعجبه، فهم بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع، وقال: يا رب عجل قبل الليل.

قوله: {وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ} المعنى المتبادر الظاهر المشهور الذي عليه عامة المفسرين هو أنه قد يدعو على نفسه، أو ماله أو ولده، ونحو هذا، ويدخل في هذا ما ذكره بعضهم مما قد يقع من الإنسان في حال جهالته أيضاً، كقولهم: {اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[سورة الأنفال:٣٢]، هذا من دعائه بالشر، وهناك معنىً آخر ذكره بعض أهل العلم، قال: إنه يدعو بالشر أي بتحصيله وطلبه، وهو ما لا يرضي الله -عز وجل-، فقد يدعو ربه أن ييسر له المعصية، وهذا دعاء بالشر، هكذا قال بعضهم، وبعض السفهاء يقول:

أطوف بالبيت فيمن يطوف *** وأرفع من مئزري المسبلِ
وأسجد بالليل حتى الصباح *** وأتلو من المحكم المنزلِ
عسى فارج الهم عن يوسف *** يُسخِّر لي رَبَّة المحملِ

ربة المحمل: يعني صاحبة الهودج، يطوف بالبيت فيمن يطوف، يسجد بالليل حتى الصباح، ويتلو من المحكم المنزل، كل هذا من أجل أن ييسر له ربة المحمَل، أو المَحمِل، والظاهر المتبادر أن المقصود بـــ{وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ} -لأنه قال: {وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً}- أنه قد يدعو على نفسه، أو يدعو على ولده ومن يحب، أو على ماله، في حالات غضبه، ثم يندم على ذلك، ولو وقع ما دعا به لأكلته الحسرة والندامة.

---

١ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، برقم (٣٠٠٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً} [سورة الإسراء:١٢].

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل، وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع، والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضيّ الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: {لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مّن رّبّكُمْ} أي: في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك، {وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السّنِينَ وَالْحِسَابَ} فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [سورة القصص:٧١-٧٣]، وقال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً} [سورة الفرقان:٦٢-٦٢]، وقال تعالى: {وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [سورة المؤمنون:٨٠]، وقال: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} [سورة الزمر:٥]، وقال تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[سورة الأنعام:٩٦]، وقال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[سورة يس:٣٧-٣٨]، ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أي علامة يعرف بها، وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة وهي النور وطلوع الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس؛ ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ} إلى قوله: {لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} [سورة يونس:٥-٦] وقال تعالى: {يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [سورة البقرة:١٨٩] الآية.

قال ابن جريج عن عبد الله بن كثير في قوله: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}، قال: ظلمة الليلة وسدف النهار، وقال ابن جريج عن مجاهد: الشمس آية النهار والقمر آية الليل، {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالى، وقال ابن أبي نجيح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ} قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله -عز وجل-.

قوله: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ}، يمكن أن يقال: إنه قدم الليل باعتبار أنه الأصل، ثم قال: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}، {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} يعني: قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ظلمة الليل وسدف النهار**"، وسدف النهار يعني ما يكون فيه من الاختلاط في أوله ما بين الفجر إلى طلوع الشمس، واختلاط النور بالظلام، وقال ابن جريج عن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل، بمعنى جعل الليل مظلماً والنهار مضيئاً، هذا معناه، قال: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالى، وجاء هذا عن جماعة من السلف -رضي الله تعالى عنهم-، وهو مروي عن علي -رضي الله عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجميع-، بعض أهل العلم يقول: كان القمر مثل الشمس يضيء، ثم بعد ذلك مُحي فصار بالصورة التي نراها، والعلماء يقولون: إن الضوء الذي في القمر أو النور الذي في القمر ليس من ذاته، وإنما هو انعكاس لما يحصل له من ضوء الشمس، {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا}، فبعضهم يقول: هذا هو المحو: أن الله غيره بعدما كان كالشمس في الإضاءة، وبعضهم يقول: الله خلقه هكذا ابتداءً، ولم يكن كالشمس، والمقصود بقوله: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} أي: جعلناه لا يضيء كالشمس، فخلق الشمس بهذا الضياء لينكشف به الظلام، وخلق القمر بهذه الصفة، وأن هذا هو المحو، {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ}: يعني ابتداءً منذ أن خلقناها، والآية تحتمل هذا وهذا، {فَمَحَوْنَا} هل هذا المحو كان بعدما خلقه على صفة أخرى ثم بعد ذلك تغير؟ أو أنه خلقه هكذا بهذا المحو؟ ليس عندنا دليل يحدد شيئاً من ذلك، -والله تعالى أعلم- كيف كان، لكن هنا يقول: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} قال: "**السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالى**"، يعني لم يكن مضيئاً كالشمس ثم بعد ذلك تغير، وإنما هكذا خلقه ممحوًّا، وقال هنا عن ابن عباس: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ} قال: "**ليلاً ونهاراً، وكذلك خلقهما الله -عز وجل-**"، يعني نفس الليل ونفس النهار، يعني هما آيتان، قال: {وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}، بعضهم يقول: هذا من قولهم: أبصر النهار يعني إذا صار في حالة يُبصَر بها، فيكون من وصف الناس، يبصرون بها، {آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}: يعني يبصر بها الناس، أو أن المعنى {وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} أي: مبصرة للناس، آية واضحة، فيكون ذلك من صفته، وقوله -تبارك وتعالى-: {لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} أي: بتعاقب الليل والنهار، فتنقضي بذلك الأيام والشهور والسنوات، والفرق بين العدد والحساب: {عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ}، العدد: يقولون: هو إحصاء ما له كمية من غير أن يتحصل منه شيء، الآن لو جلس إنسان يعد سواري المسجد، واحد، اثنان، إلى آخرها، هذا يسمى عدد، وأما الحساب: فهو إحصاء ما له كمية مما يتحصل منه شيء، فالساعة ستون دقيقة، فإذا جلس يحصي أجزاء الساعة، حتى يتحصل منها ساعة يقولون: هذا هو الحساب، اليوم أربع وعشرون ساعة، فإذا جلس يعد ساعات النهار حتى يتحصل منها اليوم هذا يقولون له: حساب، الأسبوع سبعة أيام، فإذا جلس يعد السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، فهذا يقال له: حساب، والشهر يكون تسعاً وعشرين أو ثلاثين، فإذا جلس يعد هذا فيقال له: حساب، وهكذا العام حينما يعد شهور العام ليتحصل منها سنة فيقول مثلاً: المحرم وصفر إلى آخره حتى يصل إلى ذي الحجة ويقول: هذا عام، هذا هو الحساب، إحصاء ما له كمية؛ ليتحصل منه شيء، تَعدُّ اثني عشر شهراً على أساس أن تخرج بسنة، تعد أربعاً وعشرين ساعة من أن أجل أن تخرج باليوم، وهكذا، والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً}[سورة الإسراء:١٣-١٤].

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ}، وطائره هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغيرهما، من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه، {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} [سورة الزلزلة:٧-٨]، وقال تعالى: {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[سورة ق:١٧-١٨]، وقال: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [سورة الإنفطار:١٠-١٢]، وقال: {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة التحريم:٧]، وقال: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ} [سورة النساء:١٢٣] الآية، والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساء.

وقوله: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً} أي: نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقياً، منشوراً أي مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره، {يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} [سورة القيامة:١٣-١٥]؛ ولهذا قال تعالى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً} أي: إنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي، وقوله: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ } إنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد، ومن أُلزم بشيء فيه فلا محيد له عنه.

وقال معمر عن قتادة: {أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ} قال: عمله، {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} قال: نخرج ذلك العمل {كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً}، قال معمر: وتلا الحسن البصري {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} [سورة ق:١٧]، يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووُكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً، {اقْرَأْ كِتَابَكَ} الآية، فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك، هذا من أحسن كلام الحسن -رحمه الله-.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ}، قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم**"، ويضبط هذا فيقال: بعد ذكر الزمان، وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم، وهذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو ما يسمى بعلم المناسبة، وجه الارتباط بين الآية وبين ما قبلها، فقوله: في هذه الآية {وَكُلَّ إِنْسَانٍ} هذه في العمل، والتي قبلها في الزمان {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ} [سورة الإسراء:١٢]، فالزمان ظرف للأعمال، الأعمال إنما تقع في الزمن، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ}، قال الحافظ -رحمه الله-: "**الطائر هو ما طار عنه من عمله**"، ما طار عنه، وعزى هذا إلى جماعة من السلف، وقال به طائفة منهم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ما طار عنه، وإن شئت أن تقول: منه، من العمل، يعني أن طائره هو عمله الذي قدمه من خير وشر، هذا معنى، والمعنى الآخر هو ما طار له من عمل وسعادة وشقاوة في قدر الله -عز وجل-، ما قدره عليه، فإن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فهذا المعنى، سواء عبر عنه بما طار له من العمل في الأزل في القدر، أو ما قدر عليه من السعادة والشقاوة فهذا كله بمعنى، وبعضهم وسع هذا فقال: ما طار له في قدر الله -عز وجل-، ما كتب من رزق وأجل وعمل، {أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ} أن ذلك واقع لا محالة، {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً}، ولكن لو أنه قيل: إن هذا المعنى أوسع من المراد في الآية؛ لأن الله قال: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً}، فالذي يكتب في الكتاب الذي يلقاه منشوراً هو العمل، وليس الرزق والأجل، وما إلى ذلك مما قدره الله -عز وجل- على الإنسان من مصائب، ولذات وما أشبه هذا، إنما هو عمله الذي يجازى عليه، وفي بعض القراءات {ويَخرُج لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} يعني: هذا الطائر، وفي بعضها {ويُخرَج له} فالشاهد أن القول بأن ذلك في السعادة والشقاوة، أي: ما سبق له في علم الله -عز وجل- من السعادة والشقاوة هو بمعنى قول من قال: ما قدره الله -عز وجل- عليه من الأعمال، ولكن القول بأنه ما طار منه أو عنه، فهذا يختلف، فهذان قولان، والثالث أوسع من الأول، وإن كان يشترك معه في بعض المعنى، أو في أصل المعنى، والجمع بين القولين -أعني ما قدر عليه من العمل أو السعادة والشقاوة، وما طار عنه من العمل، ما صدر منه- أن بينهما ملازمة، فإن ما صدر عن الإنسان من عمل طاعة ومعصية ونحو ذلك، لا يخرج عما قدره الله -عز وجل- عليه، فهذان متلازمان، فلا يكون شيء ولا يقع من الإنسان قليل ولا كثير إلا وهو في علم الله -عز وجل-، وهو مما قدره الله -عز وجل- وقضاه، ومما يدل على المعنى الأول -يعني السعادة والشقاوة- قول الله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} [سورة التغابن:٢]، فعلى أحد المعنيين في الآية، {فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} بمعنى أن الله -عز وجل- خلقهم هكذا، خلق قوماً للجنة، وخلق قوماً للنار، كما جاء في النصوص الأخرى التي تدل على هذا المعنى: من بعْث الملَك إليه إذا بلغ أربعة أشهر، وهو في بطن أمة، فيؤمر بأربع كلمات ومنها عمله، شقي أو سعيد[1]، وهكذا أيضاً ما جاء من الأحاديث في أن الله -عز وجل- كتب أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، وكذلك أهل النار، فهذا أمر حاصل دلت عليه

---

١ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٠٣٦)، ومسلم، كتاب القدر، باب خلق الآدمي في بطن أمه، برقم (٢٦٤٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النصوص، والمعنى الثاني: أن كل إنسان يلزمه عمله الذي صدر عنه، هذا دلت عليه نصوص كثيرة، كقوله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ}، {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، إلى غير ذلك من النصوص، فبين القولين ملازمة، والطائر عند العرب يطلق على الحظ، وهنا قال: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ}، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، في تعليل ارتباط ذلك بالعنق وإضافته إليه، يقول: "**إنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد، ومن أُلزم بشيء فيه فلا محيد له عنه**"، بمعنى أن اليد قد تنفصل، والقدم قد تنفصل، أما العنق فلا ينفصل إلا بانفصال الحياة؛ ولهذا تربط به هذه الأشياء، يقال: هذا في عنقك، فلان في عنقك، ما حصل لهؤلاء من الضلال والانحراف في عنقك، وهذا معنى: اللازم للإنسان لزوماً لا ينفك عنه، وقوله عن الحسن البصري -رحمه الله-: "**حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك**" هذا هو المعروف، وأما طيُّ الصحيفة نهاية العام فلا أعلم لهذا دليلاً، إنما تطوى صحيفة الإنسان إذا مات، فالصحيفة لا تطوى إلا إذا مات الإنسان، هذا الذي يعرف والله تعالى أعلم، والناس ينبغي أن يضبطوا كلامهم بالضوابط الشرعية، فلا يقال تطوى الصحيفة في نهاية العام ثم تفتح صحيفة أخرى، وبداية العام من شهر محرم إنما كان ذلك في زمن عمر -رضي الله تعالى عنه-، ولم يكن في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالحكم بأن صحيفة العمل تطوى في نهاية شهر ذي الحجة، وتبدأ صحيفة من بداية شهر محرم، إنما كان هذا التاريخ من أجل الضبط، وجدوا أن الناس يؤرخون الكتب فاحتاجوا إلى شيء يؤرخون فيه، فتشاوروا فاصطلحوا على أن يكون ذلك وقت الهجرة؛ لأنه الزمن الفاصل بين مرحلتين، من هذا الباب، لكن كونه تطوى الصحيفة أو تُرتب عليه أشياء جديدة من أمور في علم الله -عز وجل-، وفي أقداره، هذا يحتاج إلى دليل، -والله أعلم-، أما التهنئة بالعام الجديد فلا أعلم لهذا أصلاً في الشرع، وأخشى أن يكون هذا فيه مضاهاة للنصارى في احتفالهم وتهانيهم بعامهم الجديد، العام الجديد عندهم عيد وتهانٍ وبطاقات، فيكون ذلك كأنه فيه مضاهاة له، وصرنا نحتفل بالعام الجديد، أو نحتفي به أو نرسل التهاني مثل هؤلاء، وفي زمن أبي بكر وزمن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن فيه بداية العام الجديد.

{مَّنِ اهْتَدَىَ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىَ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىَ نَبْعَثَ رَسُولاً} [سورة الإسراء:١٥].

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق، واقتفى أثر النبوة، فإنما يحصّل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه، {وَمَن ضَلَّ} أي: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ثم قال: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىَ} أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جان إلا على نفسه، كما قال تعالى: {وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ} [سورة فاطر:١٨]، ولا منافاة بين هذا وبين قوله: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ} [سورة العنكبوت:١٣]، وقوله: {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [سورة النحل:٢٥]، فإن الدعاةَ عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا مَن أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده، وكذا قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىَ نَبْعَثَ رَسُولاً}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله تعالى: {كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}، كفى: إذا جاءت متعدية تأخذ مفعولين، لا تأتي الباء مع ما بعدها، تقول: كفى بالشيب واعظاً، لكن إذا جئت بها متعدية إلى مفعولين سقطت منها الباء، ففي قوله: {كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}، ما قال مثلاً: كفى بنفسك اليوم لك حسيباً، عديت بعلى؛ لأن حسيباً مضمنة معنى الشهادة، شهد عليه {شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ} [سورة فصلت:٢٠]، -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {مَّنِ اهْتَدَىَ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} أي: إن ذلك عائد إليه، لا إلى غيره، وقال: أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىَ} أصل الوزر: من وَزَرَ يَزِرُ إذا حَمَلَ، فأصله الحمْل؛ لذلك يقال: الوزير لأنه يحمل أعباء تدبير ما أنيط به من أعمال السلطان، أو من شئون الدولة، يقال له: وزير، فهذا الفعل وزر بمعنى حمل، هذا أصله، -والله أعلم-.

وكذا قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىَ نَبْعَثَ رَسُولاً}.

إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كقوله تعالى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ}[سورة الملك:٨-٩]، وكذا قوله: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}[سورة الزمر:٧١]، وقال تعالى: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}[سورة فاطر:٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تتمة تفسير قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىَ نَبْعَثَ رَسُولاً} [سورة الإسراء:١٥].

بقي ههنا مسألة قد اختلف الأئمة -رحمهم الله تعالى- فيها قديماً وحديثاً، وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوة؟ وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه:

(فالحديث الأول): روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعُنّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً))[١].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الحديث الذي أورده المصنف -رحمه الله- هو أصل في هذا الباب، والكلام في أهل الفترة كثير، والمقصود بهم الذين لم تبلغهم دعوة نبي، وقد يطلقه بعض أهل العلم بإطلاق خاص ويقصد به الذين كانوا بين عيسى -صلى الله عليه وسلم- والنبي -عليه الصلاة والسلام-، ولكن هؤلاء ليسوا جميعاً بأهل فترة، العرب كانوا على بقية من دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وكان أول من غير دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- هو عمر بن لحي الخزاعي كما هو معروف، وهو أول من سيب السوائب، وبحر البحائر، وجاء بالأصنام إلى مكة، وأمرهم بعبادتها، وكان سيداً مطاعاً، ومعلوم أن خزاعة كانت مستولية، أو حاكمة في مكة مدة طويلة تبلغ ثلاثمائة سنة، فالشاهد أنهم كانوا على بقية من دين إبراهيم؛ ولهذا لا يقال: إن جميع هؤلاء كانوا أهل فترة؛ ولهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سأله رجل: أين أبي؟ قال: ((في النار))، ثم لما ولّى الرجل دعاه فقال: ((إن أبي وأباك في النار))[٢]، وكذلك لما استأذن ربه أن يزور قبر أمه فأذن له،

---

١ - رواه أحمد في المسند (٢٢٨/٢٦)، برقم (١٦٣٠١)، وقال محققوه: حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٨٨١).

٢ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ولا تناله شفاعة ولا تنفعه قرابة المقربين، برقم (٢٠٣)، من حديث أنس -رضي الله عنه-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستأذنه أن يدعو لها فلم يأذن له[٣]، ولما استغفر من استغفروا لآبائهم أنزل الله -عز وجل-: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [سورة التوبة:١١٣]، فهذه الأدلة تدل على أن من هؤلاء مَن بلغه ما تقوم عليه به الحجة، وأنه غير معذور، لكن من لم يبلغه شيء فيقال لهم: أهل الفترة، في أي زمان كانوا، وفي أي مكان، وهؤلاء العلماء تكلموا فيهم، وفي مآلهم، ولا ينبغي العدول عن هذا الحديث الذي أقل أحواله أنه حسن، حديث الأسود بن سريع -رضي الله تعالى عنه-، هذا في هؤلاء الثلاثة: الأصم الذي لا يسمع شيئاً، والهرم، والأحمق، يعني المجنون، قال: ((وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب...)) إلى آخره، يمتحنون في الآخرة، ولا يرِد على هذا قول من قال: إن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل، فيقال: الحديث دل على هذا، وإذا دل عليه النقل فلا مجال لقول قائل، فالأصل أن الآخرة دار جزاء، ولكن يوجد فيها الأمر بالسجود {وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ}[سورة القلم:٤٢]، وكذلك هؤلاء يمتحنون، ويبقى الكلام على الأطفال، أطفال المسلمين وأطفال المشركين، من مات وهو صغير، فهذه المسألة فيها كلام كثير لأهل العلم.

وبالإسناد عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- مثله، غير أنه قال في آخره: ((فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها))[٤]، وكذا رواه إسحاق بن راهويه عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد وقال: هذا إسناد صحيح، ورواه ابن جرير من حديث معمر عن همام عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- فذكره مرفوعاً، ثم قال أبو هريرة: فاقرءوا إن شئتم {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} وكذا رواه معمر عن عبد الله بن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- موقوفاً.

(الحديث الثاني): عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟))[٥]، وفي رواية قالوا: يارسول الله أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين))[٦].

---

٣ - رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي))، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي - صلى الله عليه وسلم- ربه -عز وجل- في زيارة قبر أمه، برقم (٩٧٦).

٤ - رواه أحمد في المسند (٢٣٠/٢٦)، برقم (١٦٣٠٢)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٣٤).

٥ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟، برقم (١٢٩٣)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (٢٦٥٨).

٦ - رواه البخاري، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين، برقم (٦٢٢٦)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (٢٦٥٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا الحديث كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- توقف في هؤلاء، ومن أهل العلم من فهم غير هذا من هذا الحديث: ((الله أعلم بما كانوا عاملين))، والحديث هنا لم يُبن عن مصيرهم، والأحاديث في هذا ثلاثة أنواع، منها ما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه أنهم يلحقون بآبائهم، ومنها ما ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم في الجنة، أو ما في هذا المعنى، ومنها ما يدل على التوقف، وتبقى بعض الأحاديث العامة ((كل مولود يولد على الفطرة))؛ ولهذا فإن أهل العلم اختلفوا في الأطفال كثيراً، أما أطفال المسلمين فالإجماع أنهم في الجنة، ولكن الكلام في أطفال المشركين إلى أين يصيرون؟.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما أعلم، شكَّ موسى - قال: ((ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم إبراهيم -عليه السلام-))[٧].

قوله: شكَّ موسى: يعني موسى بن داود وهو الذي يرويه عنه الإمام أحمد.

هذا خاص بذراري المسلمين، وهذا مجمع عليه وليس محل الإشكال.

وفي صحيح مسلم عن عياض -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الله -عز وجل- أنه قال: ((إني خلقت عبادي حنفاء))[٨]**، وفي رواية لغيره: ((مسلمين))**[٩].

من أهل العلم من يحتج بهذه العمومات، ((خلقت عبادي حنفاء))، ((كل مولود يولد على الفطرة))، أن الصغار سواء كانوا من المسلمين أو من الكفار يولدون على الفطرة، فإذا ماتوا فهم على الإسلام.

(الحديث الثالث): عن سمرة -رضي الله تعالى عنه-: رواه الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه المستخرج على البخاري من حديث عوف الأعرابي، عن أبي رجاء العطاردي عن سمرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كل مولود يولد على الفطرة))، فناداه الناس: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: ((وأولاد المشركين))[١٠]**. وروى الطبراني عن سمرة قال: سألْنا رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- عن أطفال المشركين، فقال: ((هم خدم أهل الجنة))**[١١].

(الحديث الرابع): عن عم حسناء: روى أحمد عن حسناء بنت معاوية، من بني صريم قالت: حدثني عمي قال: قلت: يا رسول الله من في الجنة ؟ قال: ((النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة،

---

٧ - رواه أحمد في المسند (٧١/١٤)، برقم (٨٣٢٤)، وقال محققوه: إسناده حسن، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٦٠٣).

٨ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم (٢٨٦٥)، وهو حديث طويل.

٩ - رواه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٧/١٠)، برقم (٣٨٧٨).

١٠ - هذا الحديث جزء من حديث طويل أخرجه الإمام البخاري في صحيحه من طريق عوف حدثنا أبو رجاء حدثنا سمرة بن جندب -رضي الله عنه-، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، برقم (٦٦٤٠).

١١ - رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٦٩٩٣)، وصححه الألباني بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٦٨)، وصححه في صحيح الجامع برقم (٢٥٨٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والوئيد في الجنة))[١٢].

قوله: ((المولود في الجنة)) يعني: الذي يموت وهو صغير، وكذلك الوئيد، والوئيد هؤلاء الذين كان وأُدُهم في الجاهلية، وليسوا قطعاً من أبناء المسلمين، إن صح هذا الحديث، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**عن عم حسناء**"، وحسناء هذه تكلم فيها بعض أهل العلم، فقالوا: إنها مجهولة، وعم حسناء اسمه أسلم بن سليم، فضعف بعض أهل العلم هذا الحديث لجهالة حسناء.

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، روي ذلك عن ابن عباس والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن الحنفية -رضي الله تعالى عنهم- وغيرهم، وأخرج ابن حبان في صحيحه عن جرير بن حازم: سمعت أبا رجاء العطاردي، سمعت ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وهو على المنبر يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يزال أمر هذه الأمة مواتياً أو مقارباً ما لم يتكلموا في الولدان والقدر))[١٣]**، قال ابن حبان: يعني أطفال المشركين، وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم به، ثم قال: وقد رواه جماعة عن أبي رجاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- موقوفاً.**

بما أن الحافظ -رحمه الله- أورد بعض الأدلة في هذه المسألة يمكن أن أُورد بعض الأحاديث الصحيحة فيها، وشيئاً من كلام بعض أهل العلم المحققين في هذا الباب، هذه جملة من الأحاديث في هذا الموضوع:

حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: ((صغارهم دعاميص أهل الجنة))، والدعاميص: يعني دويبة صغيرة تميل إلى السواد في الماء تتحرك سريعة، ((صغارهم دعاميص أهل الجنة، يتلقى أحدهم أباه))، أو قال: ((أبويه، فيأخذ بثوبه))، أو قال: ((بيده كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا))، صنفة ثوبك: يعني طرفه، ((فلا يتناهى))، أو قال: ((فلا ينتهي حتى يدخله الله وأباه الجنة))[١٤]، هذا في المسلم.

وفي الحديث الآخر: النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لرجل مات ابنه صغيراً: ((ما يسرك أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته عنده يسعى يفتح لك))[١٥]، هذا في أطفال المسلمين.

ولما توفي إبراهيم بن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن له مرضعاً في الجنة))[١٦].

---

١٢ - رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة، برقم (٢٥٢١)، وأحمد في المسند (١٩٠/٣٤)، برقم (٢٠٥٨٣)، وقال محققوه: إسناده ضعيف لجهالة حسناء، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٢٧٦).

١٣ - رواه ابن حبان في صحيحه برقم (٦٧٢٤)، وقال محققه الأرنؤوط: إسناده صحيح، والحاكم في المستدرك برقم (٩٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا نعلم له علة ولم يخرجاه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٥١٥).

١٤ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه، برقم (٢٦٣٥).

١٥ - رواه الإمام النسائي، كتاب الجنائز، باب الأمر بالاحتساب والصبر عند نزول المصيبة، برقم (١٨٧٠)، من حديث قرة -رضي الله عنه-، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح برقم (١٧٥٦)، وفي أحكام الجنائز (١٦٢).

١٦ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المسلمين، برقم (١٣١٦)، عن البراء بن عازب -رضي الله عنه-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأيضاً: الحديث الطويل في الرؤيا التي رآها النبي -صلى الله عليه وسلم- وفيه: ((فأتينا على روضة معتمة فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل مِن أكثرِ ولْدان رأيتهم قط))، ثم بعد ذلك لما سأل عنهم النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في الجواب: ((وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وأما الولْدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة))[١٧]، وهذا ظاهره لا يختص بالمسلمين، مع أنه يوجد من الأحاديث مثلاً حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: توفي صبي فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أولا تدرين أن الله خلق الجنة، وخلق النار، فخلق لهذه أهلاً، ولهذه أهلاً))[١٨]، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقرها على هذا.

يقول النووي -رحمه الله-: "أجمع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو في الجنة؛ لأنه ليس مكلفاً، وتوقف فيه بعض من لا يعتد به، -لحديث عائشة الذي ذكرته آنفاً- قال: وأجاب العلماء بأنه لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع، كما أنكر على سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- في قوله: "أعطه إني لأراه مؤمناً"[١٩]،... إلى أن قال: ويحتمل أنه -صلى الله عليه وسلم- قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة، فلما علم قال ذلك بقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم))[٢٠]"[٢١].

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: ((ما من مسلم)): " ...أن من يكون سبباً في حجب النار عن أبويه، أولى بأن يحجب هو؛ لأنه أصل الرحمة وسببها"[٢٢]، وقال في حديث إبراهيم بن النبي -صلى الله عليه وسلم- وأن له مرضعاً في الجنة: "وإيراد البخاري له في هذا الباب يشعر باختيار القول الصائر إلى أنهم في الجنة، فكأنه توقف فيه، ثم جزم به"[٢٣].

فظواهر الأحاديث كلها تدل على أن أطفال المسلمين في الجنة، وجاء عن الإمام أحمد -رحمه الله- أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم في الجنة.

---

١٧ - رواه البخاري، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، برقم (٦٦٤٠).

١٨ - رواه مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (٢٦٦٢).

١٩ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، برقم (٢٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إعطاء من يخاف على إيمانه، برقم (١٥٠).

٢٠ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المسلمين، برقم (١٣١٥).

٢١ - شرح النووي على مسلم (٢٠٧/١٦).

٢٢ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر (٢٤٤/٣).

٢٣ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر (٢٤٤/٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً بلفظ: ((ذراري المسلمين في الجنة، يكفلهم إبراهيم -عليه السلام-))[٢٤]، وأيضاً: ((أطفال المسلمين في جبل في الجنة، يكفلهم إبراهيم وسارة، حتى يدفعوهم إلى آبائهم يوم القيامة))[٢٥].

هذا بالنسبة لأطفال المسلمين، أما ما يتعلق بأطفال المشركين: فجاء في حديث الرؤيا السابق: ((وأما الوِلْدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة))، فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((وأولاد المشركين)).

وفي الحديث الآخر: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه)) قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين)).

وفي حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن أولاد المشركين فقال: ((الله إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين))[٢٦].

وسئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذراري المشركين فقال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين))[٢٧]، هذا كله في البخاري.

وعن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قلت: يا رسول الله ذراري المؤمنين؟ فقال: ((هم من آبائهم))، فقلت: يا رسول الله بلا عمل؟ قال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين))، قلت: يا رسول الله فذراري المشركين؟ قال: ((من آبائهم)) قلت: بلا عمل؟ قال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين))[٢٨]، وقوله: ((الله أعلم بما كانوا عاملين)) في الأحاديث السابقة قد تفسره هذه، أي المقصود أنهم مع آبائهم.

يقول الخطابي -رحمه الله-: "معنى الحديث أنهم كفار ملحقون في الكفر بآبائهم؛ لأن الله سبحانه قد علم أنهم لو بقوا أحياء حتى يكبروا لكانوا يعملون عمل الكفار"[٢٩].

وقال ابن القيم ما خلاصته: "وأما أطفال المشركين فللناس فيهم ثمانية مذاهب، وذكر الأول قال: الوقف فيهم، وترك الشهادة بأنهم في الجنة أو في النار، بل يوكل علمهم إلى الله تعالى، ويقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، واحتجوا بالحديث، إلى غير ذلك، واحتجوا ببعض الأحاديث التي لا تصح أيضاً، وذكر المذهب الثالث: أنهم في الجنة، قال: واحتج هؤلاء بما رواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة، قال: ((كل مولود يولد على الفطرة)) فقال الناس: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: ((وأولاد المشركين))، واستدلوا أيضاً بما أخرجه الإمام أحمد من حديث خنساء بنت معاوية قالت: حدثتني عمتي قالت: يا رسول الله من في الجنة؟ قال:

---

٢٤ - رواه أحمد في المسند برقم (٨٣٠٧)، وقال محققوه: إسناده حسن، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٦٠٣).

٢٥ - صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٦٧).

٢٦ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، برقم (١٣١٧).

٢٧ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، برقم (١٣١٨).

٢٨ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في ذراري المشركين، برقم (٤٧١٢)، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح برقم (١١١).

٢٩ - عون المعبود، (٣١٦/١٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

((النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والموءودة في الجنة))، وهذا الذي أورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ، عن حسناء بنت معاوية، وعند أحمد خنساء بالخاء، وهذا الحديث حسّن إسنادَه الحافظُ ابن حجر، من أجل هذه المرأة.

وأيضاً مما جاء في هذا ما أخرجه الإمام أحمد -رحمه الله- من حديث الأسود بن سريع قال: أتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وغزوت معه فأصبت ظفرًا، فقتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان - وقال مرة: الذرية - فبلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية؟))، فقال رجل: يا رسول الله إنما هم أولاد المشركين، فقال: ((ألا إن خياركم أبناء المشركين))، ثم قال: ((ألا لا تقتلوا ذرية، ألا لا تقتلوا ذرية))، ثم قال: ((كل نسمة تولد على الفطرة، حتى يعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها))[٣٠].

وذكر ابن حزم عن جمهور أهل العلم أنهم في الجنة، وكذلك أيضاً ذهب إلى هذا جماعة كالنووي، ومن المذاهب التي أوردها الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، أنهم يمتحنون في عرصات القيامة، ويرسل إليهم هناك رسول وإلى كل من لم تبلغه الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، وعلى هذا يكون بعضهم في الجنة وبعضهم في النار، وهذا قال به البيهقي واختاره ابن كثير.

يقول النووي: "وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاثة مذاهب، قال الأكثرون: هم في النار تبعاً لآبائهم، وتوقفت طائفة فيهم، والثالث وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون أنهم من أهل الجنة"[٣١]، وعلق الحافظ ابن حجر -رحمه الله- على قول البخاري: "باب ما قيل في أولاد المشركين"، قال: "هذه الترجمة تشعر أيضاً أنه كان متوقفاً في ذلك، وقد جزم بعد هذا في تفسير سورة الروم بما يدل على القول الصائر إلى أنهم في الجنة، والله تعالى أعلم"[٣٢].

فهذا الصغير الذي لم يعرب عنه لسانه، الذي قبل البلوغ مات وهو يعبد غير الله -عز وجل-، يشرك به، مثل هذا لا يقال: إنه على الفطرة، ((فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)) وإنما الكلام فيمن مات وهو صغير، وليس المقصود بإطلاق من مات دون البلوغ، فالولد إذا كان عمره ثلاثة عشر مثلاً ويعبد غير الله - عز وجل-، يعبد الصليب، مثل هذا أعرب عنه لسانه؛ ولهذا الصبي غير المميز يلحق بأبيه، أو يلحق بأفضل الأبوين يعني من ناحية الدين، والعلماء اختلفوا في هذا، والأقرب -والله أعلم- أنه يلحق بالأصلح من أبويه من ناحية الديانة، فإن كانت الأم مسلمة والأبُ كافرٌ ألحق بالأم، والعكس كذلك، بالنسبة لهؤلاء هم الذين يكونون دون التمييز، وإلا فإسلام الصبي المميز معتبر، ولا يحتاج إلى تجديده بعد البلوغ، ويدل على هذا أن من الصبيان من أسلم وهو صغير في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- كعلي -رضي الله تعالى عنه- وإن

---

٣٠ - رواه الإمام أحمد في المسند (٣٥٧/٢٤)، برقم (١٥٥٨٩)، وقال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين لكن سماع الحسن من الأسود بن سريع لا يثبت عند بعضهم، والبيهقي في الكبرى برقم (١٧٨٦٨)، والطبراني في المعجم الكبير برقم (٨٢٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٠٢)، وصحيح الجامع برقم (١٠٥٠٨).

٣١ - شرح النووي على مسلم (٢٠٧/١٦).

٣٢ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر (٢٤٦/٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اختلفوا في الوقت الذي أسلم فيه، لكن لا شك أنه أسلم دون البلوغ، وكذلك ابن عباس، وجماعة، فالصبي إذا ميّز وأسلم اعتُبر إسلامه، فإذا وقع منه الكفر، كفر بالله -عز وجل- وصار يعبد غيره فهو بحسب حاله، والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً} [سورة الإسراء: ١٦].

اختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناه أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً، كقوله تعالى: {أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً}[سورة يونس:٢٤] فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش، فاستحقوا العذاب، وقيل: معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة، رواه ابن جريج عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وقاله سعيد بن جبير أيضاً.

قال علي بن طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قوله: {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا}، يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب، وهو قوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا}[سورة الأنعام:١٢٣] الآية، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا} يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة والحسن والضحاك وقتادة، وعن مالك عن الزهري {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} أكثرنا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا}، {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} ذكر عدة أقوال: القول الأول: بمعنى أنه أمر قدري، أي الأمر الكوني، ومعلوم أنه لا يمكن أن يقال بأن الأمر هنا الأمر الشرعي إلا إذا حمل على الأمر بالطاعة، ومعلوم أن الأمر نوعان: أمر كوني قدري، وأمر ديني شرعي، فالأمر الكوني: بمعنى أن الله -عز وجل- يقضي بالأمر ويقدره فيكون، {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [سورة النحل:٤٠]، فهذا أمر قدري، فـ{أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} أي: أمرناهم أمراً كونياً قدرياً بالمعصية والكفر والفجور {فَفَسَقُواْ}، وهذا الأمر كما هو معلوم لا يقتضي المحبة، ولا ملازمة بينه وبين الرضا؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} [سورة الزمر:٧]، لا يرضاه لهم ديناً، وهذا القول بأنه الأمر الكوني قال به طائفة من أهل العلم من السلف فمن بعدهم، واختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، باعتبار لفظ الأمر، وأنه لا يتأتى في الأمر الشرعي، ومثل هذا القول لا محظور فيه، يعني من جهة المعنى وهو جارٍ على الاعتقاد الصحيح، أمرناهم أمراً كونياً.

ثم ذكر القول الآخر: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة، والأمر في قوله: {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا} فيه مقدر محذوف، أمرنا مترفيها بالطاعة {فَفَسَقُواْ فِيهَا}، أما على القول الأول {أَمَرْنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُتْرَفِيهَا} فهو أقرب إلى الظاهر، أمرهم ففسقوا، فتكون الفاء مرتبة لما بعدها على ما قبلها، أمرناهم ففسقوا، تكون كالنتيجة لهذا الأمر، القول الآخر: أمرناهم بالطاعة فعصوا، ويكون الأمر هو الأمر الديني الشرعي، وهذا القول أيضاً ليس بمستبعد، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وممن اختاره من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع-.

يقول: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- من طريق علي بن طلحة {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا} يقول: "**سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله**"، وساق قوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا}[سورة الأنعام:١٢٣]، وهذا يمكن أن يكون جارياً على القراءة المروية عن بعض السلف كأبي عثمان النهدي وأبي رجاء وأبي العالية والربيع ومجاهد والحسن {أمَّرنا مترفيها} يعني: جعلناهم متأمرين أمراء، هذا معنى سلطناهم، ففسقوا فوقع العذاب، وهو معنىً رابع عن ابن عباس من طريق العوفي ولا يصح هذا الطريق، يقول: "**أكثرنا عددهم**"، ونقله عن جماعة، {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} أي: أكثرنا، تقول: أمر القوم إذا كثروا، وجاء في قراءة مروية عن بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم-، بعض الصحابة: علي وابن عباس والحسن {آمرنا مترفيها} بالمد، يعني أكثرها، {فَفَسَقُواْ فِيهَا}، بالنسبة للقراءة المتواترة {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} إما أن يحمل ذلك على الأمر الكوني، وإما أن يحمل على الأمر الشرعي، أمرناهم بالطاعة ففسقوا، ولا يبعد أن يحمل على المعنيين، أي أمرناهم أمراً كونياً فوقع منهم الكفر، وأمرناهم أمراً شرعياً فعصوا وكفروا، وبين الأمرين ملازمة بالنسبة لهذا الإنسان الكافر، إذا قلنا بأن الأمر هنا الأمر الكوني، أن الله قضى كفره، ثم إذا قيل: أيضاً الأمر الشرعي أمره بالطاعة فوقع منه الكفر، هذا الكفر الذي وقع منه إنما وقع بقضاء الله وقدره، لكن الإرادة الشرعية، تخلفت في هذا الكافر؛ لأن الله -عز وجل- لم يرد منه الكفر شرعاً، ومعلوم أن الإرادتين الكونية والشرعية تجتمعان في المؤمن، وتوجد الإرادة الكونية في الكافر، لكن إذا فسرت الآية هنا أمرناهم بالطاعة فكفروا، فكفرهم هذا إنما كان بقدر الله -عز وجل-، فلا يقع في الكون شيء إلا بإرادة الله الكونية، -والله تعالى أعلم-، ووجه تخصيص المترفين يمكن أن يقال: {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا} باعتبار أن الناس تبعٌ لهم، ولهذا قيل: عادات الملوك ملوك العادات، تنتشر العادات بين الناس عن طريق الكبراء أولاً، فيقتدي بهم بقية الناس، فقد يكون من هذا الباب أنه خص المترفين {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا} فوقع الفجور من البقية والكفر بالله -عز وجل-.

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[سورة الإسراء:١٧].

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم-، بأنه قد أهلك من المكذبين للرسل من بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذّبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى، وقوله: {وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً} أي: هو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها لا يخفى عليه منها خافية -سبحانه وتعالى-.

قوله: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ} يدل على التكثير، كما قال الله -عز وجل-: {وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا}[سورة الفرقان:٣٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{مّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نّرِيدُ ثُمّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مّدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مّشْكُوراً}[سورة الإسراء:١٨-١٩].

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: {عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نّرِيدُ ثُمّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنّمَ} أي: في الدار الآخرة {يَصْلاهَا} أي: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه، {مَذْمُوماً} أي: في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي، {مّدْحُوراً}: مبعداً مقصياً ذليلاً مهاناً. وقوله: {وَمَنْ أَرَادَ الآخرة} أي: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور، {وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا} أي: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، {وَهُوَ مُؤْمِنٌ} أي: قلبه مؤمن، أي مصدق بالثواب والجزاء {فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مّشْكُوراً}.

قوله -تبارك وتعالى-: {مّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نّرِيدُ}، هذه الآية يقول الحافظ -رحمه الله-: ".. **أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له**"؛ لأن هذه الآية قيدها الله بقيدين، قيدها بالمشيئة فيما يتصل بالعطاء، وقيدها أيضاً بمن أراد إعطاءه {لِمَن نّرِيدُ}، يعني هي مقيدة في العطاء، ومقيدة في المعطَى، {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ}، وهذه الآية مقيدة للآيات الأخرى كآية هود، فالله -عز وجل- يقول فيها: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[سورة هود:١٥-١٦]، وقوله: {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ}[سورة الشورى:٢٠]، وفي قوله: {وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا} [سورة آل عمران:١٤٥]، فهي غير مقيدة، والمعلوم أن المطلق يحمل على المقيد، فالآيات الثلاث تقيدها هذه الآية، ما كل من أراد الدنيا أعطي حسب إرادته، وإنما يكون العطاء مقيداً بما شاءه الله -عز وجل-، وهكذا هؤلاء المعطَوْن: يعطي الله -عز وجل- من يشاء ويمنع من يشاء، فهذه الآية فيها سؤال معروف عند أهل العلم وهو أن الله -عز وجل- قال: {ثُمّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مّدْحُوراً}، وفي آية هود: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}، فهذا لا يكون إلا للكفار، وفي قوله: {وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ}، ففي هذه الآيات الثلاث وعد بالنار أو أخبر الله أنه لا حظ له في الآخرة، فالحاصل أن السؤال الذي يرد في هذا هو هل كل من كانت له إرادة للدنيا فإنه متوعد بالنار، أو الخلود بالنار مع أن الإنسان لا يخلو من إرادة للدنيا؟ والله قال عن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في واقعة معينة: {مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ} [سورة آل عمران:١٥٢] فالشاهد أن مثل هذا يستشكل من هذه الحيثية؛ ولهذا العلماء تكلموا على المراد في هذه الآيات، فبعض أهل العلم قال: هذه الآية في أهل الرياء، هذا قال به بعض الصحابة كمعاوية -رضي الله تعالى عنه-، وأبي هريرة راوي حديث: "أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة..."، وقال بعده: صدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقرأ آية هود: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ}، فحملها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على أهل الرياء، وحينما تحمل الآية على أهل الرياء، يحتاج فيه إلى قيد، فإما أن يقال بأن ذلك فيمن كان مرائياً في أصل الإيمان، من أجل أن يكون متوعداً بالخلود بالنار، وإما أن يقال بأن جميع الأعمال التي يعملها إنما هي على سبيل الرياء، لكن من وقع له رياء في بعض الأعمال وأصل الإيمان صحيح فمثل هذا لا يكون خالداً في النار، ومن أهل العلم من حملها على أنها في الكفار، مع أن ظاهر الآية العموم **{مَن كَانَ يُرِيدُ}**؛ ولهذا يمكن أن يوجه هذا القول ويجمع بينه وبين قول آخر لعله الأوضح من هذه الأقوال، وهو أن يقال: من كانت الدنيا همه وغايته التي يسعى ويعمل من أجلها، وهي طلبته التي يقوم لها ويقعد، ليس له هم ولا مطلوب سوى الحياة الدنيا، فهذا متوعد بالنار، حتى الأعمال الصالحة التي قد يعملها، يعملها من أجل أمر دنيوي، فهو يزكي ماله من أجل أن ينمو ماله، ويصل الرحم من أجل أن ينسأ له في أثره مثلاً، ويصوم ليصح، ويحج للتجارة، ويجاهد للغنيمة، وهكذا، كل أعماله يبحث عن الفائدة من هذا العاجلة، فإذا رأى شيئاً عاجلاً فعله، فمن كانت الدنيا هي غايته التي يقوم من أجلها ويقعد فهو متوعد بالنار، وأهل الرياء يدخلون في هذا؛ لأنهم أشركوا بالله -عز وجل-، والذين كل أعمالهم رياء، أو دخل الرياء في أصل الإيمان، هم أيضاً كذلك؛ لأنهم أرادوا أمراً دنيوياً، أرادوا الحظوة في قلوب الناس، والثناء، وما أشبه هذا، وهذا جواب عن هذا الإشكال، فمن قال بأنها في الكفار، فمن كان بهذه المثابة في الوصفين اللذين ذكرت فهذا أصلاً إنما يكون للكفار، إما الكفار في الباطن كالمنافقين أو الكفار في الظاهر، والله المستعان، وإذا تأملت في الآية وجدت ما يدل على هذا فيها، فالتعبير بالكون الماضي مثلاً يدل على الثبوت، **{مَن كَانَ}**، ثم ذكر فعل الإرادة بالمضارع **{يُرِيدُ}** يدل على التجدد، أن هذا ديدنه في كل عمل يتجدد له، **{يُرِيدُ}** هذه الإرادة متجددة له، **{يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ}**، ثم مما يدل على أنه لا يريد إلا الدنيا أنه قابله بإرادة الآخرة، وهذه المقابلة تشعر بالحصر، بمعنى أنه ليس مجرد وجود الإرادة في قلبه للدنيا يعني أنه متوعد بهذه العقوبة، فهذا لا يخلو منه أحد، وإنما المقصود أنه ليس له مطلوب إلا الدنيا، فقابله: **{وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ}**، فهذه قرائن في الآية تدل على هذا المعنى -والله أعلم-.

وهي الدنيا، وقيل لها: عاجلة لسرعة تقضِّيها، سواء تقضِّي ما فيها من اللذات والشهوات، أو تقضِّي تصرم الأوقات، فهي كأحلام النائم والظل الزائل، سريعة الانقضاء، والمراد بالتعجل في قوله: **{مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء}** المقصود في الدنيا؛ ولهذا قال: **{عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا}** فهو تعجيل عرفي، ليس المقصود أنه بمجرد ما تطلب نفسه هذا أنه يحصل له، قد يحصل له وقد لا يحصل، فإن حصل لا يعني أنه يحصل مباشرة، و"ثم" هذه تدل على الترتيب الرتبي، **{ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً}**.

المعنى الذي ذكره الحافظ -رحمه الله- في قوله: "**{وَهُوَ مُؤْمِنٌ}** أي: **قلبه مؤمن، أي مصدق بالثواب والجزاء {فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً}**"، واضح، ففسر الإيمان بمجرد التصديق؛ لأنه ذكر العمل بعدها فقال: **{وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ}**، العلماء أحياناً يتوسعون في العبارة، فيفسرونه بما يقرب منه وإلا فإن أقرب ما يفسر به في اللغة بمعنى الإقرار والتصديق الانقيادي، فيكون التصديق مقيداً، وليس مطلق التصديق، تصديق انقيادي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{كُلًّا نّمدّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبّكَ مَحْظُوراً * انظُرْ كَيْفَ فَضّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىَ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً} [سورة الإسراء: ٢٠-٢١].

يقول تعالى: {كُلًّا}: أي كل واحد من الفريقين: الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما فيه[١] {مِنْ عَطَاءِ رَبّكَ} أي: هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلًّا ما يستحقه من السعادة والشقاوة، فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى ولا مغير لما أراد؛ ولهذا قال: {وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبّكَ مَحْظُوراً} أي: لا يمنعه أحد، ولا يرده راد، قال قتادة: {وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبّكَ مَحْظُوراً} أي: منقوصاً، وقال الحسن وغيره: أي ممنوعاً، ثم قال تعالى: {انظُرْ كَيْفَ فَضّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىَ بَعْضٍ} أي: في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً وبين ذلك، {وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً} أي: ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون في ما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وفي الصحيحين: ((إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء))[٢]؛ ولهذا قال تعالى: {وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً}.

{لاّ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مّخْذُولاً}، يقول تعالى -والمراد المكلفون من الأمة-: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً، {فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً} أي: على إشراكك به، {مّخْذُولاً}؛ لأن الرب تعالى لا ينصرك بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تُسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما أجل عاجل وإما غنى عاجل))[٣]. رواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

قوله تبارك وتعالى: {فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً} قال: "أي على إشراكك به، {مّخْذُولاً}؛ لأن الرب تعالى لا ينصرك"، {فَتَقْعُدَ} هذه اللفظة تدل على معنىً أصلي ومعنىً فرعي، يمكن أن يقال: {فَتَقْعُدَ} يعني تصير إلى حال وهي

---

١ - وفي بعض النسخ من الأصل (تفسير ابن كثير): " نمدهم فيما هم فيه"، (٦٣/٥) طبعة دار طيبة، تحقيق: سامي بن محمد سلامة.

٢ - لم أجده في الصحيحين بهذا اللفظ وإنما رواه أحمد في المسند (٣٠٢/١٧)، برقم (١١٢٠٦)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، وإنما الموجود في الصحيحين حديث عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق، أو المغرب لتفاضل ما بينهم))، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: ((بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين))، رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٨٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء، برقم (٢٨٣١).

٣ - رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف، برقم (١٦٤٥)، وأحمد في المسند (٤١٥/٦)، برقم (٣٨٦٩)، وقال محققوه: إسناده حسن، والترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الهم في الدنيا وحبها، برقم (٢٣٢٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٧٨٧)، وفي صحيح الجامع برقم (١٠٩٨٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما ذكر، وهي تدل على أن هذا الإنسان بفعله هذا بالإشراك بالله -عز وجل- يتورط ولا يستطيع النهوض والخلاص من هذه البلية التي وقع فيها؛ ولهذا قال: {مَذْمُوماً مَّخْذُولاً}، ليس له ناصر؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ}[سورة البقرة:١٢٣]، نفى عنهم كل ما يتخلصون به من فدية ونصر، أو وساطة وشفاعة، وهذا هو الخذلان، لا يجد من يخلصه أو ما يخلصه.

{وَقَضَىَ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً} [سورة الإسراء:٢٣-٢٤].

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر، قال مجاهد: {وَقَضَىَ} يعني: وصّى، وكذا قرأ أبي بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم: {ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه}؛ ولهذا قرن بعبادته برّ الوالدين، فقال: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} أي: وأمر بالوالدين إحساناً، كقوله في الآية الأخرى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}[سورة لقمان:١٤].

قوله: {وَقَضَىَ} أي: أمر بعبادته، هذا أحد المعاني التي تأتي لها قضى؛ لأنها تأتي بمعنى أمر وتأتي بمعنى حكم، الله يقضي بالحق، وتأتي بمعنى وصى، وتأتي بمعنى الفراغ من الشيء، {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ} [سورة البقرة:٢٠٠] وقال: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ} [سورة الجمعة:١٠] يعني فرغ منها، وتأتي بمعانٍ أخرى، وتفسيره لها بمعنى أمر، {وَقَضَىَ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ} يرد عليه إشكال وهو أن هذه الأشياء التي ذكرها الله -عز وجل- في هذه الآيات فيها أمور منهية، {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [سورة الإسراء:٣١]، {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى} [سورة الإسراء:٣٢]، {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[سورة الإسراء:٣٤]، وما شابه ذلك، فهذه منهيات، فإذا فسرت {قَضَىَ} بمعنى أمر يرد عليها هذا الإشكال؛ ولهذا أحسن ما تفسر به -والله أعلم- وهو الذي تدل عليه القراءة الأخرى غير المتواترة {ووصى}، والقراءة الآحادية تفسر القراءة المتواترة، فيكون {قَضَىَ} بمعنى وصى، {وَقَضَىَ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ} بمعنى وصى أن لا تبعدوا إلا إياه، وصى بعبادته، والوصية بمعنى الأمر والنهي، تجمع بينهما، فإذا جاءت النواهي بعدها فهذا داخل فيها، فهي أمر ونهي يقصد توثيقه وتأكيده، وتقريره، فتقول: أوصيك بكذا وأوصيك بكذا.

وقوله: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ} أي: ولا تُسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ، {وَلاَ تَنْهَرْهُمَا} أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: {وَلاَ تَنْهَرْهُمَا} أي: لا تنفض يدك عليهما.

أصل النهر، الإغلاظ في القول، ونفض اليد يلحق به من جهة الفعل، أما "نهره" فمعناه أغلظ له في القول، يعني قال له قولاً فيه غلظة وشدة، وقوله: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ}، لا يختص بحالة الكبر، لكن ذكرت حالة الكبر؛ لأن الحاجة فيها أشد إلى الرعاية واللطف؛ لأسباب كثيرة.

وقوله هنا: {أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا} فهذا إنما جيء به -والله تعالى أعلم- ليدل على أن حق كل واحد منهما ثابت على سبيل الاستقلال، حق ثابت له؛ لأن الإنسان قد يثقل عليه القيام بحقهما معاً وقد يقوم بحق أحدهما براً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالآخر، يعني قد لا تكون علاقته على وئام بأحدهما فيقوم بحقه براً بالآخر، أبوه يأمره ببر أمه، وهو ليس على حالة مرضية معها، فيقوم بالبر من أجل أنه يبر أباه بهذا، فهذا لا يجوز، حتى لو حصل البر، فهذا حق ثابت لكل واحد منهما على سبيل الاستقلال، {أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا}، فهذان معنيان، والله تعالى أعلم.

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن، فقال: {وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً} **أي: ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم.**

لا يكفي أن يكون الإنسان لا يصدر منه تصرف سيئ، يكف عما لا يليق في التعامل مع الأبوين فقط، بل لابد من التعامل الحسن، والكلام الطيب، والفعل الجميل من بر بالمال، إن كانا محتاجين، أو بالتلطف بالعبارة، وحسن المعاشرة، وما أشبه ذلك، فهذا كله داخل فيه، {وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً}.

{وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} **أي: تواضع لهما بفعلك،** {وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً} **أي: في كبرهما وعند وفاتهما، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ثم أنزل الله:** {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ}[سورة التوبة:١١٣] **الآية.**

يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: ثم أنزل الله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ}الآية، وقوله تبارك وتعالى: {وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً} مقيدة بالآيات الأخرى، أي ما لم يكونا على الإشراك، لكن لو أن أحداً دعا لوالديه في حال الحياة بالرحمة، قال: رب ارحمهما كما ربياني صغيراً، وقصد بالرحمة أن الله يلطف بهما فيحصل من ذلك الدخول في الإسلام، هذا من رحمة الله بالعبد، فهذا لا محظور فيه، فقال هنا: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ}، قال الحافظ -رحمه الله-: "**تواضع لهما بفعلك**"، التواضع لين الجانب، والجناح مضاف إلى الذل، وهذا من إضافة الموصوف إلى صفته، فيكون المعنى {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ} يعني: جناحك الذليل، يعني: تواضع، الجناح يطلق على الجانب، ويطلق على يد الإنسان جناح، فإذا أراد الإنسان أن يبطش رفع يده، ويمكن أن يتصوره الإنسان بتصور الطائر حينما يرفرف بجناحيه على صغاره، {مِنَ الرَّحْمَةِ} وهذا قيد يبيّن أن صدور هذا الفعل وهو التواضع ليس لمصلحة دنيوية ولا لخوف ولا رياء، وإنما يكون ناتجاً من الرحمة بهما، ولا يفعل ذلك خوفاً، ويدل على تأكده وتأصله وتجذره ما بعده من قوله: {وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا} فهو يدعو لهما، لكن من يفعل هذا رياءً أو يفعل ذلك خوفاً أو رجاء مصلحة دنيوية، لن يتحرك في قلبه مثل هذا الدعاء فيدعو لهما في الصلاة وغيرها.

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها الحديث المروي من طرق عن أنس -رضي الله تعالى عنه- وغيره أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما صعد المنبر ثم قال: ((آمين آمين آمين)) **قيل: يا رسول الله علام أمنت؟ قال:** ((أتاني جبريل فقال: يا محمد رغم أنف رجل ذكرتَ عنده فلم يصل عليك، قل: آمين، فقلت: آمين، ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له، قل: آمين، فقلت: آمين، ثم قال: رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين، فقلت: آمين))[٤].

---

٤ - رواه البخاري في الأدب المفرد، باب من ذُكر عنده النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم يصلِّ عليه، برقم (٦٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١٤٧١)، وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد: صحيح لغيره برقم (٥٠١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((رغم أنف، ثم رغم أنف ثم رغم أنف رجل أدرك أحد أبويه أو كليهما عند الكبر ولم يدخل الجنة))[٥]، صحيح من هذا الوجه ولم يخرجوه، سوى مسلم.

روى الإمام أحمد عن معاوية بن جاهمة السلمي: أن جاهمة -رضي الله تعالى عنه- جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله أردت الغزو وجئتك أستشيرك، فقال: ((فهل لك من أم؟)) قال: نعم، قال: ((فالزمها فإن الجنة عند رجليها))[٦]، ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى كمثل هذا القول، ورواه النسائي[٧] وابن ماجه[٨].

روى الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب))[٩]، وأخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عياش -رضي الله تعالى عنه- به.

روى أحمد عن رجل من بني يربوع قال: أتيت النبي -صلى الله عليه وسلم- فسمعته وهو يكلم الناس يقول: ((يد المعطي العليا، أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك))[١٠].

{رَبّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنّهُ كَانَ لِلأوّابِينَ غَفُوراً} [سورة الإسراء:٢٥].

قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به، وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك، فقال: {رَبّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ}، وقوله: {فَإِنّهُ كَانَ لِلأوّابِينَ

---

٥ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة، برقم (٢٥٥١)، وأحمد في المسند (٢٣١/١٤)، برقم (٨٥٥٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

٦ - رواه أحمد في المسند برقم (١٥٥٣٨)، وقال محققوه: إسناده حسن، وقال الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح: إسناده جيد، برقم (٤٩٣٩).

٧ - رواه النسائي، كتاب الجهاد، باب الرخصة في التخلف لمن له والدة، برقم (٣١٠٤).

٨ - عن معاوية بن جهامة السلمي -رضي الله عنه- قال: أتيت رسول الله فقلت: يارسول الله إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة، قال: ((ويحك، أحية أمك؟))، قلت: نعم، قال: ((ارجع فبرّها))، ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت: يا رسول الله إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة، قال: ((ويحك، أحية أمك؟))، قلت: نعم يا رسول الله، قال: ((فارجع إليها فبرها))، ثم أتيته من أمامه فقلت: يا رسول الله إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله، والدار الآخرة، قال: ((ويحك، أحية أمك؟))، قلت: نعم، يا رسول الله قال: ((ويحك، الزم رجلها، فثَمّ الجنة))، كتاب الجهاد، باب الرجل يغزو وله أبوان، برقم (٢٧٨١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٢٤١)، وحسنه في صحيح الجامع برقم (١٢٤٨).

٩ - رواه أحمد في المسند (٤٢٤/٢٨)، برقم (١٧١٨٧)، وقال محققوه: إسناده حسن، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب بر الوالدين، برقم (٣٦٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٩٢٤).

١٠ - رواه النسائي، كتاب الزكاة، باب أيتهما اليد العليا، برقم (٢٥٣٢)، وأحمد في المسند (٦٧٤/١١) برقم (٧١٠٥)، وقال محققوه: إسناده حسن، وقال الألباني: سنده جيد، في إرواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل (٣١٩/٣)، وصححه في صحيح الجامع برقم (٨٠٦٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غَفُوراً} قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة، وقال شعبة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب في قوله: {فَإِنّهُ كَانَ لِلأوّابِينَ غَفُوراً} قال: الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون، ويصيبون الذنب ثم يتوبون.

وقال عطاء بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد: هم الراجعون إلى الخير، وقال مجاهد عن عبيد بن عمير في الآية: هو الذي إذا ذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله منها، ووافقه مجاهد في ذلك.

وقال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الرجاع من المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه، وهذا الذي قاله هو الصواب؛ لأن الأواب مشتق من الأوب، وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال تعالى: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ} [سورة الغاشية:٢٥]، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا رجع من سفر قال: ((آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون))[١١].

هنا في قوله: {رَبّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ} يقول: "**قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه**"، إلى آخره، بمعنى أنه تحصل منه الإساءة دون قصد.

رامَ نفعاً فضرّ من غير قصدٍ *** ومن البرِّ ما يكون عقوقاً

وقد لا يوفق الإنسان، يريد البر فتحصل من جراء ذلك الإساءة إلى الوالدين فمثل هذا يغتفر، الله -عز وجل- يغفر له لحسن قصده، أنه ما أراد الإساءة والعقوق، وهناك معنىً آخر لا ينافي هذا المعنى، والآية بعمومها تشمل ذلك كله {رَبّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ} يعني: من صلاح القصد والنية والإخلاص في البر، ومن يفعل ذلك تصنعاً وتكلفاً أو رياءً، وما أشبه ذلك من المعاني الفاسدة، فتكون الآية مضمنة بهذا الاعتبار معنى الإخلاص أو الأمر بالإخلاص، {إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا}، "**قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة**"، فالمطيع راجع إلى طاعة الله -عز وجل-، والمتبادر أنه الذي يتوب، يصيب الذنب فيتوب، ولما كان الإنسان لابد له من ذنوب ولابد له من تقصير في الطاعات، كان لابد له من توبة مع كل تقصير وذنب، فأتى بلفظ الأوابين على صيغة المبالغة، كثرة التوبة وكثرة الرجوع. -والله أعلم-.

---

١١ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يقول إذا رجع من الغزو، برقم (٢٩٢٠)، ومسلم، كتاب الحج ، باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره، برقم (١٣٤٥)، من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا}[سورة الإسراء: (٢٦-٢٨)].

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، وفي الحديث ((أمك وأباك، ثم أدناك أدناك))[١]. وفي رواية: ((ثم الأقرب فالأقرب))[٢]، وفي الحديث: ((من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه))[٣].

وقوله: {وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا} لما أمر بالإنفاق، نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً كما قال في الآية الأخرى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا} [سورة الفرقان: (٦٧)] الآية، ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ}: أي أشباههم في ذلك. قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: التبذير الإنفاق في غير حق، وكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مُدًّا في غير حق كان مبذراً. وقال قتادة: التبذير: النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق، والفساد.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أنه قال: أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق، وكيف أصنع؟، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تخرج الزكاة من مالك إن كان، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين)) فقال: يا رسول الله أقلل لي، قال: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا} فقال: حسبي يا رسول الله، إذا أديت الزكاة

---

[١]- صحيح مسلم: (١٩٧٤/٤) كتاب البر والصلة، باب بر الوالدين وأنهما أحق به: برقم: (٢٥٤٨) بلفظ: قال رجل يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال: ((أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك ثم أدناك أدناك)).

[٢]- سنن أبي داود: (٣٣٦/٤) باب في بر الوالدين: برقم: (٥١٣٩).

[٣]- صحيح البخاري: (٢٢٣٢/٥) باب من بُسط له في الرزق بِصلة الرحم: برقم: (٥٦٤٠) ومسلم: (١٩٨٢/٤) باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها: برقم: (٢٥٥٧). وفيهما: ((وينسأ له في أثره))، وعند ابن حبان: ((وينسأ له في أجله فليتق الله وليصل رحمه)) انظر: صحيح ابن حبان (١٨١/٢) ذكر البيان بأن طيب العيش في الأمن وكثرة البركة في الرزق للواصل رحمه إنما يكون ذلك إذا قرنه بتقوى الله: برقم: (٤٣٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها، ولك أجرها، وإثمها على من بدلها)).

وقوله: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ}: أي في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته، ولهذا قال: {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}: أي جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه، ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته. وقوله: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ} الآية، أي إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم، وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة {فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا}: أي عِدْهم وعداً بسهولة ولين، إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فَسّر قولَه: {فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا} بالوعد: مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغير واحد.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: **لما ذكر تعالى بر الوالدين** ثم بعده في قوله: {وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا} قال: **لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف**. إلى آخره، هذا كله مما يقال له المناسبة بين الآيات، وجه الارتباط بين الآية وما قبلها.

{وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ} المتبادر إلى الذهن وهو الذي عليه الجمهور أن المقصود قرابة الإنسان، من يرتبطون معه بالقرابة، فإن حق الوالديْن هو الحق الذي يأتي بعد حق الله -عز وجل-؛ لأنهما سبب وجود الإنسان، وهما أصله، ثم بعد ذلك من يرتبط بهم من طريق الوالدين، من فروع الوالدين وهم الإخوة والأخوات، ومن حواشيهم الأعمام والأخوال، وما شابه ذلك، هؤلاء كلهم هم القرابة، {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ}، فالمقصود قرابتك خلافاً لمن قال: إن المقصود بالقربى قرابة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحق القريب هو الصلة سواء كانت بالمال أو بالتعهد بالزيارة أو غير ذلك مما يدخل في هذا الإطلاق، {وَالْمِسْكِينَ} معروف وهو الفقير هنا، {وَابْنَ السَّبِيلِ} أيضاً هو الذي انقطع في طريقه في السفر لفقد ماله، أو نفاد ما عنده، فهو بحاجة إلى إعانة حتى يرجع ويصل إلى أهله، أو إلى مبتغاه، فهذا ابن السبيل، والسبيل هي الطريق، ونسب إليها للملازمة، كما قيل للطائر المعروف ابن الماء؛ لملازمته للماء.

{ولا تبذر تبذيراً} يقول هنا: **عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: التبذير الإنفاق في غير حق.** وما ذكره بعده هو في نفس المعنى، فالتبذير هو الإنفاق في غير حق، هذا تفسير يشمل ما قيل فيها، فإذا قلنا بأن النفقة بالحرام قلَّ ذلك أو كثر، فهذا لا شك أنه تبذير، وهكذا أيضاً التوسع في المباح على وجه لا يصلح لمثله، فهذا يكون من التبذير، وهذا أمر نسبي يختلف من شخص لآخر، فقد يكون هذا النوع الثاني تبذيراً بالنسبة لبعض الناس، وليس بتبذير بالنسبة لبعضهم، بخلاف الأول، فالأول: يكون تبذيراً بإطلاق، ممن صدر منه، قل ذلك أو كثر، والثاني يكون تبذيراً أحياناً وليس بتبذير في بعض الأحيان، فهذا يختلف باختلاف الناس، فإذا كان الإنسان قليل ذات اليد ويشتري أشياء من الأمور الكمالية بأسعار وقيم مرتفعة فمثل هذا يعتبر من التبذير والتضييع للمال، ولو كان ينتفع بهذا الشيء، ولذلك لا يحكم على هذه الأمور بحكم واحد بالنسبة للناس، وإنما بحسب أحوالهم وتفاوتهم، فمن الناس من يقال له: إن هذا الثوب الذي اشتراه مثلاً بألف ليس من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التبذير، ويقال لآخر: هذا من التبذير، وهكذا ما يقال في المراكب واللباس والمساكن والمآكل وغير ذلك يكون تبذيراً باعتبار بعض الأشخاص وليس بتبذير لبعضهم، وقد يشتري أثاثاً بمائة ألف ولا يكون تبذيراً، وقد يشتري آخر أثاثاً بعشرة آلاف ويعتبر من التبذير، وكذلك أيضاً النوع الثالث: وهو بذل المال في شيء مباح لكن على وجه لا ينتفع فيه، مثل بذل الأموال في المآكل وغيرها مما لا يحتاج إليه، مما يزيد عن حاجته فيكون ذلك تضييعاً للمال فيتلف، فهذا كله داخل في هذا المعنى، ويبقى النوع الرابع، والعلماء مختلفون فيه، وهو الإنفاق في سبيل الله، هل فيه تبذير أو لا؟ فالله -عز وجل- لما أمر بالإنفاق أو بالصلة للوالدين والقرابات، نهى عن التبذير ثم قال: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} [سورة الإسراء: (٢٩)]، فهذا بعد الأمر بالإنفاق على القرابات، {وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}، فلو أن أحداً بسط يده كل البسط في الإنفاق في سبيل الله، هل يقال لهذا تبذير أو لا؟ من أهل العلم من يقول: نعم، وليس له ذلك، واحتجوا بهذه الآية، واحتجوا بما ورد من الأحاديث، كحديث سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- لما أراد أن يتصدق بماله ونهاه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان مما قال له: ((الثلث، والثلث كبير أو كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس))[٤]، وكذلك أيضاً ذلك الرجل الذي جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بمثل البيضة من ذهب أصابها في بعض المغازي، -فقال أحمد في بعض المعادن وهو الصواب- فقال: يا رسول الله، خذها مني صدقةً، فوالله مالي مال غيرها، فأعرض عنه، ثم جاءه عن ركنه الأيسر، فقال مثل ذلك، ثم جاءه من بين يديه، فقال مثل ذلك، ثم قال: ((هاتها)) مغضباً، فحذفه بها حذفة لو أصابه لأوجعه، أو عقره، ثم قال: ((يعمد أحدكم إلى ماله لا يملك غيره فيتصدق به، ثم يقعد يتكفف الناس))[٥] أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، فهذا استدل به من قال بأن الإنسان لا ينفق كل ما بيده، والأقرب -والله تعالى أعلم- هو أن يقال: إن ذلك أيضاً يختلف باختلاف الناس، النفقة في سبيل الله تارة يمنع الإنسان من أن يتصدق بكل ماله، وتارة يقبل ذلك منه بحسب حاله، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قبل من أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- التصدق بكل ماله، ولما سأله عما تركه لأهله قال: تركت لهم الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، وجاء عمر بنصف ماله فقبل ذلك منه، ولهذا يقال -والله أعلم- كما قال الشاطبي -رحمه الله-: إن ذلك يختلف باختلاف الناس، فمن كان في يقينه وتوكله كأبي بكر وعمر، بحيث لا يتطلع إلى ما في أيدي الناس، ولا يتعلق قلبه بهم ولا يلتفت إليهم فلا إشكال، ومن كان دون ذلك بحيث إذا أنفق ماله يبدأ قلبه يتوجه إلى الناس أن يعطوه، فمثل هذا لا يحسن به، فهذا التفصيل في مسألة التبذير، هل يكون في النفقة في سبيل الله أو لا، وما هو ضابط التبذير.

ثم بعد ذلك في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ}، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر حينما استشهد بها أولاً قال: **أي: أشباههم في ذلك**، وهنا قال: **أي في التبذير والسفه، وترك طاعة الله**

---

[٤] - صحيح البخاري: (٤٣٥/١) باب رثى النبي -صلى الله عليه وسلم- سعد بن خولة: برقم: (١٢٣٣) و(٢٠٤٧/٥) كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل: برقم: (٥٠٣٩) وصحيح مسلم: (١٢٥٠/٣) كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث: برقم: (١٦٢٨).

[٥] - سنن الدارمي: (٤٧٩/١) كتاب الزكاة، باب النهي عن الصدقة بجميع ما عند الرجل: برقم: (١٦٥٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وارتكاب معصيته، والمعنى واحد، ما ذكره أولاً وما ذكره ثانياً، يعني أنهم شابهوهم في معصية الله -عز وجل- ومخالفة أمره، ومقارفة هذا الفعل الذي هو من كفر النعمة، والأخوّة تطلق باعتبار المشاركة في أمر من الأمور، ولهذا يمكن أن تكون الأخوة في قوله: {إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} باعتبار المشابهة، تشابهٌ بينهم وبين الشياطين في المعصية، وكفر النعمة، والإضاعة وما أشبه ذلك، شابهوهم في فعلهم، ولا يبعد من هذا قول من قال بأن وجه الأخوة بينهم وبين الشياطين هو أنهم يسيرون على آثارهم، ويتبعونهم فيما يملون عليهم، وكل من تابع غيره وسار على آثاره فإنه يقال له ذلك، يقال: فلان أخو فلان، ويمكن أن تكون هذه الأخوة باعتبار الاشتراك في المآل، أنهم جميعاً في النار، فهذه أخوة، وعلى كلٍّ فالذين يشتركون في أمر ما يمكن أن يقال لهم: إن هؤلاء إخوة لهؤلاء، كأن يشتركوا في بلد واحد مثلاً فيقال لهم: إخوة بهذا الاعتبار، كما قال الله -عز وجل- وهو أحد الأوجه في تفسير الآية: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [سورة الأحزاب: (١٨)]، باعتبار أنهم في بلد واحد، أو يشتركون في نسب، فيقال لهم ذلك، وهو أحد الأقوال في تفسير الآية الآنفة، أو باعتبار الدين، وهكذا.

{كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}، الحافظ ابن كثير استأنس بهذا التعقيب في تفسير الأخوة هنا بالمشابهة أن الشياطين يكفرون نعمة الله -عز وجل-، وهذا المبذر لم يشكر هذه النعمة بل كفرها، فشابههم بهذا الاعتبار.

ثم قال: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا} يقول: **أي عِدْهم وعداً بسهولة ولين: إذا جاء رزق الله فسنصلكم.** قل لهم قولاً ميسوراً بالوعد الحسن، الرد الجميل، وهذا تعليم للمسلم بأن ينوي الخير دائماً، ولو لم يكن مقتدراً، ولو كانت قدرته لا تمكنه من فعله في الوقت الحالي، لكنه ينويه ويقصده، فيؤجر على ذلك.

{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} [سورة الإسراء: (٢٩-٣٠)].

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش، ذامًّا للبخل، ناهياً عن السرف: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ}: أي لا تكن بخيلاً مَنُوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً، كما قالت اليهود -عليهم لعائن الله-: {يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ} [سورة المائدة: (٦٤)]: **أي نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب، وقوله: {وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}: أي ولا تسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملوماً محسوراً، وهذا من باب اللف والنشر، أي: فتقعد إن بخلت ملوماً يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك، ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التي عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال: {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ}** [سورة الملك: (٣-٤)]: **أي كليل عن أن يرى عيباً، هكذا فَسّر هذه الآيةَ -بأن المراد هنا البخل والسرف- ابنُ عباس -رضي الله تعالى عنهما- والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سَبَغت -أو وفرت- على جلده حتى تُخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة منها مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع)). هذا لفظ البخاري في الزكاة[٦].

وفي الصحيحين من طريق معاوية بن أبي مُزَرِّد عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً))[٧].

وروى مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً ((ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً أنفق إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله))[٨] وفي حديث أبي كثير عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعاً ((إياكم والشحّ؛ فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا))[٩].

وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ} إخبار أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: {إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}: أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر، وقد يكون الغِنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة، عياذاً بالله من هذا وهذا.

قوله: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ}، يقول: أي لا تكن بخيلاً مَنوعاً لا تعطي أحداً شيئاً... إلخ، وهذا تفسير بالمعنى، وجعل اليد مغلولة إلى العنق أي مربوطة مشدودة إليه، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يتصرف أو يبسط يده أو ينفق، لكن ليس هذا هو المراد، أن تكون اليد كما هو معلوم، ولكن يقال لتصوير هذا المعنى في البخل والإمساك والشح، {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} يقول: **وهذا من باب اللف والنشر**، والمقصود باللف والنشر أنه يذكر أموراً ثم يذكر أحكامها بعد ذلك، وهو على نوعين، لف ونشر مرتب، ولف ونشر مشوَّش، فالمرتب مثل هذا على هذا التفسير، باعتبار أنه قال: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}، ملوماً إذا كان الإنسان

---

[٦] - صحيح البخاري: (٥٢٣/٢) كتاب الزكاة، باب مثل المتصدق والبخيل: (١٣٧٥)، ومسلم: (٧٠٨/٢) كتاب الزكاة، باب مثل المنفق والبخيل: (١٠٢١).

[٧] - صحيح البخاري: (٥٢٢/٢) كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [سورة الليل: (٥-١٠)] اللهم أعط منفق مال خلفاً: برقم: (١٣٧٤) وصحيح مسلم: (٧٠٠/٢) كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك: برقم: (١٠١٠).

[٨] - رواه مسلم (٢٠٠١/٤) كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع: برقم: (٢٥٨٨) ولفظه: ((ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)).

[٩] - سنن أبي داود: (١٣٣/٢) باب في الشح: برقم: (١٦٩٨) وسنن البيهقي الكبرى: (١٨٧/٤) باب كراهية البخل والشح والإقتار: برقم: (٧٦٠٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شحيحاً، يلومه الناس، إذا كانت يده مغلولة إلى عنقه، {وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ} فيكون محسوراً أي ينقطع فلا يستطيع التصرف والإنفاق وما أشبه ذلك، ولكل واحدة مما سبق حكمها، جاءت الأحكام على الترتيب بحسب القضايا المذكورة قبله، والمشوّش: أن يذكر قضايا ثم يذكر أحكامها على غير الترتيب السابق، بتقديم وتأخير، مثل: قوله -عز وجل-: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ}[سورة آل عمران: (١٠٦-١٠٧)] هذا يقال له: مشوّش.

وأيضاً يأتي هذا المعنى في البسط، {فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}: أي تلومك نفسك ويلومك الناس، فصار بهذا الاعتبار قوله: {مَلُومًا} يرجع أيضاً إلى {وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}، بحيث يحصل له اللوم من نفسه، إذا بسط يده كل البسط، فقد يندم إذا احتاج، فتلومه نفسه، ويلومه أيضاً أصحاب الحقوق والقرابات، وأهله؛ حيث لم يُبقِ لهم شيئاً، فاللوم يحصل بهذا وبهذا، فإذا كان الإنسان شحيحاً فإن الناس يلومونه على الشح، وإذا كان مسرفاً مضيعاً فقد تلومه نفسه، ويلومه غيره ممن له حق.

وقوله: {فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} قال: **فتكون كالحسير، وهو: الدابة التي عجزت عن السير فوقفت**، يعني التي انقطعت، الذي يقولون له: حرنت الدابة، حرنت القصواء -كما قالوا- يعني انقطعت؛ وذلك من طول السير والتعب الكبير، وهو معروف في الإبل، كما قال الشاعر:

بها جِيَف الحسرى فأما عظامها ** فبيضٌ وأما جلدها فصليب

هو يصف الأماكن التي قطعها من المفاوز البعيدة التي تتقطع فيها الدواب، واستطاع أن يقطعها، يقول: الأماكن التي قطعتها تجد فيها جيف الحسرى، يعني الدواب، والإبل، والمراكب التي انقطعت بالسفر من طوله، فيصور حالها:

... أما عظامها ** فبيض، وأما جلدها فصليب

يعني منكمشة ميتة، وتفسخت عنها جلودها، وعلى كلٍّ فهذا معنى {مَّحْسُورًا}: أي: تنقطع لا تستطيع التصرف في شئونك؛ لأنه لم يبقَ في يدك شيء، ثم قال: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ} يقدر يعني يضيّق، {وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ} [سورة الطلاق: (٧)]. فكل ذلك يكون بحسب علم الله -عز وجل- لا ذهولاً ولا نسياناً ولا غفلة، وإنما بحسب ما يصلح الخلق، {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [سورة الشورى: (٢٧)].

سؤال:

عن علاقة الشح بالفجور:

الله -عز وجل- يقول: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة الحشر: (٩)]، وذلك أن الشح يحمل الإنسان على فعل ما لا يجمل ولا يليق من قطيعة الرحم، والتطلع إلى ما في أيدي الناس، وتضييع المروءات، وارتكاب ما حرمه الله -عز وجل- من أكل الربا وغصب أموال الآخرين، وهكذا مما تذهب به دنياه وآخرته؛ إذ هو لا يتورع عن شيء، ولا يتنزه من شيء، ولا يؤدي الحقوق التي أوجبها الله -عز وجل- عليه ولا يفعل ما يجمل به، أو يترك ما لا يحسن مما يكون سبباً لضياع شرفه ومروءته ونحو هذا،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا هو الشح، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ((فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا))، وكما قال الله -عز وجل-: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} [سورة النور: (٣٣)] نزلت في عبد الله بن أبي رأس المنافقين وكان عنده جاريتان أسلمتا، وكان يكرههما على الزنا بأجرة، من أجل أن يكتسب من هذا المال، ويضربهما على ذلك.

فائدة في المراد بالرحمة التي يرجوها:

المقصود -والله تعالى أعلم- ما يتعلق بهذا السياق، -وهو التوسعة في الرزق والعطاء- أن الله يوسع عليك فتعطيهم {ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا}، ترجو أن الله يعطيك ويرزقك فتعطي هؤلاء، وحين تعدهم تكون قد نويت الإعطاء والصدقة والبذل، ولو لم تكن مقتدراً ، وتؤجر على هذا، فيستصحب الإنسان النية الطيبة معه دائماً، وإن عجز عن الفعل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء(١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً}[سورة الإسراء:٣١]**، هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} أي: خوف أن تفتقروا في ثاني الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: {نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ}، وفي الأنعام: {وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ} أي: من فقر {نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ}، وقوله: {إِنّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً} أي: ذنباً عظيماً، وقرأ بعضهم: كان خَطَأً كبيراً وهو بمعناه، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك)) قلت: ثم أي؟ قال: ((أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك)) قلت: ثم أي؟ قال: ((أن تزاني بحليلة جارك))**[(١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} يقول: "**هذه الآية دالة على أنه تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده**"، ووجه هذا ظاهر؛ فالآباء يقتلون الأولاد، والله -تبارك وتعالى- أرحم بهؤلاء الأولاد من آبائهم، فهو ينهاهم عن قتلهم، يقول: "**كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث**"، {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ} [سورة النساء:١١]، وهل الوالد بحاجة إلى وصية وقد جُبِل قلبه على الشفقة والمحبة والحرص على مصلحة الولد؟، الله تعالى أرحم بالولد من الوالد بولده، ولهذا يعد العلماء مثل هذه الآيات من آيات الرجاء في كتاب الله تعالى.

قال: "**وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته**"، بمعنى أنه يكثر من يعول فيفتقر، وهذه الآية كما هو صريح من ظاهرها {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ}، يعني خوف الفقر، والمعروف في التاريخ أنهم كانوا يقتلون البنت خشية العار، والله -تبارك وتعالى- نهاهم عن قتل الأولاد، والولد يشمل الذكر والأنثى، {خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} خوف الفقر، ويمكن أن يقال بأن الولد أطلق على أحد النوعين، وهو البنت، خشية العار فهذا يكون بالاعتبار الثاني، وهذا لا إشكال فيه؛ لأنهم يخشون عليها أن

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} [سورة الفرقان:٦٨]، برقم (٤٤٨٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تفتقر ثم بعد ذلك تضطر إلى بيع عرضها فيئول أمرها إلى الفضيحة من هذا الباب، فنهاهم عن قتلهم خشية الفقر، كما كانوا يقولون في كلامهم وأشعارهم.

إذا تذكرتُ بنتي وهي تندبني *** فاضتْ لعَبرة بنتي عبرتي بدمي
أحاذر الدهر يوماً أن يلمّ بها *** فيهتكَ الستر عن لحم على وضم
أخشى عليها فظاظة عم أو جفاء أخٍ *** وكنت أخشى عليها من أذى الكلم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً *** والموت أكرم نزّال على الحُرم

والآخر الذي عنده بنت اسمها مودة:

مودةُ تهوى عمر شيخ يسره *** لها الموت لو أنها تدري

والآخر الذي عنده بنت يقال لها: الجرباء، خُطبت، فقال:

إني وإن سيق إليّ المهر *** عبدٌ وألفان وذود عشر
أحبُّ أصهاري إلي القبر

وكان بعضهم يقتل الولد الذكر من أجل الفقر، وهذا موجود، ولم يكن القتل سواءً للبنات أو للأولاد عند جميع العرب، وإنما كان عند بعضهم، كأسد، وتميم بن مر، وبعض قبائل العرب، ليس عند كل العرب، على كل حال يقول: فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ}، يعني هم الآن ليسوا فقراء، لكن يخشى أن يكثر من يعول فعند ذلك يفتقر، قال: ولهذا قدم الاهتمام، قال: {نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم}؛ لأن هنا ليسوا فقراء، {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} يخشى أن يفتقر في المستقبل، فوعد برزق الأولاد فيأتي رزقهم معهم، وفي آية الأنعام {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ}: يعني من فقر موجود واقع، فقدم رزق الآباء وقال: {نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُم}.

وقوله تعالى هنا: {إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيرًا} قال: أي ذنباً عظيماً، يقول: وقرأ بعضهم: {كان خَطَأً كبيراً}، قرأ بها ابن عامر وهي قراءة متواترة، وقال: وهو بمعناه، وقيل: هما لغتان خِطْئاً وخَطَأً، ويوجد في بعض القراءات الأخرى المتواترة مثل قراءة ابن كثير {خطاءً}، بعض أهل العلم يقول: إن خطاءً من خطئ إذا أجرم، وبعضهم يقول: "خطاءً" لغة من خطئ يقال: خطئ فهو خاطئ، وأخطأ فهو مخطئ، وبعضهم يقول: إن خطِئ يقال لما وقع فيه الإنسان من الخطأ عمداً، وخطَأ بالفتح لما وقع فيه من غير قصد، لكن قراءة ابن عامر، {كان خَطَأً كبيراً}، يدل على أن خطأ تأتي بمعنى الوقوع بالمخالفة قصداً، وأنها لغة فيها، ويمكن أن يقال: غالباً ما يأتي الخطأ في الوقوع، معبَّراً به عن الوقوع في المخالفة من غير قصد، وبالكسر يكون لما كان بقصد، فيكون صاحبه مذموماً، وقوله: {خَشْيَةَ إِمْلاقٍ}، الإملاق الفقر، وأصله يقال: أملق الرجل إذا لم يبق له إلا الملقات، والملقات هي الحجارة الكبيرة الملساء.

{وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} [سورة الإسراء:٣٢]، يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً}: أي ذنباً عظيماً، {وَسَاء سَبِيلاً} أي: بئس طريقاً ومسلكاً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد روى الإمام أحمد عن أبي أمامة -رضي الله تعالى عنه-: أن فتى شاباً أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مَهْ، مَهْ، فقال: ((ادْنه)) فدنا منه قريباً، فقال: ((اجلس)) فجلس، فقال: ((أتحبه لأمك؟)) قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ((ولا الناس يحبونه لأمهاتهم))، قال: ((أفتحبه لابنتك؟)) قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ((ولا الناس يحبونه لبناتهم)). قال: ((أفتحبه لأختك؟)) قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ((ولا الناس يحبونه لأخواتهم))، قال: ((أفتحبه لعمتك؟)) قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: ((أفتحبه لخالتك؟)) قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ((ولا الناس يحبونه لخالاتهم))، قال: فوضع يده عليه، وقال: ((اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وأحصن فرجه)) قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[٢].

قوله: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} الفاحشة هي الذنب العظيم، وكثيراً ما تطلق على الزنا وما في معناه، في عرف الاستعمال غالباً، وذكرنا قبل أن من أهل العلم من يفرق بين ثلاثة أشياء: الفاحشة ويقول: هي الزنا وما في معناه، وكلمة فاحشة منكرّة: هي الذنب العظيم، وما ورد مقيداً بالبيان {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} [سورة الأحزاب:٣٠] قالوا: عقوق الزوج، وهذا لا يخلو من إشكال، وكثيراً ما تطلق على نوع من الذنوب خاصة، كما يقال في الإثم، فهو الذنب، ويطلق على تبعة الذنب وهو المؤاخذة، ويطلق في عرف الاستعمال عند بعضهم على نوع من الذنوب وهو الخمر.

وقوله: {وَسَاء سَبِيلاً}، فالله تبارك وتعالى أطلقه ليبقى على إطلاقه، ساء طريقه طريقاً، طريق الزنا، وذلك أنه سبب للآفات والبلايا في الدنيا والآخرة، وهو سبب للأوجاع والطواعين، كما أنه من أعظم أسباب الفقر، وبه ذهاب الشرف، وتلويث وتدنيس الفُرش، واختلاط الأنساب، وضياع الأعراض، وهو أيضاً سبب للدياثة، فإن الذي يزني تذهب غيرته، كما أنه سبب للعقوبة، قد تعجل له في الدنيا، وقد يعذب في الآخرة.

{وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}[سورة الإسراء:٣٣]، **يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة))**[٣]، **وفي السنن: ((لَزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم))**[٤].

---

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (٢٢٢١١)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٥٠٣٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٧٠).

٣ - رواه مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، برقم (١٦٧٦).

٤ - رواه النسائي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم))، كتاب تحريم الدم، باب تعظيم الدم، برقم (٣٩٨٧)، والترمذي، كتاب الديات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن، برقم (١٣٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٠٧٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً} أي: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قَوَداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك، وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية -رضي الله تعالى عنه- السلطنة وأنه سيملك؛ لأنه كان ولي عثمان، وقد قتل مظلوماً -رضي الله تعالى عنه-، وقد تمكن معاوية وصار الأمر إليه، كما قاله ابن عباس واستنبطه من هذه الآية الكريمة، وهذا من الأمر العجب.

وقوله: {فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ} قالوا: معناه فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل، وقوله: {إِنّهُ كَانَ مَنْصُوراً} أي: إن الولي منصور على القاتل شرعاً وغالباً وقدراً.

قوله: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ}، النفس قيل لها النفس: من النفاسة، و{الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ قتلها، {إِلاَّ بِالحَقِّ}، والنفس التي حرم الله قتلها هي النفس المعصومة، كالمسلم والمعاهد والذمي والمستأمن، هذه أربعة أصناف، قال: {إِلاَّ بِالحَقِّ}، وهنا ذكر الحديث: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس)) إلى آخره، فهذا مفسر لقوله: {إِلاَّ بِالحَقِّ}، فالآية مجملة فسرها الحديث، وينبغي أن يجمع كل ما صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيما كان حكمه القتل ولا يقتصر على الثلاثة، مثل الساحر فإن حكمه ضربة بالسيف، يُقتل حداً، ومن عَمِل عمل قوم لوط، الأصح من أقوال أهل العلم أنه يقتل بالسيف، يقتل الفاعل والمفعول به إن كان راضياً بهذا، وهكذا البهيمة إذا فُجِر بها فإنها تقتل، وكذلك كل ما ورد فيه أنه يقتل، كقطاع الطرق {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ} [سورة المائدة:٣٣] فهؤلاء حكمهم القتل، أو يخير فيهم بين الأمور الثلاثة، فالشاهد أن الله -عز وجل- قال: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} قال: "**أي سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قَوَداً، وإن شاء عفا عنه**" على الدية، وأصل السلطان الحجة، ولمّا ثبتت لولي الدم الحجة صار له تسلط على القاتل، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر السلطان بأنه مخيّر بين ثلاثة أشياء، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وذهب إليه جماعة من أهل العلم، قالوا: يخير بين الأمور الثلاثة، هذا هو السلطان، ومن أهل العلم من قال: إن ذلك يختص بالقصاص، بالقتل فقط، هذا هو السلطان؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}، قالوا: هذا مثل التفسير له، هذه قرينة تدل على أن المراد بالسلطان القتل القصاص، {فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}، وهكذا في الآية الأخرى {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} [سورة البقرة:١٧٨] إلى قوله: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة:١٧٩]، فهذا قالوا: كله يفسر السلطان، وأن الحق الثابت له هو القتل قصاصاً، وإذا قلنا بأن الحق الثابت له هو القصاص فإذا أراد أن يتحول عنه إلى الدية، أو يطلب الدية بدلاً من القصاص فإن ذلك يرجع إلى موافقة الجاني، فإذا قال ولي الدم: أنا لا أريد القصاص أريد الدية، فعندئذٍ يرجع هذا إلى رضا الجاني، فإذا قال الجاني: لا، أنا لا أرضى بالدية، اقتلوني ولا أعطيكم دية، فعلى هذا القول فإنه ليس لهم أن يلزموه بدفع الدية، وإذا قلنا بأن الحق له ثابت وأنه مخير بين هذه الأمور الثلاثة، فإنه إن طلب الدية أُلزم بها الجاني، وهذا حق لولي القتيل، وبالنسبة للاستنباط الذي ذكره عن ابن عباس باعتبار أن معاوية كان يطالب بدم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عثمان -رضي الله عنه- فهو ولي القتيل بهذا الاعتبار، {فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ} يعني: تسلطاً على القاتل وظهوراً عليه فهذا الاستنباط الذي نقله عن ابن عباس قد لا يخلو من إشكال ومناقشة، باعتبار أن عليًّا -رضي الله عنه- لم يكن هو القاتل، ولم يكن له في القتل يدٌ أصلاً وإنما كان هو الخليفة الشرعي الذي بايعه الجميع، ومنهم طلحة والزبير -رضي الله عنهم- بايعوه، فجاءوا يطالبون، وكان الذين قتلوا عثمان -رضي الله عنه- دخلوا في جيش علي -رضي الله عنه-، فغاية ما هنالك أن يقال: إنهم يمكنون منهم ولو بعد حين، وهذا الذي حصل، فعلي -رضي الله عنه- ما استطاع أن يقتلهم، فتحصل فتنة في داخل الصف عنده، ولمّا ولي معاوية -رضي الله عنه- الخلافة لم يستطع أن يقتل واحداً منهم، حتى إنه لما زار المدينة صِحنَ بنات عثمان -رضي الله عنه- لما دخل عليهن، فقال لهن كلاماً ذكر فيه أنهم على صلح مع الناس على دخل وريبة، بمعنى أنه على صلح فيه توجس من كل طرف، فلا يريد أن يثير أمراً، فترك مطالبتهم، ولم يقتل أحداً منهم، لأنه لم يتمكن من هذا، وهذا يبرئ ساحة علي -رضي الله تعالى عنه-، وإنما تتبع من وجُد منهم بعضُ الأمراء فأخذوهم وقتلوهم، وعلى كل حال قال: "{فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ} **قالوا: معناه فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل**"، {فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ} يعني: الولي، وفي قراءة أخرى متواترة {فَلاَ تُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}، على الخطاب {فَلاَ يُسْرِف}، بعضهم يفسرها بمعنى فلا تسرف في القتل أيها الولي، وبعضهم يفسر القراءتين {فَلاَ يُسْرِف} و{فَلاَ تُسْرِف} أيها القاتل، يعني: يخاطب القاتل يقول: إن قتلت فالقتل ينتظرك، فعلى رسلك، {فَلاَ تُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}، وبعضهم يقول: {إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} أي الولي، وبعضهم يقول: القتيل، بأن يؤخذ بثأره ويقتص من قاتله، ومن أهل العلم كابن جرير من يقول: إن قوله: {فَلاَ تُسْرِف فِّي الْقَتْلِ} الخطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- وللأمة من بعده، وأيضاً جاء في قراءة غير متواترة لأبي بن كعب {فلا تسرفوا في القتل إن ولي القتيل كان منصوراً}، فيكون تفسيراً للضمير في قوله: {إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} أي: ولي القتيل، والإسراف في القتل يدخل فيه صور متعددة، ما كانوا عليه في الجاهلية مثلاً كالتمثيل بالقاتل لا على وجه القصاص وإنما كان تشفياً فقط، وكذلك يدخل فيه قتل أكثر من واحد بواحد إذا لم يكن لهم يد في قتله، يرون أنه ما يكافئه واحد، كما كانوا في الجاهلية، كما قال الشاعر:

كلُّ قتيلٍ في كليبٍ غُرَّة *** حتى يوافي القتلُ آلَ مُرّة

غُرة أي: عبد، والغُرة ما تأتي شيئاً بالنسبة لديّة الحر يعني تبلغ نصف العشر، أي خمس من الإبل إذا قدرنا العبد، فهي نصف عشر دية الحر، فهذا يقول:

كلُّ قتيلٍ في كليبٍ غُرَّة *** حتى يوافي القتلُ آلَ مُرّة

يقتلهم كلهم، وعساهم يكافئون كلياً، وبعضهم كان يقتل غير القاتل، يرى أن هذا المقتول هو فارس القبيلة مثلاً، وأنه لا يكافئه هذا الإنسان الذي قتله، فيرى أنه لا يُقتل فيه إلا فلان، فيقتلونه به، فهذا كله من الإسراف في القتل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}.[سورة الإسراء: (٣٤-٣٥)].

يقول تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ}: **أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة،** {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} [سورة النساء: (٦)] **وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لأبي ذر:** ((يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين، ولا تَوَلَّيَنَّ مال اليتيم))[١].

وقوله: {وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ}: **أي الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه** {إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً}: **أي عنه.**

وقوله: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ}: **أي من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم،** {وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ} **قُرئ بضم القاف وكسرها، كالقرطاس، وهو الميزان.**

وقوله: {الْمُسْتَقِيمِ}: **أي: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب** {ذَلِكَ خَيْرٌ}: **أي لكم في معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال:** {وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}: **أي مآلا ومنقلباً في آخرتكم، قال سعيد عن قتادة:** {ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}: **أي خير ثواباً وأحسن عاقبة. وابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- كان يقول: يا معشر الموالي إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم، هذا المكيال، وهذا الميزان.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} قال: **أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة،** يعني بما فيه مصلحة اليتيم، فيتجر به في التجارات المأمونة غالباً، كما جاء عن جماعة من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-: "اتجروا في أموال اليتامى؛ لا تُذهبها الزكاة"[٢]. فأن يثمَّر مال اليتيم داخلٌ في قوله: {إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، والمراد: الخصلة أو الفعلة التي هي أحسن، كالاتجار به،

١- صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٧) كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة برقم (١٨٢٦).

٢ - موطأ مالك: (٢٥١/١) باب زكاة أموال اليتامى والتجارة لهم فيها: برقم: (٥٨٨) عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- "اتجروا في أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتنميته وتثميره بالطرق المأمونة، وأيضاً ما ذكره الله -عز وجل-: {وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} [سورة النساء: من الآية: (٦)]، فإذا كان ولي اليتيم بحاجة وإعواز فله أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف، من غير توسع وفعْل ما لا يحسن ولا يجمل، مما ينبئ عن استغلال لمال هذا اليتيم كما كان يفعله أهل الجاهلية، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا} [سورة النساء: من الآية: (٦)]، وذلك أنهم كانوا يبادرون إلى أخذها وأكلها قبل أن يصل هذا الصغير إلى سنٍّ يعرف فيها حقه، والسبل التي يمكن أن يحفظه بها.

وقوله: {حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} الأشُد قيل: جمعٌ لا واحد له من لفظه، وقيل: مفرد، وقيل: جمع واختلفوا في مفرده، فقيل: جمع شِدَّة، وقيل: جمع شِد، وقيل: جمع شَد، وأيضاً اختلفوا في تحديد الأشُد، فحدده بعضهم بالبلوغ، وذكر بعضهم سناً معينة، وهي الخامسة عشرة، وبعضهم حدده بالثامنة عشرة، وبعضهم حدده بالثلاث والثلاثين، وبعضهم حدده بالأربعين، وبعضهم حدده بالخمسين، وهذا تباينٌ كبير، والسبب أن كل واحد من هؤلاء نظر إلى معنىً صحيح مما يطلق عليه هذا اللفظ، فمن قال مثلاً بالبلوغ قال: إن الإنسان ينتقل من الطفولة إلى مرحلة الرجولة إذا بلغ، فهذا هو بلوغ الأشد، ومن نظر إلى أنه إذا بلغ الثامنة عشرة قالوا: إن مثل هذا يكون قد حصل له بعد البلوغ من النضج ما لا يكون له عند البلوغ، ومن قال: إنه إذا وصل إلى الأربعين، نظر إلى قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ} [سورة الأحقاف: من الآية: (١٥)]، ومن نظر إلى الخمسين أخذ ذلك من بيت لعلي -رضي الله عنه-:

أخو خمسين مجتمع الأشد .....

فالشاهد أن بلوغ الأشد يحصل باكتمال القوة، ويحسن هذا المعنى في هذا الموضع مع حسن التصرف في المال، بمعنى أنه إذا بلغ إلى حد يصير فيها رشيداً فإنه يدفع إليه ماله، فهذه الآية مفسرة بالآية الأخرى، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} [سورة النساء: من الآية: (٦)] يعني اختبروهم، حتى إذا بلغوا النكاح وهذا سن البلوغ، ثم قيده فقال: {فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ}، فلا بد من أمرين، الأمر الأول: البلوغ، والثاني: حسن التصرف في المال، كما سبق في موضعه من سورة النساء، وبلوغ الأشد يتفاوت، فالذي بلغ الأربعين لا شك أنه ليس كابن العشرين، مع أن ابن العشرين يقال: إنه قد بلغ الأشد، إذا كان يحسن التصرف في المال.

{وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ}:

قوله: {وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ} قال: أي الذي تعاهدون عليه الناس، والعقود التي تعاملونهم بها، يدخل في عموم قوله: {وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ}: العهد مع الله، وذلك بالوعد، ومعاهدة الله -عز وجل-، والنذر، والإيمان عهد مع الله، والتوبة عهد مع الله، وهكذا، ويدخل في ذلك العهود مع النبي -صلى الله عليه وسلم- كالبيعة، ويدخل فيه العهود مع الناس بجميع أنواعها.

ثم قال: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} يقول: **قرئ بضم القاف وكسرها**، قِسطاس، كالقرطاس، وكلا القراءتين متواترة، قراءة الضم قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وعاصم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في رواية، والرواية الأخرى عن عاصم، قِسطاس بالكسر، تلك على كل حال رواية شعبة، وهذه رواية حفص عن عاصم، والقسطاس فُسر بالميزان وفسر بالعدل، ولا نحتاج إلى الترجيح هنا فبين القولين ملازمة، وذلك أن الميزان هو آلة العدل، إنما يتحقق العدل بمثل هذه الأمور، بالموازين، فإذا قلت بأنه الميزان فلا إشكال، وإذا قلت بأنه العدل فلا إشكال، فالميزان آلة العدل.

{ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}: أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم، وليس في الآخرة فقط، بل حتى في الدنيا، ففي الدنيا إذا كان الإنسان يزن بالقسطاس المستقيم –بالعدل- فإن ذلك خير له وأحسن عاقبة؛ لأن الذي يطفف حبات من الميزان أو المكيال، يحصل له من الدناءة والحقارة في نفسه وعند الآخرين ماتذهب به مروءته وشرفه، وتنزع الثقة به من قلوب الناس، ولا يُقبلون على التعامل معه، لأنهم إذا عرفوا أن أحداً في بيعه وشرائه يتعامل معهم بالأمانة فإنهم يقبلون عليه، فالعاقبة بالنسبة لهذا تكون خيراً، ويحصل له من الكسب الطيب المباح الشيء الكثير، والذي لا يجاوز نظرُه أنفَه غاية ما يريد ابتزاز هذا أو ذاك بحبات يطفف فيها المكاييل، الناس يعرضون عنه ولا يتعاملون معه، ومعلوم عند أهل التجارات أو الحذق فيها أو النظر البعيد أنه لو لم يربح في تعامله هذا إلا أنه يكفيه أن يجعل الذين يتعاملون معه في أول مرة يقبلون عليه دائماً، فهذا هو النظر الصحيح في البيع والتجارة، لا أن يربح عليهم مرة واحدة ثم بعد ذلك لا يعودون إليه، فالمكاييل والموازين يتعلق بها عصب الحياة اليومية للناس، مما يمس المعايش التي بها قوام حياتهم، في ضروريات وليس في أمور كمالية، فإذا حصل فيها الإخلال وقع بسبب ذلك فساد كبير، ولعلكم تسمعون عن ثورات الخبز، لا تقوم ثوراتهم وتضطرب أحوالهم ومعايشهم إذا ارتفعت أسعار الحلوى، وإنما إذا ارتفعت أسعار الأقوات الأساسية، عند ذلك يكون الضر قد لامس نفوسهم وحياتهم من قرب، وينتج عن ذلك نزع البركات، والفساد والإفساد.

{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً} [سورة الإسراء: (٣٦)].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يقول: لا تقل. وقال العوفي: لا ترمِ أحداً بما ليس لك به علم. وقال محمد بن الحنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل: رأيتُ ولم ترَ، وسمعتُ ولم تسمعْ، وعلمتُ ولم تعلم؛ فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكروه أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [سورة الحجرات: (١٢)] **وفي الحديث ((إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث))[٣]. وفي سنن أبي داود: ((بئس مطية الرجل زعموا))[٤] وفي الحديث الآخر: ((إن أفرى الفِرى أن يُرِي الرجل عينيه ما لم تريا))[٥]. وفي الصحيح ((من تحلم حلماً كُلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل))[٦].**

---

٣ - صحيح البخاري: (٢٢٥٣/٥) باب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا} برقم: (٥٧١٩)، وصحيح مسلم: (١٩٨٥/٤) باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها: برقم: (٢٥٦٣).

٤ - سنن أبي داود: (٢٩٤/٤) باب قول الرجل زعموا: برقم: (٤٩٧٢).

٥ - مسند أحمد بن حنبل: (٩٦/٢) برقم: (٥٧١١).

٦ - صحيح البخاري: (٢٥٨١/٦) باب من كذب في حلمه: برقم: (٦٦٣٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {كُلُّ أُولئِكَ}: أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد {كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً}: أي سيُسأل العبد عنها يوم القيامة، وتسأل عنه عما عمل فيها، ويصح استعمال أولئك مكان تلك.

{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} الأقوال التي ذكرها هنا، لا تقل، لا ترم أحداً بما ليس لك به علم، شهادة الزور، لا تقل: رأيت، ولم تر، إلى آخره، كل هذا من قبيل التفسير بالمثال، فكله داخل في الآية، {وَلاَ تَقْفُ}: يعني لا تتبع، وأصل ذلك يرجع إلى القفو وهو الاتباع، وأصله أن يتبع قفاه، يعني يكون مقتفياً له، يمشي على أثره، ولهذا فسرها بعضهم بمعنىً خاص ملاحظاً لهذا الجانب في هذه اللفظة، حمل ذلك على ما يكون في القفا، مما يقال من النميمة والغيبة، وقذف الأعراض وما أشبه ذلك، والقفو مشعر بما يكون في القفا، وهذه الأمور تقع أيضاً في القفا من وراء الإنسان، في غيبته وغير ذلك، إلا أن العرب تستعمل ذلك في ما هو أوسع من هذا، فلان يقتفي أثر فلان، يعني يتبعه، وعلى كلٍّ فـ{لاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} أي لا تتبع ما ليس لك به علم، فهذا يشمل كل الصور التي ذكرها السلف، وغير ذلك مما يكون من اتباع للظنون الكاذبة والشائعات، ((بئس مطية الرجل زعموا))، فيكون الإنسان ناقلاً لأمور لم يحققها ولم يتثبت منها، فمجرد ما يسمع الشيء أو يقرؤه في مكان فهو يسارع في نقله، وهكذا يدخل فيه كل ما لم يتثبت ويتوثق منه الإنسان في الديانة مما يتعلق بالعبادات، فيدخل فيه اتباع الأهواء والبدع، والأمور المضلة، والمقصود أن الإنسان يتوثق في كل ما يأتي وما يذر، لا يفعل شيئاً إلا عنده فيه من الله برهان، ولا يتكلم بشيء إلا ويعلم أنه حق، وأن التكلم فيه، فيه مصلحة ونفع، وأنه خير من السكوت، وإلا فـ ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت))[٧] وما كل ما يُعلم يقال، وما كل ما يسمعه الإنسان يحدث به، ((كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع))[٨]، إلى غير ذلك من المعاني الكثيرة الداخلة تحت قوله: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، والعموم ظاهر فيها من هذا التركيب، فـ "تقف" فعل مضارع مسبوق بـ"لا" الناهية، ومثل هذا يدل على العموم، ومن "ما" أيضاً، {مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، وهذا العموم يتوجه إلى أربعة أشياء الأفراد والأزمان والأمكنة والأحوال.

ثم قال: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ} رتبها بهذا الترتيب السمع والبصر، فالسمع أهم من البصر، كما هو معلوم؛ لأن الإنسان قد يتعطل بصره ويكون له من البصيرة ما يغنيه عن البصر، ويكون ذلك ربما أوفر في عقله وحفظه وحدة ذهنه، وأيضاً الإنسان حينما يبصر لا يبصر إلا الأمور المتشخصة، ولا يبصر إلا ما أمامه، وأما السمع فهو يسمع فيه غير المتشخصات كأصوات الرياح ويسمع الأشياء البعيدة التي لا تبصرها عينه، ويسمع من كل ناحية، ثم ذكر البصر بعده، ثم ذكر الفؤاد؛ لأنه هو المصبُّ، فالسمع والبصر سبيلان وطريقان يصبان في القلب، ميزابان يلقيان في القلب ما يتحصل بهما، فما يراه الإنسان من المناظر يقع في القلب، وما يقرؤه يقع في القلب، وما يسمعه الإنسان يصب في قلبه، فيتأثر سلباً أو إيجاباً، فلا يكون قلب الإنسان محلاً يلقى فيه كل بلاء وشر، وإنما يصون الإنسان سمعه وبصره، والفؤاد هو القلب، وقيل له:

---

٧ - صحيح البخاري: (٢٣٧٦/٥) باب حفظ اللسان: برقم: (٦١١٠) ومسلم: (٦٩/١) باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان: برقم: (٤٨).

٨ - صحيح مسلم: (١٠/١) باب النهي عن الحديث بكل ما سمع: برقم: (٥)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفؤاد، قيل: لكثرة تفؤده أي: توقده بالمعاني والخواطر والأفكار، ولا يتوقف، بخلاف السمع والبصر، والمعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا {كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً} جمع بين المعنيين اللذين ذكرهما المفسرون في هذه الآية، فالعبارة دقيقة قال: {كُلُّ أُولئِكَ}: أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد {كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً}: أي **سيسأل العبد عنها يوم القيامة وتسأل عنه، وعما عمل فيها**، وقوله: {عَنْهُ} يحتمل أن يكون المعنى {كَانَ عَنْهُ}: أي أنك تُسأل عنها، أي عن السمع والبصر والفؤاد، ((لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه..))[٩] إلى آخره، والمعنى الثاني: أنها هي التي تُسأل عن الإنسان ماذا عمل بها، كيف استغلها، كما قال الله -عز وجل-: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ}[سورة يس: من الآية: (٦٥)] فهي تنطق وتتكلم، وكل واحد من هذين المعنيين يدل عليه أدلة؛ ولذلك يمكن أن يقال هنا: إن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وهذه الآية تحمل على هذين المعنيين، {كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً}: أي أنها تُسأل عن الإنسان، والإنسان أيضاً يُسأل عنها.

---

٩ - سنن الترمذي: (٦١٢/٤) باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص: برقم: (٢٤١٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء(١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف - رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} [سورة الإسراء:٣٧ – ٣٨].

يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتبختر في المشية {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً} أي: متبختراً متمايلاً مشي الجبارين، {إِنّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ} أي: لن تقطع الأرض بمشيك، قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رؤبة بن العجاج:

وقاتمِ الأعماقِ خاوي المُخْتَرَقْ

وقوله: {وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً} أي: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازَى فاعل ذلك بنقيض قصده، كما ثبت في الصحيح: ((بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما، إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة))[1]، وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض.

وقوله: {كُلّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبّكَ مَكْرُوهاً} أما من قرأ {سَيِّئَةً} أي: فاحشةً، فمعناه عنده كل هذا الذي نهيناه عنه من قوله: {وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} إلى هنا، فهو سَيِّئَةٌ مؤاخذ عليها مكروهاً عند الله لا يحبه ولا يرضاه، وأما من قرأ {سَيِّئُهُ} على الإضافة فمعناه عنده كل هذا الذي ذكرناه من قوله: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ} [سورة الإسراء:٢٣] إلى هنا فسيِّئه أي فقبيحه مكروه عند الله، هكذا وجّه ذلك ابن جرير -رحمه الله-.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا} وفي قراءة أخرى متواترة {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرِحاً} على البناء على اسم الفاعل، والمرَح فسر بشدة الفرح، وفسر بالتكبر والتبختر، والخيلاء، وتجاوز الإنسان قدره، وهذه الأقوال متقاربة وليس بينها تنافٍ، فالمشي في الأرض مرحاً بمعنى أنه يمشي مشية يتبختر فيها ويتعاظم ويختال.

وليس المقصود من هذا أن الفرح مذموم من كل وجه، فهناك فرح مشروع ومنه قوله – تبارك وتعالى -: {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}[سورة يونس:٥٨]، ومنه الفرح بنصر الإسلام، وظهور المسلمين فليس هذا مذموماً، بل هو فرح يحبه الله -عز وجل-.

---

[1] - رواه البخاري، كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء (٥ / ٢١٨٢)، برقم (٥٤٥٢)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه (٣ / ١٦٥٣)، برقم (٢٠٨٨)، بنحوه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهناك فرح مباح لا يكون مذموماً، ومنه الفرح بالمكاسب الدنيوية، والربح في التجارات، أما الفرح المذموم فهو الذي يحمل على التعاظم والخيلاء، والتكبر، والتجبر والأشَر والبطَر.

فمن فسر قوله –تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا} بشدة الفرح فهو محمول على الفرح المذموم، وقد قال بعض أهل العلم: إن {مَرَحًا} حال، وقيل: هو مصدر وقع حالاً، أي: ذا مرح، {تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا} أي مارحاً متلبساً بالكبر والخيلاء.

قوله: {إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ} [سورة الإسراء:٣٧] أي: لن تقطع الأرض بمشيك، وهذا قول ابن جرير، واستشهد عليه بقول رؤبة بن العجاج: وقاتم الأعماق خاوي المخترقن.

وقال بهذا القول الأزهري، والنحاس، وهو قول مشهور في تفسير الآية، وهو معنىً صحيح في لغة العرب.

فالإنسان الذي يتكبر لن يقطع الأرض بمشيته هذه التي يتبختر بها، فإذا نظرت إليه وهو يمشي من بعيد فتراه كأنه ذرة، فماذا تمثل هذه المشية بالنسبة للأرض؟

وقيل في معنى قوله: {إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ} أي: لن تنقب الأرض بمشيتك، فحينما يضرب هذا المختال برجله على الأرض فلن يخرقها، وهذا القول له قرينة ترجحه، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً}، والآية تحتمل المعنى الأول والثاني، فالمتبختر لن يقطع الأرض بمشيته، ولن يخرقها حينما يضرب بقدمه، فهو لا يمثل شيئاً.

وإذا أردت أن تعرف هذا جيداً، فانظر إلى الناس وأنت في الطائرة، انظر إلى المدن، لا ترى الناس أصلاً؛ لصغرهم، وانظر إليهم من مكان مرتفع في منىً وهم يذهبون إلى الجمرات، تراهم كالذر، لا تميز هذا من هذا، لا تميز المتعاظم في نفسه، من غيره، لكن الإنسان ينسى نفسه، ويتكبر على الخلق، فالشاهد أن هذا معنى، والمعنى الآخر صحيح، أي نقب الأرض، وهذا الذي اختاره أبو عبد الله القرطبي -رحمه الله-، واختاره أيضاً من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ويمكن أن تحمل الآية على الجميع، والله أعلم.

يقول: وقوله: {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}، قال: "**أما من قرأ {سَيِّئَةً} أي: فاحشةً، {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً}**" وهي قراءة متواترة، "**فمعناه عنده: كل هذا الذي نهينا عنه من قوله: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} إلى هنا فهو سيئة، مؤاخذ عليها، مكروها عند الله، لا يحبه ولا يرضاه، وأما من قرأ {سَيِّئُهُ} على الإضافة فمعناه عنده: كل هذا الذي ذكرناه من قوله: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ}، إلى هنا فسيِّئه أي قبيحه مكروه عند الله، هكذا وجّه ذلك ابن جرير -رحمه الله-**".

فعلى قراءة {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً} الأشياء المذكورة في هذه الوصايا، {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [سورة الإسراء:٢٣] إلى آخره، هذه ليست بسيئة، ولهذا حاول العلماء أن يحددوا مرجع اسم الإشارة {كُلُّ ذَلِكَ} فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: من قوله: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ}؛ لأنه أول النواهي، وهذا غير صحيح؛ لأن الله -عز وجل- قال قبله: {فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا}، وقال: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}[سورة الإسراء:٢٩]، فإن قيل: إنما ذكر {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ} باعتبار أن تلك يتخللها أوامر، أو جاءت في سياق أوامر، فجاءت تبعاً لها، فيمكن أن يقال: حتى هذه {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى}[سورة الإسراء:٣٢] جاء بعدها أيضاً، {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} [سورة الإسراء:٣٥]، ولهذا فإن بعضهم يقول: هذه تبدأ من قوله: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}[سورة الإسراء:٣٦]؛ لأن هذه الأشياء كلها التي جاءت بعدها نواهٍ، ما جاء بعدها أمر، فيكون {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً}، حينما يمشي الإنسان في الأرض مرحاً، ومن أهل العلم من يقول: ترجع إلى كل ما سبق، باعتبار أن هذه المنهيات سيئة، وأن الأمر بالشيء يتضمن أو يقتضي النهي عن ضده، فهي بهذا الاعتبار {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً} أي: أن أضداد هذه المأمورات وهذه المنهيات أيضاً في نفسها سيئة، وهذا لا يخلو من تكلف، وأما القراءة الأخرى بالإضافة {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} فهذه الوصايا التي تضمنت مأمورات ومنهيات {كَانَ سَيِّئُهُ} يعني: كالزنا والعقوق والإسراف والتكبر والتبختر وما أشبه ذلك كل هذا مكروه عند الله -عز وجل-.

يقول: {وَلاَ تَقْتُلُواْ} إلى آخره، يقول: "**إلى هنا فهو سيئة، مؤاخذ عليها، مكروهاً عند الله -عز وجل-**"، {مَكْرُوهًا} يمكن أن يكون بدلاً من سيئة، كل ذلك كان سيئةً مكروهاً، فيكون بدلاً منه، ويمكن أن يكون خبراً ثانياً لكان، كان سيئةً مكروهاً، وأما على قراءة الإضافة فواضح، {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}، "مكروهاً" مذكر و"السيئة" مؤنث على هذه القراءة {سَيِّئَةً}، {مَكْرُوهًا}، والسيئة بمعنى الذنب فيمكن أن يكون التذكير باعتبار المعنى، ولا إشكال في هذا، ويمكن باعتبار اسم الإشارة.

{ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا} [سورة الإسراء:٣٩]، **يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس، {وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَىَ فِي جَهَنّمَ مَلُوماً} أي: تلومك نفسك ويلومك الله والخلق، {مدْحُوراً} أي: مبعداً من كل خير، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة: مطروداً، والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فإنه -صلوات الله وسلامه عليه- معصوم.**

الخطاب الموجه للنبي -صلى الله عليه وسلم- في القرآن فيه تفصيل وهو على ثلاثة أنواع، منه ما وجد معه قرينة أن المراد الأمة، والأصوليون كثيراً ما يمثلون بقوله: {إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ} [سورة الطلاق:١]، جاء بصيغة الجمع، {لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ} إلى آخره، ومنه أيضاً قول الله -عز وجل-: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ} [سورة الإسراء:٢٣] والنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن له من أبويه أحد على قيد الحياة حينما نزلت عليه الآيات، وأحياناً يوجد معه قرينة على إرادة الاختصاص كقوله: {خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأحزاب:٥٠]، وأحياناً لا توجد قرينة، فمثل هذا هو موضع الاختلاف، وهذا يقال فيه: إن الأمة مخاطبة به؛ لأن الأمة تخاطَب في شخص قدوتها -عليه الصلاة والسلام-.

وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ}: "**هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس**"، والحكمة تقال للإصابة في القول والعمل، وقريب من هذا قول من قال: إنها وضع الشيء في موضعه، وأصل الحكمة المنع في كل الاستعمالات، حِكَم تدور على المنع، فالحكمة صفة وخلّة جميلة تمنع صاحبها من الخطل في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرأي، والخلل، والغلط في القول والعمل؛ ولذلك يقال: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ} يعني: من الصفات الكاملة، والأعمال الجميلة، والأخلاق الفاضلة التي لا يتطرق إليها في هذه الوصايا خلل ولا خطل، وإنما هي كمالات أمر الله بها، أو دنايا ورذائل نهى الله -تبارك وتعالى- عنها، فما يقوله الله -عز وجل- ويأمر به كله صواب وحق وصدق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا}[سورة الإسراء:٤٠].

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين -عليهم لعائن الله- أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطئوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكراً عليهم: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبّكُم بِالْبَنِينَ} أي: خصصكم بالذكور {وَاتّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً} أي: واختار لنفسه على زعمكم البنات، ثم شدد الإنكار عليهم فقال: {إنكم لتقولون قولاً عظيماً} أي: في زعمكم أن لله ولداً، ثم جعْلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يكنّ لكم، وربما قتلتموهن بالوأد، فتلك إذاً قسمة ضيزى، وقال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لقد جئتم شيئاً إِدّاً * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً} [سورة مريم:٨٨-٩٥].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: **{أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا}**، الهمزة للاستفهام الإنكاري، والمقصود أن الله تعالى ينكر عليهم زعمهم وافتراءهم بأنه -تبارك وتعالى- أعطاهم، أو أن الملائكة بنات الله، **{أَفَأَصْفَاكُمْ}** أي: خصكم **{بِالْبَنِينَ}**، ومعلوم أن الملوك إنما يصطفون لأنفسهم أفضل ما يوجد دون الأضعف والأقل، فإذا كنتم تحتقرون البنات وتئدونهن، كما يقول الله عنكم: **{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ}** [سورة النحل:٥٨-٥٩]، فكيف تنسبون ذلك لله -عز وجل- وهو مالك الملك، كيف خصكم بالأبناء الذين هم أشرف وأعظم، واتخذ الأضعف والأقل؟ هذا لا يكون، فهذا يدل على سوء نظرهم وضعف عقولهم.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا}[سورة الإسراء:٤١].

يقول تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ} [سورة الإسراء:٨٩] **أي: صرفنا فيه من الوعيد؛ لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، {وَمَا يَزِيدُهُمْ} أي: الظالمين منهم {إِلاّ نُفُوراً} أي: عن الحق وبعداً منه.**

قوله سبحانه وتعالى: **{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ}** التصريف في الأصل هو صرف الشيء من جهة إلى جهة، أو المغايرة، أي غايرَ في هذا القرآن بين المواعظ، وجاء بها على صروف وضروب متنوعة، من أجل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن يتعظوا ويعتبروا، ولكنّ الكثيرين لم يزدهم هذا إلا إعراضاً ونفوراً وتباعداً، وعلى كل حال الله -تبارك وتعالى- كما قال الحافظ ابن كثير: "**صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات**"، وتارة يأتي بأخبار المكذبين، وما حصل لهم من النقم والمَثُلات، وتارة يأتي بما يدل على عظمته وقوته وجبروته، وتارة يأتي فيه بما يدل على عظم جزائه في الآخرة، في الجنة أو النار.

{قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا}[سورة الإسراء:٤٢-٤٣].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره، ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرّب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون وساطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه، ثم نزه نفسه الكريمة وقدّسها فقال: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ} أي: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى، {عُلُوّاً كَبِيراً} أي: تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

هذه الآية مشهورة عند أهل الكلام في الاعتقاد يذكرونها في دلائل الربوبية، ويسمونها: دليل التمانع في الربوبية، ورد عليهم بعض أهل العلم، تجدون هذا في كلام شيخ الإسلام وفي كلام ابن القيم، وما ضمن من كلامهما في شرح العقيدة الطحاوية، وذلك أن هذه الآية ذكر الله -عز وجل- فيها الآلهة قال: {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ} وما قال: "أرباب"، {إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً}، فيرون أن هذه الآية يمكن أن تكون دليلاً على التمانع في الإلهية وليس الربوبية، وأن الأقرب في التمانع في الربوبية قوله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ}[سورة المؤمنون:٩١]، فالمقصود أن هذه الآية {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً}، وأيضاً {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}[سورة الأنبياء:٢٢]، وهذه الآية فيها للعلماء قولان مشهوران، ذكر الأول منهما الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، يقول: "**لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه، ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم**"، يقول: لو كان معه آلهة كما يقولون فإنهم سيكونون دونه في المرتبة وسيكون حالهم التقرب إليه، وطلب الزلفى لديه جل جلاله، فهو العظيم الأعظم -جل شأنه-، فينبغي عليكم أن تعبدوه وتفردوه بالعبادة وتوحدوه، وهذا المعنى هو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه الآية وتلميذه ابن القيم، وكذلك أيضاً كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، والمعنى الثاني في الآية وهو أيضاً محتمل، بل لربما يكون أكثر احتمالاً أخذاً من ظاهر القرآن، وهو أن المقصود {إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً} أي: سبيلاً إلى مغالبته، وليس سبيلاً إلى عبادته، وهذا هو المتبادر، ويدل عليه ظاهر قوله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}، ومن أهل العلم من يقول: كل واحد من هذه المعاني يوجد ما يشهد له وهو معنىً صحيح تحتمله الآية فتحمل على المعنيين، وهذا الذي ذهب إليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول: {لّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ} هذه قراءة ابن كثير وحفص، وقرأ الباقون "كما تقولون"، يعني: أيها المشركون.

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: "{قُل لّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً} فقيل: لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة، والقهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: {وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} قال شيخنا -رضي الله عنه-: والصحيح أن المعنى لابتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وطاعته، فكيف تعبدونهم من دونه وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له؟، قال: ويدل على هذا وجوه: منها قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} أي: هؤلاء الذين يعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي ترجون رحمتي وتخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟. الثاني: أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلاً، بل قال: {لاّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً} وهذا اللفظ إنما يستعمل في القرب كقوله تعالى: {اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ}[سورة المائدة:٣٥]، وأما في المغالبة فإنه يستعمل بعلى كقوله: {فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً}[سورة النساء:٣٤]، الثالث: إنهم لم يقولوا: إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه، وهو سبحانه قال: {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ} وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه فقال: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له فلماذا تعبدون عبيده من دونه؟"[1].

وقال -رحمه الله تعالى-: "وكذلك قوله سبحانه مقرراً لبرهان التوحيد أحسن تقرير وأوجزه وأبلغه: {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً}، فإن الآلهة التي كانوا يثبتونها معه -سبحانه- كانوا يعترفون بأنها عبيده ومماليكه ومحتاجة إليه، فلو كانوا آلهة كما يقولون لعبدوه وتقربوا إليه وحده دون غيره، فكيف يعبدونهم من دونه؟ وقد أفصح سبحانه بهذا بعينه في قوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} [سورة الإسراء:٥٧] أي: هؤلاء الذين يعبدونهم من دوني هم عبيدي، كما أنتم عبيدي، يرجون رحمتي ويخافون عذابي، كما ترجون أنتم رحمتي وتخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟[2].

{تُسَبّحُ لَهُ السّمَاوَاتُ السّبْعُ وَالأرْضُ وَمَن فِيهِنّ وَإِن مّن شَيْءٍ إِلاّ يُسَبّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً}[سورة الإسراء:٤٤].

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته:

ففي كل شيءٍ له آيةٌ * تدل على أنه واحد**

كما قال تعالى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً}[سورة مريم:٩٠-٩١].

هذا البيت:

---

١ - بدائع التفسير (٢/١٣٧-١٣٨)، وانظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، للإمام ابن القيم (١٤٤).

٢ - انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم (٢/٤٦٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ففي كل شيء له آية *** تدل على أنه واحد

هذا البيت يورده من يقول بأن التسبيح بلسان الحال، فهي شاهدة على وحدانيته وربوبيته وإلهيته -سبحانه وتعالى-، والتسبيح على ظاهره، وجاء بلفظة "مَن" التي عادة تستعمل فيما من شأنه أن يُوصف بالعلم، وعموم الظاهر في الآية مع قوله: {وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} يدل على أن كل شيء يسبح، كما في الآيات الأخرى {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} [سورة الحديد:١]، {يُسَبِّحُ لِلَّهِ} [سورة الجمعة:١]، فكل ما في هذا الكون يسبح من العقلاء وغير العقلاء، ولا يُخص ذلك بما له نفس وروح، حتى النبات والأحجار لحديث حنين الجذع[٣]، وكذلك ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن))[٤]، وتسبيح الحصى، إلى غير ذلك.

وقوله: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله، {وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[٥].

وروى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: ((اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكراً لله منه))[٦].

وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- قال: نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن قتل الضفدع[٧].

نهى عن قتلها لأن نقيقها تسبيح.

وقوله: {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} أي: إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله ويُنظره فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)) ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ}[سورة

---

٣ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٣٩٠).

٤ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، برقم (٢٢٧٧).

٥ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٣٨٦).

٦ - رواه أحمد في المسند (٣٩٢/٢٤)، برقم (١٥٦٢٩)، وقال محققوه: حديث حسن.

٧ - رواه الإمام أحمد في المسند (٣٦/٢٥)، برقم (١٥٧٥٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح، والطبراني في المعجم الكبير، (١٠٤/٤) برقم (٣٧١٦)، ورواه أبو داود عن عبد الرحمن بن عثمان -رضي الله عنه-: "أن طبيباً سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ضفدع يجعلها في دواء فنهاه النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتلها"، كتاب الأدب، باب في قتل الضفدع، برقم (٥٢٦٩)، ورواه النسائي بلفظ أبي داود، كتاب الصيد والذبائح، باب الضفدع، برقم (٤٣٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٩٧١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هود:١٠٢] الآية[٨]. وقال تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ}[سورة الحج:٤٨] الآية، وقال: {فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ}[سورة الحج:٤٥] الآيتين.

ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه تاب عليه، كما قال تعالى: {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ}[سورة النساء:١١٠] الآية، وقال ههنا: {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}، كما قال في آخر فاطر: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [سورة فاطر:٤١]، إلى أن قال: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ...}[سورة فاطر:٤٥] إلى آخر السورة.

---

٨ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ}، برقم (٤٤٠٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٨٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مّسْتُوراً * وَجَعَلْنَا عَلَىَ قُلُوبِهِمْ أَكِنّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيَ آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلّوْاْ عَلَىَ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً}[سورة الإسراء:٤٥-٤٦].

يقول تعالى لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: {وَإِذَا قَرَأْتَ} يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً، قال قتادة وابن زيد: هو الأكنّة على قلوبهم، كما قال تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} [سورة فصلت:٥] أي: مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء، وقوله: {حِجَاباً مّسْتُوراً} بمعنى ساتر، كميمون ومشئوم بمعنى يامن وشائم؛ لأنه من يمنهم وشأمهم، وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير -رحمه الله-.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله تعالى عنها- قالت: لما نزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [سورة المسد:١]، جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة وفي يدها فِهر وهي تقول: مذمَّماً أتينا - أو أبينا - قال أبو موسى: الشك مني، ودينَه قلينا، وأمرَه عصينا، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- جالس وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر -رضي الله عنه-: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: ((إنها لن تراني))، وقرأ قرآناً اعتصم به منها، {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مّسْتُوراً} قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني، قال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاك، قال: فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أني بنت سيدها[1].

وقوله: {وَجَعَلْنَا عَلَىَ قُلُوبِهِمْ أَكِنّةً} وهي جمع كنان الذي يغشى القلب، {أَن يَفْقَهُوهُ} أي: لئلا يفهموا القرآن، {وَفِيَ آذَانِهِمْ وَقْراً} وهو الثقل الذي منعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به، وقوله تعالى: {وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ} أي: إذا وحدت الله في تلاوتك، وقلت: لا إله إلا الله، {وَلّوْاْ} أي: أدبروا راجعين، {عَلَىَ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً} ونُفور جمع نافر، كقُعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} [سورة الزمر:٤٥] الآية، قال قتادة في قوله: {وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبّكَ فِي الْقُرْآنِ} الآية، إن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم، وضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يُمضيها ويعليها

١- رواه الحاكم في المستدرك برقم (٣٣٧٦)، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وابن حبان في صحيحه برقم (٦٥١١)، وقال الأرنؤوط في تحقيقه: صحيح بشواهده، وأبو يعلى في مسنده برقم (٥٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وينصرها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمةٌ من خاصم بها فُلج، ومن قاتل بها نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين التي يقطعها الراكب في ليال قلائل، ويسير الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مّسْتُوراً}، يقول: "**قال قتادة وابن زيد: هو الأكنة على قلوبهم**"، وفسره بالآية: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} أي: مانع، حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء.

قال: "**وقوله**: {حِجَاباً مّسْتُوراً} **بمعنى ساتر**"، ما كان على وزن مفعول قد يأتي بمعنى اسم الفاعل، فيكون عبّر باسم المفعول وأراد اسم الفاعل، وهذا كثير في القرآن وفي لغة العرب، وقد يقع عكسه، يعبر باسم الفاعل ويراد اسم المفعول كما يقال: عيشة راضية، يعني عيشة مرضية، كقوله: {خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ} [سورة الطارق:٦] دافق على وزن فاعل، يعني مدفوق، وإذا فسر الحجاب بأنه الأكنة التي على القلوب {حِجَاباً مّسْتُوراً} فيمكن أن يكون بمعنى اسم الفاعل، يعني ساتراً يحول بينهم، بين قلوبهم وبين الانتفاع والتأثر بالقرآن، ويصح أيضاً أن يراد به اسم المفعول، بمعنى أن هذا الحاجز الذي يحول بينهم وبين الانتفاع بالقرآن والتأثر به لا يرونه، ولا يشاهدونه، يقول: "**وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى**"، كل هذا يجري على تفسيره بالأكنة، يمكن أن يكون ساتر بمعنى فاعل، ويمكن أن يكون بمعنى مفعول، ومع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير وابن القيم -رحم الله الجميع-.

وهذه الرواية التي ساقها عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله تعالى عنها- قالت: لما نزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة وبيدها فِهر، فِهر يعني: حجر، وهي تقل: مذمماً أتينا أو أبينا، قال أبو موسى: الشك مني، وأبو موسى هو إسحاق بن إبراهيم الهروي شيخ أبي يعلى، يقول: الشك مني، يعني هل قالت: أبينا أو أتينا، الشاهد أن هذه الرواية إن صحت فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ من القرآن فلم تره هذه، فيكون قوله: {حِجَاباً مّسْتُوراً} على هذا المعنى أي: ساتراً بينه وبينهم فلا يرونه، وهذا غير المعنى الأول، فالمعنى الأول: حائل بينهم وبين الهدى، ولا يصل إليهم الموعظة ولا التذكير ولا ينتفعون بالقرآن، فقلوبهم في أكنة، وفي آذانهم وقر، والمعنى الثاني يختلف عن الأول، أي يكون ساتراً لأبدانهم فلا يرونه أصلاً، وهذا المعنى رجحه القرطبي وذكر أمراً وقع له في ذلك، وهو أنه كان في بلاد العدو، فتبعه فارسان، وكان في أرض مكشوفة، أرض فلاة، فتبعوه، فجعل يقرأ بعض الآيات من سورة يس، كقوله: {وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} [سورة يس:٩]، فجاءوا ومروا من عنده وهم يبحثون عنه، ولم يروه، فجعل أحدهم يقول لصاحبه: هذا دبيلة، يعني شيطان، وهذا المعنى -والله تعالى أعلم- لا ينافي المعنى الأول، فالمعنى الأول دلت عليه آيات من القرآن، وهذه الآيات فيها قرينة تدل عليه، قال الله تعالى بعده: {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا}، فالشاهد أن هذه الآية وآيات أخرى في معناها في القرآن تدل على أن الله -عز وجل- جعل حائلاً وحاجزاً بين قلوب هؤلاء الكفار المصرِّين على كفرهم، وبين الهدى والقرآن والانتفاع به، وهذا المعنى اختاره كبير المفسرين ابن جرير، والحافظ ابن القيم، وجمع من أهل العلم كثير، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، فهو معنىً دل عليه القرآن، المعنى الثاني: أن يكون الحاجز دون أبصارهم فلا يرون شخصه، وهذه الرواية إن صحت تدل عليه، ولكنها لا تعني أن ذلك هو التفسير لهذا الآية فحسب، وإنما هو أمر عملي فعله النبي -صلى الله عليه وسلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد يفعل ذلك أخذاً من معناها الأعم، كما ذكرنا في مناسبات شتى، لما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- لعلي وفاطمة وهما نائمان، فقال: ((ألا تصليان؟)) فقال علي -رضي الله عنه-: إن أرواحنا بيد الله متى شاء أن يبعثنا بعثنا، أو كما قال، فرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- كالمغضَب وهو يلطخ فخذه ويقول: ((وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً))[٢]، هذه الآية في الكفار، في مجادلتهم بالوحي، ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أعلم الناس بالقرآن، ومعاني القرآن، وفيما نزل في القرآن، أوردها في هذا الموضع، وهكذا في {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [سورة الأنبياء:١٠٤] لما قرأها النبي -صلى الله عليه وسلم-، لما قال: ((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً))، ثم قرأ الآية[٣]، مع أن الآية في الأصل واردة في تقرير البعث، والاحتجاج بالنشأة الأولى على النشأة الثانية، فأوردها النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الموضع، ولما اختصم الخدري والعوفي في أي المسجدين بني على التقوى {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ} [سورة التوبة:١٠٨]، فالخدري يقول: مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، والعوفي يقول: مسجد قباء، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((هو مسجدي هذا))[٤]، مع أن سياق الآية في مسجد قباء، ولا ينفي عن مسجد قباء هذه الصفة، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- نزلها على الأحق بذلك، ولا شك أن مسجده -صلى الله عليه وسلم- أحق بهذا من مسجد قباء، فالآية قد تكون وردت في معنى، ويؤخذ من معناها الأعم أو من لفظها العام، معنىً آخر، وذلك أشبه ما يكون بالرُّقية، يعني استعمال الآية في مثل هذا المقام، يشبه العمل بالرقى، ففي آيات الرقية مثلاً لم يرد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيها شيء أصلاً، باستعمالها في هذا العلاج، شيخ الإسلام يرى أنه إذا كتب على جبين المرعوف {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ} [سورة هود:٤٤]، تكتب بقلم على جبين المرعوف فيتوقف الرعاف، هذه لم ترد عن النبي

---

٢ - رواه البخاري، كتاب التهجد، باب تحريض النبي -صلى الله عليه وسلم- على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، برقم (١٠٧٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، برقم (٧٧٥).

٣ - رواه البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: خطب النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [سورة الأنبياء:١٠٤]...الخ"، كتاب التفسير، باب {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}، برقم (٤٤٦٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٦٠).

٤ - رواه النسائي، كتاب المساجد، باب ذكر المسجد الذي أسس على التقوى، برقم (٦٩٧)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣٠٩٩)، وأحمد في المسند (٣٥٩/١٨)، برقم (١١٨٤٦)، وقال محققوه: حديث صحيح، وقال الألباني: صحيح لغيره في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١١٧٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

-صلى الله عليه وسلم-، والأصل في الرقى أنها من باب الطب، والأصل في الطب الإباحة ما لم يشتمل على محظور، مع أن الآية لا علاقة لها بالرعاف، ويمكن أن تأتي بالآيات التي فيها الإجراء والإسالة فيمن أصيب بجلطة فتقرأ عنده مثلاً، وكما قال ابن القيم -رحمه الله- في الآيات التي يقرؤها من يشعر بشيء من الخوف والاضطراب والارتباك ونحو هذا يقرأ آيات السكينة، فيجد لهذا أثراً عجيباً، فمثل هذه الآية إذا قرأها الإنسان وقصد بذلك أن لا يراه عدوه فيمكن أن يقع هذا، ويعميهم الله -عز وجل-، يعمي أبصارهم عنه، {وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ}، ويمر من بين أيديهم ولا يرونه، يمكن أن يقع هذا ولا يَبْعد، ولا يلزم أن يكون هذا هو معنى الآية الأصلي، -والله تعالى أعلم-.

ويقول: وقوله: {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً} وهي جمع كنان الذي يغشى القلب ويغطيه، الأكنة بمعنى الأغطية، الشيء الذي يغطي، تقول: أكنّه من المطر، ومن الشمس، بمعنى غطاه وستره.

قال: {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}، والوقر هو الثقل والصمم الذي يكون في الآذان، فهم لا يسمعون القرآن سماع انتفاع وتأثر، وإن كان يطرق أسماعهم لكن لا يفقهون ما سمعوا.

{نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمْثَالَ فَضَلّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً}[سورة الإسراء:٤٧-٤٨].

يخبر تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- بما يتناجى به رؤساء قريش حين جاءوا يستمعون قراءته -صلى الله عليه وسلم- سراً من قومهم بما قالوا من أنه رجل مسحور من السِّحْر على المشهور، أو من السَّحْر وهو الرئة، أي إن تتبعون -إن اتبعتم محمداً- إلا بشراً يأكل، وفيه نظر؛ لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور، له رئيٌ يأتيه.

بالكسر والفتح رَئِيٌّ ورِئِيٌّ.

بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ومنهم من قال: شاعر، ومنهم من قال: كاهن، ومنهم من قال: مجنون، ومنهم من قال: ساحر؛ ولهذا قال تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمْثَالَ فَضَلّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً} أي: فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصاً، قال محمد بن إسحاق في السيرة: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. قال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

قوله: {نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا} هذه الرواية -وهي سماع هؤلاء الثلاثة- التي أوردها المؤلف -رحمه الله- تفسيراً لهذه الآية {نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ}، لا تصح فهي من مراسيل الزهري، وهو من صغار التابعين، وقوله -تبارك وتعالى-: {نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ} يمكن أن تكون الباء للملابسة، أي يستمعون إليك متلبسين به، من الاستخفاف بك وبالقرآن، فيستمعون وهم بهذه المثابة، وهم متلبسون بهذه الصفة، استماع مستهزئ ومستخفٍّ، لا استماع معظم ومنتفع، وبعضهم يقول: إن الباء هذه {يَسْتَمِعُونَ بِهِ} زائدة، ويقصدون بذلك من ناحية الإعراب، لا من ناحية المعنى، وإن كان لا يحسن ولا يليق أن يعبر عن شيء مما في القرآن بالزيادة، ولذلك يسمي بعضهم مثل هذا: صلة، تأدباً في العبارة، والمعنى واحد، يقول: {إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا}، يقول: "**من السِّحْر على المشهور**"، وهذا هو الظاهر المتبادر، رجل مسحور، أي أنه قد ابتلي بالسحر، فصار يخلط في نظرهم، وما يصدر عنه إنما هو من جراء هذا السحر، ومعلوم أن المسحور لا يصدر عنه الأفعال المرضية، والتصرفات السوية، وكيف يأتي على يده هذا القرآن المعجز، فهذا السحر على هذا الحال أورثه أعظم الكمالات، يقول: "**أو من السَّحْر وهو الرئة**"، فكل من له سَحر فهو مخلوق، ومحمد -صلى الله عليه وسلم- يأكل ويشرب ويتنفس، ويقال: انتفخ سحره، يعني رئته، تعبيراً عن الخوف، فمعنى ذلك أنكم تتبعون بشراً وهم في تصورهم أن النبي لا يكون بشراً، فقالوا: {أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء:٩٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهذا المعنى بعيد، وهو خلاف الظاهر المتبادر، فهذا يقال على سبيل التورية والتلبيس على السامع والإلغاز، والقرآن لا يكون بهذه المثابة، يعني قد تقول لسبب أو لآخر عن شخص: فلان مسحور لتعتذر له وأنت تقصد أن له سَحر، يعني رئة، يعني قد يتصرف تصرفا خاطئا، فتعتذر عنه، أو تعتذر له، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**وفيه نظر؛ لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور، له رَئِيٌّ**"، أو رِئِيٌّ من الجن، المقصود: أن يكون له تابع من الجن، وهذا التابع من الجن لربما يبدي له بعض الأشياء مما لا يراها الناس فيراها هو، أو يُسمعه بعض الأشياء التي لا يسمعها الآخرون، أو يوقع في نفسه أشياء في أمور تحصل فيشعر بها، فيقول: فلان معه كذا، أو فلان مات، أو فلان الآن مسافر، أو فلان الآن مريض، أو نحو هذا، ويكون كما قال، لا يدري كيف جاءت، وقعت في نفسه هذه الأمور، وقد يجري ذلك على لسانه، إما في بعض قضايا العلم فيتكلم بأشياء كأنها عن ظهر قلب، كلام أهل العلم، وهو لم يقرأها، أو يكون هذا أحياناً يجري على لسانه في أمور تلبس على الناس وتضللهم بشبهات أكبر منه، وليس هو بهذا المستوى، هو أصلاً، تجري على لسانه، وقد يحصل له ذلك في باب التعبير، التفسير للرؤى أحياناً، فيجري على لسانه التعبير، وهو لا يعرف كيف فسرها، فيكون هذا بسبب القرين أو بسبب هذا الرَّئِيِّ من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجن، وكثير من الناس قد لا يشعر بهذا أصلاً، ولربما يحصل له إذا استرسل معه وتابعه وتفطن له واستجاب، يحصل له بسببه فتنة، أو يفتن غيره بذلك، لأنه يخبرهم عن أشياء، ففي باب الرقية مثلاً يقول: فلان مسحور وسَحَره فلان، والسحر في المكان الفلاني، والسحر مؤثر فيه في الشيء الفلاني، يوجد فيه كذا ويوجد فيه كذا، في جسده، وأشياء غريبة أشبه بالخيالات، ثم تتبدى الأمور وتتكشف على أن ما قاله صحيح أحياناً، وهو إما أنه يستعين بالشياطين مباشرة، أو أنه جري ذلك على لسانه ويكون له تابع من الجن، وهذه أمور موجودة وواقعة، وكما قيل في عمرو بن لحي الخزاعي، كان له رَئِيٌّ من الجن، فجاءه فقال له: اذهب إلى ساحل جدة، تجد أصناماً معدة، إلى آخر ما قال، فذهب هناك فاستخرجها من ساحل جدة، وكانت منطمرة مدفونة، من بعد الطوفان، فأخرجها وعبدتها العرب – وهي ود ويغوث وسواع-، وعادت الأصنام التي عبدها قوم نوح بأسمائها وأعيانها إلى العرب، هكذا قيل، فالله تعالى أعلم.

وقوله سبحانه: {انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً}، أي: لا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى، فلا يصلون إليه؛ لمَا وُجد على قلوبهم من الأكنة -الأغطية-، وفي آذانهم من الوقر، قالوا: {وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} فهذا لا يصلون معه إلى الهدى بحال من الأحوال، ويحتمل أن يكون قوله: {فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً}، أي: سبيلاً إلى الطعن فيه، وإنما يقولون هذه المقالات الباطلة التي لا يصدقها عاقل، كيف يكون مسحوراً ويأتي بهذا القرآن؟!، المسحور يخلط، وقريب من هذا أيضاً قول من قال: {فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً} لا يستطيعون سبيلاً: أي لا يهتدون إلى شيء يقولونه يقبله السامع، فالأشياء التي يقولونها: شاعر، كاهن، ساحر، أو مسحور، كل هذا مما لا يقبله السامع؛ لأن من عرف أوصافه -صلى الله عليه وسلم- عرف أنه أبعد ما يكون عن هذه الأمور، {فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً}، فلم يهتدوا إلى شيء يقولونه فيه تقبله العقول، أو لا يستطيعون سبيلاً إلى إبطاله والقدح فيه، وقد تناقضت أقوالهم، ولو قيل: {فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً} أي: مخرجاً مما وقعوا فيه من التناقض في أقوالهم عنه، تارة يقولون: ساحر، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: شاعر، {فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً}.

{وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة الإسراء:٤٩-٥٢].

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: {وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا} أي: تراباً، قاله مجاهد، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: غباراً، {أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً} أي: يوم القيامة بعدما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر، كما أخبر عنهم في الموضع الآخر {يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} [سورة النازعات:١٠-١٢]، وقوله تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ} [سورة يس:٧٨] الآيتين، فأمر الله سبحانه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يجيبهم فقال: {قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً} إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات {أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ} قال ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك، فقال: هو الموت، وروى عطية عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنه قال في تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم، وكذا قال سعيد بن جبير وأبو صالح والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم، ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده.

وقال مجاهد: {أَوْ خَلْقاً مِّمّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ} يعني: السماء والأرض والجبال، وفي رواية: ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم.

وقوله تعالى: {فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا} أي: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً، {قُلِ الّذِي فَطَرَكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ} أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال، {وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} الآية، وقوله تعالى: {فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة: يحركونها استهزاء، وهذا الذي قالاه هو الذي تعرفه العرب من لغاتها؛ لأن الإنغاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظليم -وهو ولد النعامة- نغضاً؛ لأنه إذا مشى عجّل بمشيته وحرك رأسه، ويقال: نَغضَتْ سنُّه، إذا تحركتْ وارتفعت من منبتها.

وقوله: {وَيَقُولُونَ مَتَىَ هُوَ} إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[سورة يونس:٤٨]، وقال تعالى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا} [سورة الشورى:١٨]، وقوله: {قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً} أي: احذروا ذلك، فإنه قريب سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت، وقوله تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ} أي: الرب -تبارك وتعالى-، {إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} [سورة الروم:٢٥] أي إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخالَف ولا يمانع، بل كما قال تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [سورة القمر:٥٠]، {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [سورة النحل:٤٠]، وقوله: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [سورة النازعات:١٣-١٤] أي: إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ} أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته.

وقوله تعالى: {وَتَظُنُّونَ} أي: يوم تقومون من قبوركم {إِنْ لَبِثْتُمْ} أي: في الدار الدنيا {إِلَّا قَلِيلاً}، وكقوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [سورة النازعات:٤٦]، وقال تعالى: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً} [سورة طه:١٠٢-١٠٤]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} [سورة الروم:٥٥]، وقال تعالى: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة المؤمنون:١١٢-١١٤].

قوله: {وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا} "أي: **التراب، قاله مجاهد**"، واختاره ابن جرير، والرفات: هو ما تفتت وتهشم وتكسر وترضض من كل شيء، يقال هذا للشيء المتفتت، يقال: رفات فلان، يعني ما تحلل من جسده ومن جثته بعدما بلي، وتحول إلى تراب أو نحوه، وتفسير من فسره بالغبار ليس بعيداً عن هذا؛ لأن المقصود

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هو الشيء المتفتت، {وَرُفَاتًا} فيصدق هذا على التراب، ويصدق هذا على الغبار، والجامع المشترك في هذا كله هو الشيء المتفتت، إذا صارت الأجساد هذه متحللة تحولت إلى تراب، فالذي فسره بالتراب: هذا معنىً له في كلام العرب، وأخذ ذلك لربما من كون الأجساد تتحول إلى تراب، ومن الآيات الأخرى، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، فيكون هذا من قبيل تفسير لفظة بلفظة، ففي الآيات الأخرى ورد ذكر التراب في بعضها، يقول الله -عز وجل-: {وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا} [سورة المؤمنون:٨٢]، فيمكن تفسير الرفات بالتراب، تفسير لفظة بلفظة، مثل {تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ} [سورة الفيل:٤]، أو في غير هذا الموضع في قصة أصحاب الفيل، لكن يصلح أن يفسر به، و{مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ} [سورة هود:٨٢-٨٣]، قصة قوم لوط، في الموضع الآخر {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ} [سورة الذاريات:٣٣]، هنا تفسير لفظة بلفظة، فالسجيل هو الطين، والرفات هو التراب، وأصل هذه المادة -كما سبق- الشيء المتفتت.

وقول الله عن الكفار إنهم قالوا: {أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} إلى آخره، ثم رد الله -عز وجل- عليهم فقال: {قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا} قال: "**إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات**"، فهم يقولون: إن مَن تحول إلى تراب فلا يمكن إعادته مرة أخرى، فالله يرد عليهم ويقول: {قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا} بمعنى: كونوا ما هو أقوى الأشياء في نظركم كالأحجار التي هي في غاية الصلابة والشدة، أو الحديد الذي هو أعظم من ذلك وأصلب، فإن الله قادر على إعادتكم، لا يمتنع عليه شيء -سبحانه وتعالى-، ثم نقلَهم إلى شيء أكبر من هذا وأبهمه، قال: {أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ} بعضهم فسر هذا بالموت، وبعضهم فسره بالسماوات والأرض والجبال، والأقرب وهو ما قاله ابن جرير: إن ذلك لا يحد بهذا ولا هذا، وإنما الله -عز وجل- أبهم ذلك ليذهب فيه الذهن كل مذهب، ما هو الذي يكون بهذه المثابة خلقاً؟، ليكن أعظم من ذلك مما يخطر في البال، الله قادر على الإعادة، وإذا كان الإنسان بحال أعظم فيها شدة من الحديد والأحجار، كان جبلاً أو كان أرضاً أو غير ذلك، فإن الله قادر على إعادته مرة أخرى مهما كان، لا يمتنع عليه الشيء، هذا هو المعنى، -والله تعالى أعلم-، هذا من باب الرد عليهم، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم في تفسيرها، وهناك وجه آخر تحتمله الآية، ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، لكن لم يذكره تحديداً على سبيل الترجيح والاختيار، لكن ذكره مع المعنى السابق: أن الآية قد تدل على المعنيين وهو أنه يقول لهم: {قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ} إذا كنتم تزعمون أنه ليس هناك مدبر، ولا مصرف، يعيدكم ويبعثكم ويحاسبكم، فلماذا لم تكونوا -إذا كان الأمر كذلك- خلقاً آخر غير هذا الذي يقبل الموت والتحلل والبِلى والتحول إلى تراب، لماذا لم تختاروا لأنفسكم حالاً أخرى، وخلقاً أشد وأقوى من الحجارة، أو من الحديد، ما دام الأمر بهذه المثابة؟، لكن هذا المعنى -والله تعالى أعلم- فيه بعد؛ لأن هؤلاء لا ينفون أن الله -عز وجل- هو المدبر والخالق، الذي خلقهم وأوجدهم، هم لم يزعموا أنهم أوجدوا أنفسهم، ولم يكن هؤلاء في يوم من دهرهم من القائلين بالطبيعة مثلاً، وأنه لا خالق، أبداً، {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [سورة لقمان:٢٥]، والمعنى المتوجه هو المعنى الأول وهو الذي عليه عامة المفسرين، -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ} يعني: يحركونها إنكاراً واستبعاداً واستهزاءً، يعني هيهات، يقول: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً} يقول: أي تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعني تستجيبون بحمده كما قال ابن جرير: أي بقدرته ودعائه إياكم: ولله الحمد، كما تقول: فعلت ذلك بحمد الله، يقول: {وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً}، {إِن لَّبِثْتُمْ} قال: أي في دار الدنيا، وهذا هو الأقرب، وهو الذي رجحه أيضاً ابن جرير، ويدل عليه قوله تعالى: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ} [سورة المؤمنون:١١٢-١١٣]، وقال بعض أهل العلم: المقصود مدة المكث في القبور، وبعضهم يقول: بين النفختين وهذا أبعد الأقوال، والأقرب -والله أعلم- {وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً} أي: في الدنيا، يقول: "**أي في دار الدنيا، {إِلاَّ قَلِيلاً}، كقوله: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}**".

{وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا} [سورة الإسراء:٥٣].

يأمر -تبارك وتعالى- عبده ورسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ في يده، أي فربما أصابه بها.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار))[٥] أخرجاه من حديث عبد الرزاق.

قوله: {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} يقول: "**يأمر -تبارك وتعالى- عبده ورسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم**"، يقال: نزغ ونغز، والنزغ يأتي بمعنى النخس حسّاً، ومن جهة المعنى يأتي بمعنى التحريك والتحريش والإفساد والإغراء، فكل ذلك مما يتضمنه معنى النزغ، تقول: نزغه الشيطان. بمعنى حركه، أو أغراه، أو نزغ بينهم الشيطان إذا أفسد، فالشيطان يغري النفوس ويحركها، ويستثيرها من أجل مواقعة ما لا يليق من الأقوال والفعال، فالله -تبارك وتعالى- يُعلم عباده المؤمنين عداوة عدوهم إبليس، ويبيّن لهم فعله السيئ بالإفساد بينهم، {إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ} فإنّ: هنا تشعر بالتعليل؛ أي لأن الشيطان ينزغ بينهم، والسبيل إلى سد هذا الطريق قبل الوقوع، وإلى استدراكه بعد الوقوع: أما قبل الوقوع فالله -عز وجل- بينه في هذا الآية، {يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، ما قال: يقولوا الحسن، وإنما يقول: {الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، فإذا أراد أن يتكلم الإنسان يتخير أحسن العبارات بما لا يؤذي السامع، ولا يجرح مشاعر الآخرين، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، إذا أراد أن ينصح أحداً من الناس فإنه يتخير الكلمة الطيبة، التي هي

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((من حمل علينا السلاح فليس منا))، برقم (٦٦٦١)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم، برقم (٢٦١٧)، وأحمد في المسند بلفظ: ((لا يمشين أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من نار)) (٥٢٧/١٣)، برقم (٨٢١٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأحسن، وإذا تردد بين كلمتين وحركته نوازع الغضب فإنه يتخير الكلمة التي لا غضاضة فيها ولا عيب؛ لأن الشيطان يغري النفوس، ولو كان الإنسان مازحاً، فإنه لا يسترسل فيقع في المحظور، ويتكلم بالكلام الذي لا يليق، فكما قيل: زلة اللسان أعظم من زلة القدم؛ لأن الإنسان إذا زل بقدمه قد تنكسر رجله، ولكنه إذا زل باللسان فقد تذهب دنياه وآخرته، وبعد الوقوع: كما قال الله -عز وجل-: **{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}** [سورة فصلت:٣٤]، وقوله: **{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ}** [سورة المؤمنون:٩٦-٩٨]، إلى آخر الآيات التي علمنا الله -عز وجل- فيها كيف نتخلص من شره وإفساده وتزيينه وتسويله، يقول: "**فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم**".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [سورة الإسراء: (٥٤-٥٥)].

يقول تعالى: {رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ} أيها الناس، أي: أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق {إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ} بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه، {أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ}: يا محمد {عَلَيْهِمْ وَكِيلاً}: أي إنما أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله: {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}: أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية، {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ} وكما قال تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} [سورة البقرة: (٢٥٣)]، وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تفضلوا بين الأنبياء))؛ فإن المراد من ذاك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن، في سورة الأحزاب: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} [سورة الأحزاب: (٧)] وفي الشورى قوله: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}[سورة الشورى: (١٣)] ولا خلاف أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى -عليهم السلام- على المشهور، وقد بسطناه بدلائله في غير هذا الموضع، والله الموفق.

وقوله تعالى: {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} تنبيه على فضله وشرفه.

روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((خُفف على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فكان يقرؤه قبل أن يفرغ)): يعني القرآن[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

[1] - صحيح البخاري: (٤/(١٧٤٧) باب {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}: برقم: (٤٤٣٦)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقوله -تبارك وتعالى-: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ} يقول: **أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق**، {إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ} **بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه**، يمكن أن يكون المعنى -والله تعالى أعلم- أعم من هذا، أي أعلم بمن يستحق الهداية ومن لا يستحق، وهو أيضاً أعلم بهم من جهة أعمالهم وصلاحهم، وجناياتهم، وطاعاتهم، {إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ} على هذه الأعمال والجنايات والمقارفات التي لا يرضاها، أو إن يشأ يرحمكم، ويغفر لكم ما بدر منكم من الزلل والنقص والتقصير في حقه -تبارك وتعالى-، فلا يخفى عليه من أحوالكم خافية، فأنتم تحت مشيئته وقدرته، لا تخرجون عن ذلك في قليل ولا كثير، فالمعنى -والله تعالى أعلم- لا يختص بالهداية والغواية، وإنما يشمل هذا وغيره، ويقول: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ}، وهذا مما يُشعر بالمعنى الذي ذكرته آنفاً، فالله أعلم بأحوال الخلق من كل وجه، وقد فاضل بينهم، فاختار أهل الإيمان على سائر الناس، واختار من أهل الإيمان الأنبياءَ -عليهم الصلاة والسلام-، واختار من الأنبياء محمداً -صلى الله عليه وسلم-، فهو أفضلهم وأعظمهم قدراً عند الله -تبارك وتعالى-، وهذا عن علم منه -تبارك وتعالى- بخلقه، يقول: **وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين ((لا تفضلوا بين الأنبياء))، فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية**، وهذا هو التوجيه المعتبر في مثل هذا الحديث، فإنه لما حلف رجل من اليهود قال: والذي فضل موسى، أو كلمة نحوها، لطمه رجل من المسلمين، وقال: تقول هذا ومحمد -صلى الله عليه وسلم- بين أظهرنا؟!، فالرجل جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يشكو إليه، فنهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن التفضيل بين الأنبياء، وتوجيه النهي فيما إذا كان على سبيل العصبية، أو أن يكون التفضيل مشعراً بشيء من الانتقاص والحط من مرتبة أحد من أنبياء الله -عز وجل-، وهذا كما يقال أيضاً في توجيه القراءات الثابتة: إنه لا يجوز الترجيح بين القراءات والمفاضلة بينها بحيث يكون ذلك على وجه يشعر بانتقاص القراءة الأخرى، أما أن يكون ذلك على سبيل الاختيار فهذا لا إشكال فيه، كأن يقال: هذه القراءة مثلاً أوسع في المعنى، أو أنها أكثر ملاءمة للسياق، أو أدل على المقصود، أو نحو هذا من العبارات، كأن تقول مثلاً: قراءة {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة: (٤)] فيها من المعنى ما ليس في قراءة {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة: (٤)] لكن لا بأسلوب يشعر بالحط من القراءة الأخرى، الشاهد أنه هكذا التفضيل، وإلا فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أنا سيد ولد آدم))[٢]، وجاء عنه أحاديث صحيحة في هذا المعنى، تدل على أنه أشرف الأنبياء، والجمع هو ما ذكر من أن النهي وارد بخصوص ما إذا كان ذلك على سبيل العصبية أو القدح بأحد من الأنبياء، أو نحو هذا، وتجدون الكلام في مثل هذه المسألة في مثل شرح العقيدة الطحاوية، ويقول هنا: **وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن، في سورة الأحزاب**: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ}[سورة الأحزاب: (٧)] **وفي الشورى قوله**: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ} [**سورة الشورى**: (١٣)]، وليس في الآيتين ما هو مصرِّح بأن هؤلاء هم أولو العزم، إطلاقاً، فالآية الأولى في أخذ الميثاق، والآية الثانية فيما شرع من الدين {مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا} إلى آخره، وإنما جاء ذكر أولي العزم في آية أخرى، وهي قوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [سورة الأحقاف: (٣٥)] ولم يذكرهم، ولهذا

---

[٢] - صحيح مسلم: (١٧٨٢/٤) باب تفضيل نبينا -صلى الله عليه وسلم- على جميع الخلائق: برقم: (٢٢٧٨)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اختلف العلماء في أولي العزم، فبعضهم ذكر هؤلاء الخمسة، وبعضهم ذكر أكثر من هذا أو أقل، فليس هذا محل اتفاق، والذي أظنه أقرب -والله تعالى أعلم- أن أولي العزم لا يختصون بهؤلاء الخمسة، وليس عندنا دليل لا من الكتاب ولا من السنة على تحديد أولي العزم بهؤلاء الخمسة، فالله -عز وجل- أمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ولم يذكرهم، وأولو العزم هم أصحاب العزائم العظيمة، والصبر العظيم على أذى قومهم، وفي تبليغ ما أمرهم الله -عز وجل- ببلاغه، والتخصيص بهؤلاء الخمسة يحتاج إلى دليل، ولا شك أن هؤلاء الخمسة من أجلّ الأنبياء، ومن أفضل الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، لكن من أين لنا أن أولي العزم فقط هم هؤلاء، لا يشاركهم في ذلك الوصف أحد من الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؟، ما عندنا دليل، ففي الآيتين لم يذكر الله -عز وجل- شيئاً يتعلق بأولي العزم، -والله تعالى أعلم-.

قوله: {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}، ذكر الحديث ((خُفف على داود القرآن)) والمقصود به الزبور، ((فكان يأمر بدوابه فتسرج، فكان يقرؤه قبل أن يفرغ)) يعني القرآن، يعني أنه خفف عنه، يعني من الناس من يقرأ القراءة الكثيرة في الوقت اليسير، ومن الناس من يكون بحال أخرى عكس ذلك، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا مشاهد في قراءة الناس إلى اليوم، من الناس من قد يختم القرآن يوم الجمعة، يبدأ من بعد صلاة الفجر إلى أن يخرج الخطيب، ويختم، ومن الناس من يحتاج في القراءة وفي الختم إلى مدة طويلة، في صلاة التراويح مثلاً، من الناس من يقرأ قراءة لا تشق على الناس إطلاقاً، وفي آخر الشهر يختم، ومن الناس من يطيل أكثر ويقرأ، ولربما يأتي آخر الشهر وهو لم يجاوز المائدة، وهذا شيء مشاهد، فمن الناس من خفف عليه القرآن، ولذلك يوجد من المساجد -وهو أمر يتكرر في كل عام- من يختم في رمضان سبع ختمات وثمانٍ في صلاة الجماعة، ولا يجدون مشقة، ومن الناس من لا يستطيع أن يقرأ نصف القرآن في الشهر، هذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

طالب: كلامه -رعاك الله- مسلَّم لمّا قال: ولا خلاف أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- ثم إبراهيم ثم موسى؟

ثم بعده إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، -الله تعالى أعلم-، لكن إذا نظرت إلى مراتب الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في السماء، إدريس -عليه الصلاة والسلام- في السماء الرابعة، وعيسى -صلى الله عليه وسلم- في الثانية، فإذا قلنا: إن هذا دليل على المفاضلة، فيمكن أن يفهم منه أن إدريس -عليه الصلاة والسلام- أفضل من عيسى -صلى الله عليه وسلم-، قد يقال، ولكن الله تعالى أعلم، ولا شك أن هؤلاء الأنبياء من أفضل الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام-، والله -عز وجل- يقول: {وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ} [سورة النساء: (١٦٤)].

{قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}. [سورة الإسراء: (٥٧)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول تعالى: {قُلِ} يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: {ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ} من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم، {لاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ}: أي بالكلية، {وَلاَ تَحْوِيلاً}: أي بأن يحولوه إلى غيركم، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر. قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم} الآية، قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون -يعني الملائكة والمسيح وعزيراً.

وقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ} الآية، روى البخاري من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ} قال: ناس من الجن كانوا يُعبدون فأسلموا، وفي رواية: قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم.

وقوله تعالى: {وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات. وقوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}: أي ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذاً بالله منه.

في قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}، يقول: روى البخاري من حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله -يعني ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: ناس من الجن كانوا يُعبدون فأسلموا، وفي رواية كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم، يعني الكفار، فهم لا زالوا يعبدونهم، وأولئك الجن يعبدون الله -عز وجل- ويتقربون إليه، فهذا يصدق على هؤلاء الجن الذين أسلموا، ويصدق أيضاً على من عبد عيسى -عليه الصلاة والسلام-، وعبد العزير، والذين عبدوا الملائكة، فتُخص الآية بمثل هذا ولا يقال في كل معبود؛ لأن من الناس من يعبد الشيطان، ومن الناس من يعبد أعداء الله -عز وجل-، ومن الناس من يعبد الأحجار، والآية تدل على معبودين بأعيانهم أو بنوعهم من بين سائر من عُبد من دون الله -تبارك وتعالى-، {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ}: يعني المدعوين، {يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ}، والوسيلة: هي التقرب إلى الله -عز وجل- بالطاعة والعبادة، هذه القربة يقال لها: وسيلة؛ لأنهم يتوسلون بها إلى مرضاة الله -تبارك وتعالى-، ونيل ما عنده من الثواب، {يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}، {يَبْتَغُونَ}: أي يطلبون، {أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}: أي إلى الله -تبارك وتعالى- بعمله الصالح، ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

{إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}: أي جدير بأن يُتقى؛ لشدته.

{وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}. [سورة الإسراء: (٥٨)].

هذا إخبار من الله -عز وجل- بأنه قد حتم وقضى بما عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم {عَذَابًا شَدِيدًا} إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ} [سورة هود: (١٠١)]، وقال تعالى: {فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا} [سورة الطلاق: (٩)] وقال: {وَكَأَيِّن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا} [سورة الطلاق: (٨)] الآيات.

في قوله: {وَإِن مَّن قَرْيَةٍ}: يعني وما من قرية، فـ"إن" هنا نافية، وقرية هنا نكرة في سياق النفي، وذلك للعموم، ما من قرية إلا وسيحصل لها هذا الإهلاك قبل يوم القيامة، أو العذاب الشديد، ويرِدُ على هذا سؤال إذا كان الأمر كما قد يفهم من ظاهر الآية، فكلام الحافظ ابن كثير هنا فيه شيء من الإجمال، لكن فيما ورد في بعض الآثار في معنى الآية: كل قرية سينزل الله -عز وجل- بها الإهلاك والاستئصال إما بالعذاب أو بأمر آخر، فهذا يرد عليه إشكال بالنسبة للعموم الذي في الآية، ولهذا قال بعضهم: إن هذا من باب حذف الصفة، {وَإِن مَّن قَرْيَةٍ} ظالمة، قالوا: توجد صفة محذوفة، وإنما يكون ذلك للقرى الظالمة، كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [سورة القصص: (٥٩)]، وخصه بعضهم بالقرى الكافرة، وهذا بمعنى الأول، قال: {وَإِن مَّن قَرْيَةٍ} هذا عام في اللفظ لكنه من العام المراد به الخصوص، ولا يراد به العموم، ولعل الأقرب -والله تعالى أعلم- أن يبقى ذلك على عمومه، ولا يُخص بقرى الكفار، ولا بالقرى الظالمة؛ فالله -عز وجل- يخبر أنه ما من أهل قرية -قرية: المقصود بها أهل القرية، فالقرية تطلق تارة على هذا وتارة على ما فيها من البنيان- إلا سيهلكون إما بموت، وإما بعذاب يستأصلهم، وهذه سنة الله -عز وجل- في الخلق {قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، فالناس لا يعمرون في هذه الحياة الدنيا ويخلدون، وإنما الموت حكم لازم واقع بهم لا محالة {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} [سورة الزمر: (٣٠)]، فلن يبقى أحد من الناس مخلداً في هذه الحياة، فالقرى تخلو من أهلها ويئول أمرها إلى الخراب -والمقصود بالقرى يشمل المدن- وتتلاشى، لكن الموت قد يأخذهم الواحد بعد الواحد، حتى يأتي على الجميع، فلو أن الناس في القرون الماضية ماتوا دفعة واحدة لانقطع نسلهم، ولكن أين الأجيال السابقة؟ مات الواحد بعد الواحد، ثم بعد ذلك لم يبق منهم أحد، فهكذا {وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، والله أعلم، وهذا القول هو الذي اختاره الزجَّاج، وهو واضح إن شاء الله، موافق للواقع ولسنة الله -عز وجل- في هذا الخلق.

فائدة في ذكر إيتاء داود الزبور بعد ذكر تفضيل الأنبياء:

المعلوم أن ذكر الخاص بعد العام يدل على شرفه تنويهاً به، فهذا فيه تشريف لداود -عليه الصلاة والسلام-، مثلما قال الله -عز وجل- لما ذكر الأمم المهلكة قال: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا} [سورة الإسراء: (٥٩)] لماذا ذكر ثمود من بين سائر الأمم؟ يمكن أن يقال: لقربها منهم، فهي بلاد العرب وهكذا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا}[سورة الإسراء:٥٩].

عن سعيد بن جبير قال: قال المشركون: يا محمد إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء فمنهم من سُخرت له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى، فإنْ سرّك أن نؤمن بك ونصدقك، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً، فأوحى الله إليه: إني قد سمعت الذي قالوا فإن شئتَ أن نفعل الذي قالوا فإن لم يؤمنوا نزل العذاب، فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئتَ أن نستأني بقومك استأنيتُ بهم، قال: ((يا رب استأن بهم))[١]، وكذا قال قتادة وابن جريج وغيرهما، وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: سأل أهل مكة النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن يأتيهم الذي سألوا، فإن كفروا هلكوا، كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم، وقال: ((لا، بل استأن بهم))، وأنزل الله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ} الآية[٢]، ورواه النسائي[٣] من حديث جرير -رضي الله تعالى عنه-.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قالت قريش للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك، قال: ((وتفعلون؟))، قالوا: نعم، قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة، فقال: ((بل باب التوبة والرحمة))[٤].

وقوله تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً}، قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات؛ لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-، فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه، وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد

---

١ - تفسير الطبري (١٧/٤٧٧).

٢ - رواه أحمد في المسند برقم (٢٣٣٣)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والحاكم في المستدرك برقم (٣٣٧٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٣ - رواه النسائي في الكبرى برقم (١١٢٩٠).

٤ - رواه أحمد في المسند برقم (٢١٦٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والبيهقي في الكبرى برقم (١٨١٨٨)، والحاكم في المستدرك برقم (٧٦٠١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، والطبراني في الكبير برقم (١٢٧٣٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٣٨٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- مرات، فقال عمر: أحدثتم، والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن، وكذا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الحديث المتفق عليه: ((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله -عز وجل- يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره))، ثم قال: ((يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً))[٥].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ}، هذه الآيات المشار إليها هي الآيات المقترحة التي كان يقترحها الكفار على أنبيائهم -عليهم الصلاة والسلام-، وإنما يفعلون ذلك تعنتاً وطلباً لعجزهم، ومن هذه الآيات: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا}، وقوله: {مُبْصِرَةً} وليس المقصود أن هذه الناقة لها بصر، وإنما المقصود أن هذه الآية –الناقة- ذات إبصار، بمعنى أنه يدركها من شاهدها، فهي آية واضحة لا لبس ولا خفاء فيها، ومع ذلك كذبوا وكفروا، فحينما يقال مثلاً يقول الله -عز وجل-: {وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} [سورة الإسراء:١٢]، وآية النهار هي الشمس، ليس المقصود بـــ{مُبْصِرَةً} أنها ذات بصر تبصر، فالشمس ليس لها بصر، وإنما {مُبْصِرَةً} أي: أن الناس يبصرون بها، أو غير ذلك مما قيل، مما أوردت بعضه في الآية.

قال: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا}، من أهل العلم من حمل الآيات في آخر هذه الآية على الآيات المذكورة في صدرها، {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ} قال: {وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا}، فقالوا: هي الآيات المقترحة، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وعلى هذا تكون "ال" في الآيات عهدية، ويكون ذلك من قبيل العهد الذكري؛ لأنه ذكر الآيات قبله ثم قال: {وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ} المذكورة {إِلاَّ تَخْوِيفًا}، ومن أهل العلم من عممه، فقال: {وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ} أي: المعجزات، ومنهم من قال بأن الآيات هي الأمور التي يجريها الله -عز وجل- مما يدل على كمال قدرته، وشدة بطشه، وعظيم انتقامه ممن انتقم منه، ففسروا ذلك بالمَثُلات، العقوبات التي ينزلها ببعض المكذبين، وما يري الناس من دلائل قدرته كما يقع من الزلازل والخسوف، والكسوف، فهذه آيات، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لما انكسفت الشمس، وقال من قال بأن ذلك كان لموت إبراهيم ابنه -صلى الله عليه وسلم-، فكان مما قال لهم -عليه الصلاة والسلام-: ((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده))[٦]، فهذا يفسر قوله: {وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا}، وهذا القول له وجه ظاهر من النظر، ويدل عليه هذا الحديث، ومن حمله على

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، برقم (٩٩٧)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، برقم (٩٠١)، ورُوي بألفاظ متعددة في الصحيحين غير هذا اللفظ.

٦ - رواه البخاري، كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف، برقم (١٠٠٩)، وبرقم (١٠١٠)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة، برقم (٩١٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعنى الخاص -الآيات المقترحة- جعل ذلك عائداً إلى ما ذكر قبله، وهذا القول يشمل الأقوال التي كانت قبله، وبعضهم يقول: إن الآيات هي الموت الذريع، وبعضهم يقول: أحوال الإنسان وتقلباته والأطوار التي يمر بها: نطفة، ثم علقة، ثم يكون طفلاً، ثم بعد ذلك يخرج إلى الدنيا صغيراً، ثم بعد ذلك يشب، ثم يهرم، يتغير.

وقوله: {فَظَلَمُواْ بِهَا}، أي: كفْرهم بها، ويدخل فيه أنهم قتلوها، فيفسر ذلك قولُه -تبارك وتعالى-: {فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا} [سورة الأعراف:٧٧]، وقول الله -عز وجل-: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}[سورة القمر:٢٩]، {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا} [سورة الشمس:١٤].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً}: "أي: مبينة موجبة للتبصر، وفعل الإبصار يستعمل لازماً ومتعدياً، يقال: أبصرته بمعنى أريته، وأبصرته بمعنى رأيته، فمبصرة في الآية بمعنى مرئية لا بمعنى رائية، والذين ظنوها بمعنى رائية غلطوا في الآية وتحيروا في معناها فإنه يقال: بصر به وأبصره فيعدى بالباء تارة والهمزة تارة، ثم يقال: أبصرته كذا، أي أريته إياه كما يقال: بصرته به وبصر هو به، فههنا بصيرة وتبصرة ومبصرة، فالبصيرة: المبينة التي تبصر، والتبصرة مصدر مثل التذكرة، وسمى بها ما يوجب التبصرة فيقال: هذه الآية تبصرة؛ لكونها آلة التبصر وموجبَهُ"[٧].ا.هـ

{وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنّ رَبّكَ أَحَاطَ بِالنّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرّؤيَا الّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاّ فِتْنَةً لّلنّاسِ وَالشّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاّ طُغْيَاناً كَبِيراً} [سورة الإسراء:٦٠].

يقول تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- محرضاً على إبلاغ رسالته مخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته، وقال مجاهد وعروة بن الزبير والحسن وقتادة وغيرهم في قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنّ رَبّكَ أَحَاطَ بِالنّاسِ} أي: عصمك منهم، وقوله: {وَمَا جَعَلْنَا الرّؤيَا الّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاّ فِتْنَةً لّلنّاسِ} الآية، روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَمَا جَعَلْنَا الرّؤيَا الّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاّ فِتْنَةً لّلنّاسِ} قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة أسري به، {وَالشّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ} شجرة الزقوم، وكذا رواه أحمد وعبد الرزاق وغيرهما، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد، وقد تقدمت أحاديث الإسراء في أول السورة مستقصاة ولله الحمد والمنة، وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً لآخرين، ولهذا قال: {إِلاّ فِتْنَةً} أي: اختباراً وامتحاناً، وأما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل -عليه لعائن الله-: هاتوا لنا تمراً

---

٧ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، للإمام ابن القيم الجوزيه (١٧٠/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وزبداً، وجعل يأكل من هذا بهذا، ويقول: تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا، حكى ذلك ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومسروق وأبو مالك والحسن البصري وغير واحد، وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسره كذلك بشجرة الزقوم.

وقوله: {وَنُخَوِّفُهُمْ} أي: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال، {فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاّ طُغْيَاناً كَبِيراً} أي: تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال، وذلك من خذلان الله لهم.

قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنّ رَبّكَ أَحَاطَ بِالنّاسِ} يعني: أن نواصيهم بيده فهم تحت قبضته، لا يخرجون عن تصرفه -سبحانه وتعالى- في قليل ولا كثير، وقوله: {وَمَا جَعَلْنَا الرّؤيَا الّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاّ فِتْنَةً لّلنّاسِ} هذه الرؤيا التي أُريها النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: هي رؤيا عين ليلة أسري به، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، -رحم الله الجميع-، وهو أظهر الأقوال، مع أن من أهل العلم من قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- رأى في المنام، كما في حديث اختصام الملأ الأعلى مثلاً، وقد يحمل ما جاء في بعض الأحاديث على أنه رؤيا منام في الذين مر النبي -صلى الله عليه وسلم- بهم، كالذي يسبح في نهر من دم، ومنهم من يقول: في ليلة الإسراء، فالذي يؤيد أن الرؤيا التي أراه الله هي رؤيا عين ليلة المعراج أن الله -عز وجل- قال: {وَمَا جَعَلْنَا الرّؤيَا الّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاّ فِتْنَةً لّلنّاسِ}، ولم يكن من ذلك ما وقع به فتنة للناس إلا واقعة الإسراء والمعراج، وهي التي فتن بها من فتن من الكفار واستبعدوا ذلك وهالهم، واستهزءوا به -صلى الله عليه وسلم-، وزادهم تكذيباً، واضطرب من اضطرب ممن لم يستقر الإيمان في قلبه، وكما سمعتم في بعض الروايات أنه رجع بعضهم، أما رؤيا المنام فلا يحصل بها هذا، ولا يُعرف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رأى رؤيا منام فوقع بسببها فتنة للناس، فالإنسان يرى في المنام أشياء كثيرة، ولا يكون ذلك داعياً إلى الافتتان بما رأى.

قال: {وَالشّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ}، قال: "**هي شجرة الزقوم**"، كما قال الله -عز وجل-: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ} [سورة الصافات:٦٢-٦٣]، فهذه أخبر الله -تبارك وتعالى- أنها فتنة، والفتنة بها: كيف تكون شجرة -والشجر فيه اللين والطراوة والرطوبة- تنبت في أصل الجحيم الذي هو في غاية الحرارة والإحراق؟، فهذه أضداد لا تجتمع، {إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} [سورة الصافات:٦٣-٦٥]، فهذه هي الشجرة المعلونة في القرآن، قيل لها ملعونة؛ لعدة أسباب من أهل العلم من يقول: إن العرب تقول لكل طعام كريه بغيض: إنه ملعون؛ ومعنى اللعن الطرد والإبعاد، فالطعام الكريه يصفونه بهذا أو يسمونه بذلك، وبعضهم يقول: لأن طلعها كأنه رءوس الشياطين، والشياطين ملعونة، وبعضهم يقول: لأنها تخرج في أصل الجحيم، وأصل الجحيم ملعون، وبعضهم قال: المراد بذلك هو أن اللعنة واقعة على آكليها، فهؤلاء الكفار يأكلون من هذه الشجرة في النار، وهم أهل لعن وإبعاد وطرد من رحمة الله -تبارك وتعالى-، لكن هذا فيه بعد، فالله وصف الشجرة بهذا، ولما كانت هذه الشجرة بهذه الصفة من قبح المنظر والهيئة، والطعم، وصفت بهذا وقيل لها: شجرة ملعونة، نسأل الله العافية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة الإسراء:٦١-٦٢].

يذكر -تبارك وتعالى- عداوة إبليس -لعنه الله- لآدم وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخاراً عليه واحتقاراً له، {قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً}، كما قال في الآية الأخرى: {أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [سورة الأعراف:١٢]، وقال أيضاً: أرأيتك، يقول للرب جراءة وكفراً والرب يحلم وينظر {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ} الآية، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يقول لأستولين على ذريته إلا قليلاً، وقال مجاهد: لأحتوينّ وقال ابن زيد: لأضلنهم، وكلها متقاربة، والمعنى: أرأيتك هذا الذي شرفته وعظمته عليّ لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم.

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً}، ذكر الله -عز وجل- خبر آدم وإبليس، في مواضع كثيرة من القرآن في سورة البقرة، والأعراف، والإسراء، والكهف والحجر وص، وطه، {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً}، والآيات في المواضع الأخرى تفسر هذا وتبين أن الذي منعه هو الاستكبار، {إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ} [سورة البقرة:٣٤]، وأنه اعتز بأصله وترفع به، {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [سورة ص:٧٦]، والعلماء -رحمهم الله- ردوا على هذا القياس الفاسد وقالوا: إن أول من قاس قياساً فاسداً في مقابل النص هو إبليس، وبينوا وجوه تفضيل الطين على النار، قالوا: الطين توضع فيه الحبة فتخرج شجرة مثمرة، والنار لا يوضع فيها شيء إلا هلك واحترق، وقالوا: من طبيعة الطين الرزانة والثبات، ومن طبيعة النار الخفة، وقالوا: الطين يبنى بها الدور ونحو ذلك، وأما النار فهي متلفة، من طبعها الإحراق والإتلاف، إلى غير ذلك من الوجوه التي ردوا بها على إبليس.

فقوله: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً}، وقال: {فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ} [سورة الأعراف:١٤-١٥] أمهله الله -عز وجل- وقال: {وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}، هل قال هذا بعلم، أي أن الله أعلمه أن أكثرهم سيتبعونه؟ أو أنه قاله باعتبار أنه عرف من طبيعة آدم لما علم أنه ركب فيه الشهوات والغرائز أن ذلك سيكون سبباً لانحرافه ومعصيته لله -تبارك وتعالى-؟ أو أنه قال ذلك ظناً؟ كما قال الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ} [سورة سبأ:٢٠]، وإنما قاله ظاناً يعني بغلبة ظن، وقال: {لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً}، يقول الحافظ -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "**لأستولين على ذريته إلا قليلاً، وقال مجاهد: لأحتوين، قال ابن زيد: لأضلنهم، وكلها متقاربة**"، ذكر بعض أهل العلم أن أصل الاحتناك هو الاستئصال، ومنه احتنك الجراد الزرع إذا استأصله وأتلفه، فالجراد إذا نزل بمحل في ليلٍ تُصبح ترى الأشجار بلا ورق، حتى النخيل يصبح وهو مجرد عسب ليس فيه سعف، فإبليس يقول: {لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً}، ومنه ما يوضع في حنك الدابة، فيسيطر عليها بهذا اللجام أو الحديدة أو نحو ذلك، فتدار كما يريد من يقودها أو يركبها، {لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً}، أخذاً من الحنك، بمعنى أنه يضلهم ويتلاعب بهم ويديرهم كما يشاء، ويوجههم ويتصرف بهم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويضللهم فيتبعه أكثر الخلق، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف:١٠٣]، وقال: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [سورة الأنعام:١١٦] فهؤلاء حزب الشيطان وأتباعه، وهم نصيبه الذين يقودهم إلى النار، والله المستعان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنّ جَهَنّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مّوْفُوراً * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشّيْطَانُ إِلاّ غُرُوراً * إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبّكَ وَكِيلاً} [سورة الإسراء:٦٣-٦٥].

لما سأل إبليس النظرة قال الله له: {اذْهَبْ} فقد أنظرتك، كما قال في الآية الأخرى: {قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}، ثم أوعده -ومن اتبعه من ذرية آدم- جهنم فقال: {فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنّ جَهَنّمَ جَزَآؤُكُمْ} أي: على أعمالكم، {جَزَاءً مّوْفُوراً} قال مجاهد: وافراً، وقال قتادة: موفوراً عليكم لا ينقص لكم منه، وقوله تعالى: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ}، قيل: هو الغناء، قال مجاهد: باللهو والغناء، أي استخفهم بذلك، وقال ابن عباس في قوله: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ} قال: كل داع دعا إلى معصية الله -عز وجل-، وقاله قتادة واختاره ابن جرير، وقوله تعالى: {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ}، يقول: واحمل عليهم بجنودك خيَّالتهم ورَجلتهم، فإن الرَّجِل جمع راجل، كما أن الركْب جمع راكب، وصحب جمع صاحب، ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه، وهذا أمر قدري، كقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً} أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد في قوله: {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ} قال: كل راكب وماشٍ في معصية الله، وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه، تقول العرب: أجلبَ فلان على فلان إذا صاح عليه، ومنه نهى في المسابقة عن الجلَب والجنَب، ومنه اشتقاق الجلبة: وهي ارتفاع الأصوات، وقوله تعالى: {وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى.

وقوله: {وَالأَوْلادِ} قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك: يعني أولاد الزنا، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم، وقال قتادة عن الحسن البصري: قد والله شاركهم في الأموال والأولاد، مَجَّسوا وهودوا ونصروا وصبغوا على غير صبغة الإسلام، وجزّءوا أموالهم جزءاً للشيطان، وكذا قال قتادة سواء.

ولم يخصص بقوله: {وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ} معنى الشركة فيه بمعنىً دون معنى فكل ما عصي الله فيه أو به، أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة، فقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حمار -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يقول الله -عز وجل- إني خلقت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم))[1]، وفي الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً))[2]، وقوله تعالى: {وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً} كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضي بالحق: {إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ} الآية، وقوله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال تعالى: {وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً} أي: حافظاً ومؤيداً ونصيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

قوله -تبارك وتعالى-: {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنّ جَهَنّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مّوْفُوراً * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم}، إلى آخره، هذه الأوامر حملها بعض أهل العلم على أن ذلك للتهديد، كما تقول لمن تهدده وتتوعده: اذهب فافعل ما بدا لك، اذهب فافعل ما استطعت، يعني أنك ستجازيه وتحاسبه على فعله هذا، وله يوم لن يجاوزه، يقول: {فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا} قال مجاهد: وافراً، وقال قتادة: موفوراً عليكم لا ينقص لكم منه، وهذان بمعنىً واحد.

ثم قال: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ} قيل: هو الغناء، قال مجاهد: باللهو والغناء، وقال ابن عباس: كل داعٍ دعا إلى معصية الله، وقاله قتادة واختاره ابن جرير، ابن جرير -رحمه الله- اختار حمل الآية على الأعم من معانيها، فيرى أن كل صوت يُدعى فيه إلى ضلالة فهو داخل في هذه الآية، والغناء داخل في ذلك؛ لأن الغناء لا يدعو إلى طاعة الله وتقواه، وإنما هو لهو باطل يستفز الإنسان إلى المعصية، ويمرض قلبه ويفسده، وهكذا أيضاً المعازف، فهذه الأصوات المطربة كلها من صوت الشيطان، وكذلك صوت النائحة داخل فيه، وكل داعٍ دعا إلى معصية الله -عز وجل- من قنوات، وإذاعات، وتسجيلات، وغير ذلك مما يدعو إلى معصية الله -عز وجل- ومحادّته فإن هذا كله داخل في قوله: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ}، فله جند وأتباع كُثر في كل زمان، والله -عز وجل- يقول: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}[سورة الأنعام:١١٦]، وقال: {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ} يعني: بجنودك من الراكبين ومن الماشين، وليس المقصود بقوله: {وَرَجِلِكَ} الرجال، وإنما المقصود الرجْل: يعني الراجل، الذي يمشي على رجليه، وليس براكب، والمعنى: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ} بكل مستطاع، تقول: أجلب فلان بخيله ورجله، أي كل ما يستطيع أن يورده وأن يفعله، لم يدخر وسعاً، ويقول: {وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ} يقول: "**عن ابن عباس ومجاهد: وهو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى**"، المشاركة في الأموال يدخل

---

١ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم (٢٨٦٥).

٢ - رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع، برقم (١٤١)، ومسلم، كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، برقم (١٤٣٤)، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيها كل إنفاق في سبيل الشيطان، الإنفاق في معصية الله -تبارك وتعالى-، كل ما ينفقه الكفار ليصدوا عن سبيل الله، وكل ما يفعله الكفار مما يملي عليهم الشيطان كما قال الله -عز وجل- عنهم: {وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا} [سورة الأنعام:١٣٨]، إلى آخره، فما ذبح لغير الله -عز وجل- فهو مشاركة من الشيطان لهم في الأموال، والوصيلة والسائبة والحام، إلى آخره، هذا كله من مشاركته لهم في الأموال، فكل مال ينفق في غير وجه حق فهذا داخل تحت هذا العموم، فلا يخص ذلك بنوع دون نوع، وأما المشاركة في الأولاد فنقل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن جماعة من السلف قولهم: يعني أولاد الزنا، وعن ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم، وقال قتادة والحسن: مجّسوا وهودوا، إلى آخره، وهذه أيضاً محمولة على العموم، فيدخل في المشاركة في الأولاد حينما يأتي الإنسان أهله ولا يقول: اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن من قال ذلك فإن هذا الولد لا يسلط عليه الشيطان، وكذلك إذا كان الإنسان يئد الولد، فإن هذا من المشاركة في الأولاد، وهكذا إذا عَبَّد الولد لغير الله -عز وجل- فقال: عبد الحارث مثلاً، أو قال: عبد العزى، أو عبد الرسول، أو عبد النبي، أو عبد الحسين، فهذا من المشاركة في الأولاد، وإذا جعل هؤلاء الأولاد وقفاً، أو سدنة للقبور، كما يفعل عباد القبور، فهذا كله داخل فيه، داخل في المشاركة في الأولاد، -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا}، المقصود بوعد الشيطان كل ما يعد به الكفار، كتمنيته لهم بالتوبة، وهكذا حينما يعد العصاة، ويرجّيهم أنه يفعل ثم يتوب، أو أن الله غفور رحيم، وأن الله سيغفر لهم، وهكذا ما كان يمني به الكفار، أنهم حينما ينتقلون إلى الدار الآخرة سيلقون ما هو أعظم مما كان في الدنيا من العطاء، فيقولون: إن الله -عز وجل- أعطاهم الأموال والأولاد، فإذا بعثوا ورجعوا إلى ربهم فإنهم سيجدون عنده مالاً وولداً، وكذلك ما كان يمنيهم به من أن هذه الأصنام ستشفع لهم عند الله -تبارك وتعالى- وأن لها منزلة، كل هذا داخل في هذا المعنى، -والله تعالى أعلم-.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: في قوله تعالى لإبليس: {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا}، أعاد الضمير بلفظ الخطاب وإن كان من تبعك يقتضي الغيبة؛ لأنه اجتمع مخاطب وغائب فغلّب المخاطب وجعل الغائب تبعاً له، كما كان تبعاً له في المعصية والعقوبة فحسن أن يُجعل تبعاً له في اللفظ، وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به، وانتصب جزاء موفوراً عند ابن مالك على المصدر"[٣].

هذه لطيفة لفظية، الله يقول على سبيل الخطاب لإبليس: {اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ} بكاف الخطاب، {مِنْهُمْ} بضمير الغائب بالنسبة للناس، ثم وجه الخطاب إليهم، هذا يسمى التفات من الغائب {مِنْهُمْ}، ثم وجه بالخطاب فقال: {فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ} ما قال: فإن جهنم جزاؤهم، قال: {جَزَآؤُكُمْ} تحول من الغيبة فقال: {فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا}، ما قال: جزاؤهم، وإنما تحول من الغيبة إلى الخطاب، فقال: {جَزَآؤُكُمْ} تغليباً

---

٣ - بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزيه (٩٩١/٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للمخاطب، {اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ} فهم أتباعه، فجاء اللفظ مراعىً فيه ذلك، كما أنهم في المعنى تبع لإبليس، فأتبع اللفظ اللفظ، إتباع في اللفظ بناءً على إتباع المعنى، فراعى ذلك في اللفظ فقال: {اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ} ما قال: فإن جهنم جزاؤهم، بالغائب؛ إتباعاً لضميرهم هم، {فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ}، وإنما قال: {فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ} جاء بالخطاب إتباعاً لأول الكلام الذي بُدئ بالخطاب، فأتبع اللفظ اللفظ؛ لأن المعنى كذلك.

وقال -رحمه الله تعالى-: وأما تسميته صوت الشيطان، فقد قال تعالى للشيطان وحزبه: {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا} الآيات، قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي أخبرنا أبو صالح كاتب الليث حدثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ} قال: كل داعٍ إلى معصية.

ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية؛ ولهذا فسر صوت الشيطان به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي أخبرنا يحيى بن المغيرة أخبرنا جرير عن ليث عن مجاهد {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ} قال: استزل منهم من استطعت، قال: وصوته الغناء والباطل، وبهذا الإسناد إلى جرير عن منصور عن مجاهد قال: صوته هو المزامير.

ثم روى بإسناده عن الحسن البصري قال: صوته هو الدف، وهذه الإضافة إضافة تخصيص، كما أن إضافة الخيل والرجل إليه كذلك فكل متكلم بغير طاعة الله ومصوت بيَراعٍ أو مزمار أو دف حرام، أو طبل فذلك صوت الشيطان، وكل ساعٍ في معصية الله على قدميه فهو من رجِله، وكل راكب في معصية الله فهو خيّالته، كذلك قال السلف كما ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: رجِله كل رجْل مشت في معصية الله، وقال مجاهد: كل رجُل يقاتل في غير طاعة الله فهو من رجِله.

وقال قتادة: إن له خيلاً ورجِلاً من الجن والإنس[٤].

وقال -رحمه الله تعالى-: "الصوت الشيطاني يستفز بني آدم، وصوت الشيطان كل صوت في غير طاعة الله نسب إلى الشيطان لأمره به، ورضاه به، وإلا فليس هو الصوت نفسه، فصوت الغناء وصوت النوح وصوت المعازف من الشبابات والأوتار وغيرها كلها من أصوات الشيطان التي يستفز بها بني آدم فيستخفهم ويزعجهم، ولهذا قال السلف في هذه الآية: إنه الغناء، ولا ريب أنه من أعظم أصوات الشيطان التي يستفز بها النفوس ويزعجها ويقلقها، وهو ضد القرآن الذي تطمئن به القلوب وتسكن وتخبت إلى ربها، فصوت القرآن يسكن النفوس ويطمئنها ويوقرها، وصوت الغناء يستفزها ويزعجها ويهيجها، كما قيل:

حامل الهوى تعِبُ يستفزه الطربُ *** كلما انقضى سبب عاد منك سببُ

تضحكين لاهيةً والمحب ينتحب *** تعجبين من سقمي صحتي هي العجبُ

فلو لم يكن دليل على أن صوت الغناء والمعازف هو صوت الشيطان لما يستفز به السامع ويقلقه به ويزعجه ويزيل طمأنينته لكفى به دليلاً.

---

٤ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم الجوزيه (١/٢٥٥-٢٥٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك صوته الذي يستفز به النفوس عند المصيبة وهو النوح، فيستفزها بهذا الصوت إلى الحزن والأسف والسخط بما قضى الله، ويستفزها بذلك الصوت إلى الشهوة والإرادة والرغبة فيما يبغضه الله، فينهاها بصوت النوح عما أمر الله به، ويأمرها بصوت الغناء بما نهاها الله عنه، وهذا الصوت هو أحد الأسباب الخمسة التي أقسم الشيطان أن يحتنك بها ذرية آدم ويستأصلهم إلا قليلاً، وهي استفزازهم بصوته، والإجلاب عليهم بخيله ورجِله، ومشاركتهم في أموالهم وأولادهم، فكل راكب في معصية الله فهو من خيّالة الشيطان، وكل ماشٍ في معصية الله فمن رجّالته، وكل مال أخذ من غير حله، وأخرج في غير حقه فهو شريك صاحبه فيه، وكل ولد من نطفة زنا فهو شريك أبيه فيه"[٥].

وقال -رحمه الله تعالى-: "قال تعالى: {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ} قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم فكل راكبٍ وماشٍ في معصية الله فهو من جند إبليس[٦].

هذا يحمل على جميع المعاني التي قالها السلف، والكلام في المعازف وآلات اللهو وأنها من صوت الشيطان لا شك فيه، هو يستفز النفوس لا شك بالمعصية، ويمرض القلوب ويفسدها، والعجب أن الصغير الذي لم يبلغ السنتين إذا سمع القصائد الملحنة يصدر منه من التصرفات والرقص والأشياء العجيبة التي قطعاً ما شاهد أحداً يفعل هذا، ولكنه يبدأ يتصرف بتصرفات كأنه يشاهد ذلك، وكأنه يعيش بين هؤلاء الذين يرقصون، وهذا يدل على أن النفوس قد ركب فيها دواعي هذه الأمور التي يستفز الشيطان بها من شاء الله -عز وجل- من خلقه، وللأسف في هذه السنوات بدأ بعض الناس يضطربون ويخرجون كل عجيب وعجيبة، وشذوذات، ومن كان في قلبه شيء أظهره، سواء كان بدعة، أو هوىً، أو ضلالةً، أو معصية، وكل صاحب شواذ تجرأ وأصدر ما عنده من شذوذات، وصار سلعة رائجة في هذه الأيام، حينما يخرج كتاب كبير في إباحة الغناء، فإن نسخ الكتاب تنفذ خلال ساعات قليلة، وكثير من هؤلاء الذين يقتنون هذا الكتاب ويتهافتون عليه يشترونه من باب الفضول؛ لأنه جاء بشيء غريب وشيء شاذ، فأحد هؤلاء الذين ظهر عنهم بعض الشذوذ أنكر هذا غاية الإنكار، وكتب رسالة يتبرأ فيها من هذا، ثم بعد ذلك أصدر كتاباً كبيراً يقرر فيه ما ظهر من شذوذه الأول، وذكر في مقدمته أنه لم يجرؤ على إخراج هذه الأشياء حينما كان بعض العلماء أحياء، فلما ماتوا:

خلا لكِ الجوُّ فبِيضي واصْفِري *** ونقِّري ما شئت أن تنقري

ولا تجد عند الواحد من هؤلاء مجرد قضية كالغناء، بل تجد لها أخوات، قضايا تتعلق بالحجاب، وقضايا تتعلق بالاختلاط، وقضايا أخرى، وهكذا، والله المستعان.

مسألة: "الزواج من الجن".

الفقهاء تكلموا على هذه المسألة وبعضهم منع من هذا، وبعضهم أجازه، لكن لا يوجد شيء يثبت هذا، ويمكن لكل امرأة تحمل وليس لها زوج وتضع الولد بعد الولد، أن تقول: إنها متزوجة من جني، فيفتح هذا باب الشر والزنا، وأولاد الزنا، وبعضهم قال: أصلاً هذا لا يمكن أن يتم؛ لأن طبيعة هؤلاء غير طبيعة الإنس، ولا

---

٥ - انظر: بدائع التفسير، لابن القيم الجوزيه (١٤٣/٢-١٤٤).

٦ - التفسير القيم، لابن القيم (١٠٣/١)، ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١٢٢/١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يمكن أن يحصل بينهم ولد، فلا يوجد في هذه الدنيا من أولها إلى آخرها حالة تثبت مثل هذا الشيء، والمعروف أنهم أجسام، يبدو -والله أعلم- أنها لطيفة، ومن الناس من يقول: إنهم لا يستطيعون أصلاً فض البكارة، -فالله أعلم-، وبعض من به شيء من المس أو التلبس أو السحر أو غيره، يقول: إنه يشعر أن امرأة تجامعه، ونحو هذا، لا تستطيع أن تثبت هذا، والمرأة التي تشعر أن رجلاً يضاجعها أو شيئاً من هذا القبيل، ليس عندنا شيء إطلاقاً يثبت هذه القضايا، وما يقال: من أن آل فلان لهم أم من الجن، أو أب من الجن، أو غير هذا، فهذا كله كذب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء: (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة الإسراء: قال تعالى: {رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [سورة الإسراء: (٦٦)].

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: {إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}: **أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ}، الإزجاء: هو السَّوق، {يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ}: أي: يسوق ويسيّر لكم الفلك وهي السفن، وقوله: {لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ}: أي بالتجارة، ويدخل في عمومه ما يحصل لهم من ألوان المنافع كالصيد واستخراج اللؤلؤ وأشباه ذلك مما يكون في البحر، فهذا كله داخل فيه، الله -عز وجل- يقول: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ}: يعني الجمعة {فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}، [سورة الجمعة: (١٠)] المشهور من كلام أهل العلم، قول الجمهور يعني بالبيع والشراء؛ لأنه قال قبله: {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ} [سورة الجمعة: (٩)] ثم قال بعده: {فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ} فذلك يعود إلى ما منعهم منه، وإن قال بعض السلف: إن المقصود به عيادة المريض واتباع الجنائز وصلة الأرحام، وما أشبه ذلك، على كل حال هنا {لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ} يشمل كل ما يدخل تحت هذا العموم، وإن كان المشهور من أقوال أهل العلم أن المقصود بذلك التجارة، فهذا لا ينافي ما ذكرته معه؛ لأنه داخل فيه، والله أعلم.

{وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا} [سورة الإسراء: (٦٧)].

يخبر -تبارك وتعالى- أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين؛ ولهذا قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ}: **أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى.**

وقوله تعالى: {فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ}: **أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له،** {وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا}: **أي سجيته هذا، ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله.**

هذا كقوله تعالى في الآيات الأخرى في خصوص ركوب البحر، وما يحصل لهم فيه من المخاوف، فيخلصون الدعاء لله -عز وجل-: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [سورة يونس: (٢٢)]، فهذه عادتهم، فإذا نجاهم الله -عز وجل- من هذا رجعوا إلى ما كانوا عليه، وذلك لا يختص بالفلك، وإنما في عموم أحوال الإنسان إذا مسته الشدائد والضراء، {وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا} [سورة الإسراء: (٨٣)]، وهذا في صفة الإنسان من حيث هو، وأن ذلك يغلب عليه، والله -عز وجل- هنا يقول: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا}، الذين كانوا يعبدون غير الله -عز وجل- لا شك أنهم داخلون في هذا دخولاً أولياً، ولكن غيرهم أيضاً يدخل فيه باعتبار أن الإنسان ينسى فضل الله -عز وجل- عليه في الشدائد، إذا أصابه مرض، أصابته علة، أصابه فقر، جعل يتضرع إلى الله -عز وجل-، فإذا كشف الله -عز وجل- عنه الضر نسي ما كان يدعو إليه من قبل، هذه طبيعة الإنسان، وهي غالبة على الناس، وقد لا يصل به الحد إلى الإشراك بالله -تبارك وتعالى-، ولكن كلٌّ بحسبه، المشرك يرجع إلى شركه، والغافل يرجع إلى غفلته، فإذا وقع في الشدة تقرب إلى الله -عز وجل- بالضراعة والإخبات، وإذا رفعتْ عنه هذه الشدة عاد إلى حاله الأولى، ونسي الإفضال والإنعام، ونسي تلك الشدة، وهذا داخل في معنى الكفران، {وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا}، فلا يختص ذلك بالكفر الذي هو جحود الوحدانية، أو الإشراك مع الله -عز وجل-، ليشرك آلهة أخرى، وإنما الإعراض عن النعم ونسيان فضل الله -تبارك وتعالى-.

{أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً} [سورة الإسراء: (٦٨)].

يقول تعالى: أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً؟!. وهو المطر الذي فيه حجارة، قاله مجاهد وغير واحد. كما قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا} [سورة القمر: (٣٤-٣٥)] وقد قال في الآية الأخرى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} [سورة الحجر: (٧٤)] وقال: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ}، [سورة الملك: (١٦-١٧)] وقوله: {ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً}: أي ناصراً يرد ذلك عنكم وينقذكم منه.

قوله هنا: {أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ}: جانب البر أي: ناحية البر، بمعنى أنه حينما ينجيهم الله -عز وجل- من مخاوف البحر ليس ذلك هو نهاية المطاف، ولا يظن الواحد منهم أنه بقي على أرض صلبة، وأن الخطر قد تجاوزه فهو في مأمن من عذاب الله -عز وجل-، لا، فهذه اليابسة قد تُخسف، وقد يأتيه العذاب من فوقه، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} يقول هنا: **وهو المطر الذي فيه حجارة**، وليس المقصود أنه يكون المطر المعروف وفيه حجارة، وإنما المقصود أن يمطر عليهم حجارة، كما قال الله -عز وجل-: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا} [سورة الأعراف: (٨٤)]، فهذا المطر ليس ماء، وإنما من نوع آخر، وهو الحجارة وتفسره الآية الأخرى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا}: أي قوم لوط، فما جاءهم مطر من ماء معه حجارة، وإنما جاءهم حجارة فقط، رماهم الله -عز وجل- بها، {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ} [سورة هود: (٨٢)]، فالعبارة التي ذكرها الحافظ ابن كثير ذكرها بعض السلف قال: **وهو المطر الذي فيه حجارة**، وقد يفهم منها أنه المطر المعروف بالماء مصحوباً بالحجارة، وليس هذا مراده، وإنما هذا مطر حباته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من الحصى، وأصل الحاصب: الريح التي تحمل معها الحجارة، والحصباء: الحجارة الصغيرة، تقول: حصبه، يعني رماه بالحصباء، ومنه قيل: المحصب، المكان المعروف في مكة، فهو مكان يوجد فيه الحجارة الصغيرة، فالريح التي ترمي بالحصباء يقال لها: حاصب، فالريح تارة تكون قوية فتحمل معها حبات الرمل، وإذا كان ذلك شديداً ربما أثر حتى في الصخور، وفي البنيان، فكيف إذا كان بالحجارة؟، ألا ترون كيف تقشر البيوت، وكيف يذهب الصدى من الحديد عن طريق ضغط الهواء المصحوب بالرمل، فيعود الحديد جديداً، وتذهب القشرة التي على البيت، التي ربما احتيج لإزالتها إلى جهود مضنية بالهواء، فكيف إذا كانت الحجارة هي التي يرمى بها؟، فعلى كل حال هذا هو المراد -والله تعالى أعلم-، يقول: **قاله مجاهد وغير واحد**، ومن السلف من عبر بغير هذا على كل حال، لكن هذا هو المراد -والله أعلم-؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً.

{أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} [سورة الإسراء: (٦٩)].

يقول -تبارك وتعالى-: {أَمْ أَمِنتُمْ} أيها المعرضون عنا -بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر- {أَن يُعِيدَكُمْ} في البحر مرة ثانية {فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ}: أي يقصف الصواري ويغرق المراكب، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره: القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها. وقوله: {فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ}: أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى وقوله: {ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: نصيراً، وقال مجاهد: نصيراً ثائراً، أي: يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك.

هذه الأقوال التي ذكرها ترجع إلى شيء واحد، الله -عز وجل- يقول: {ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا}، يعني لا تجدوا تابعاً يتبعنا بما فعلنا بكم، بمعنى أنه يطلب الثأر والاقتصاص والانتقام لكم بسبب إهلاكنا إياكم، فالعرب تقول لكل طالب دم يتبع غيره فيه، تقول له: "تَبِيعٌ"، بمعنى تابع، فالله -عز وجل- يقول: {ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا}، لا تجدون طالباً يطلبنا أو تابعاً يتبعنا؛ يطلب بثأركم والانتقام لكم، وهذا معنى ما ذكره بعض السلف من أنه النصير، أو الذي يطلب حقكم أو يأخذ بثأركم، أو نحو ذلك، كما قال الله -عز وجل-: {فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} [سورة الشمس: (١٤-١٥)]، الإنسان قد يبطش وقد ينتقم، لكنه يبقى متوجساً مترقباً خائفاً من ردود الأفعال ومن الانتقام، أما الله -عز وجل- فإنه يهلك ويدمر من شاء أن يهلكه، ولا يخاف تابعاً يتبعه أو طالباً يطلب الثأر.

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} [سورة الإسراء: (٧٠)].

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين: (٤)] أي يمشي قائماً منتصباً على رجليه ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به ويفرق بين الأشياء ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية، {وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ}: أي على الدواب من الأنعام والخيل والبغال وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار، {وَرَزَقْنَاهُم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِّنَ الطَّيِّبَاتِ} أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي، {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}: أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات وقد استُدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة.

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} هنا يقول الحافظ -رحمه الله-: **في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، أي يمشي قائماً منتصباً على رجليه ويأكل بيديه.** إلى آخره، هذا مما يدخل في معنى الآية {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} فتكريمه لبني آدم يدخل فيه هذا، ويدخل فيه غيره مما حصل لهذا المخلوق من ألوان التكريم والتفضيل، من ذلك أن الله -عز وجل- سخر له ما في الأرض جميعاً، ما في باطنها وما على ظاهرها من الجمادات والحيوانات والنباتات، وخلقه بهذه الهيئة التي تميز بها عن سائر المخلوقات، كما أن الله -تبارك وتعالى- فضله ابتداءً حيث أمر بسجود الملائكة لآدم، وآدم هو أبو البشر، والقاعدة "أن النعمة التي تكون على الآباء تلحق الأبناء"، ولهذا يمتن الله -عز وجل- كثيراً في القرآن على الأحفاد والذرية بما حصل من الإفضال والإنعام والتكريم لآبائهم، وهذا كثير {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [سورة البقرة: (٤٧)]، يخاطب به الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- في أمور وقعت لأسلافهم، وهكذا في تكريم الله -عز وجل- لبني آدم بأمر الملائكة بالسجود لأبيهم، وعلى كل حال يدخل فيه كل أنواع التكريم، ولا يختص ذلك بأنه يأكل بيده، وإنما ذلك من صور هذا التكريم أن ميزه الله -عز وجل-، فجعله يأخذ الأشياء، ويعطي ويتبادل، وتحصل المعاوضة بينه وبين بني جنسه، وجعل له لساناً ناطقاً مبيناً عما في صدره، بخلاف العجماوات تمرض ولا تشعر بعلتها، وكذلك أيضاً لا تقوم بمصالحها، ولا تتصرف بشئونها تصرف الإنسان، فالإنسان هو الذي يدير ذلك كله، فالله -عز وجل- أخضع له هذه الأمور، وجعله بهذه الصورة من الحسن والجمال والكمال بخلاف الحيوانات، فكل هذا من التكريم، وقوله هنا: {وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} هذا كله داخل أيضاً في هذا التكريم، ولكنه ذكر من صوره وأنواعه جُملاً تُبين عن غيرها.

وقوله: {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}، لا يدل على أن جنس البشر أفضل من جنس الملائكة مثلاً، أو أن الصالحين من بني آدم أفضل من الملائكة؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}، وهذه المسألة إذا تطرق إليها العلماء من أهل السنة عادة فإنهم يذكرون عند ذلك أن هذه المسألة لا يترتب عليها عمل، وإنما هي من المسائل التي ينبغي الإعراض عنها، وترك الاشتغال بها، وإنما يدندن حولها ويشتغل بها من أولع بالجدل، والاشتغال الذي لا ينفع، وعلى كل حال توجد مواضع في القرآن يقف عندها بعضهم ويتكلم على هذه المسألة وليس هذا الموضع فحسب، ولكن كما قلت العلماء عادة من أهل السنة ينبهون على هذا المعنى، وأن هذا لم نطالب به، ولا يترتب عليه عمل، وينبغي الإعراض عنه، وليس عليه دليل واضح يمكن أن يوقف عنده فيقال: إن الملائكة أفضل بإطلاق، أو أن الأنبياء أفضل بإطلاق، أو أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصالحين من بني آدم عموماً أفضل بإطلاق، والإنسان إنما يشتغل بما هو بصدده، إذا عرف أن الصالحين أفضل من الملائكة ما الذي يترتب على هذا؟ لا شيء.

{يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً * وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً}[سورة الإسراء: (٧١-٧٢)].

يخبر -تبارك وتعالى- عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم، وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي بنبيّهم، وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبي -صلى الله عليه وسلم-. وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع. واختاره ابن جرير، وروي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا. وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ}: أي بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك، وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [سورة يس: (١٢)]، وقال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ}[سورة الكهف: (٤٩)] الآية، وقال تعالى: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الجاثية: (٢٨-٢٩)] وهذا لا ينافي أن يُجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته فإنه لا بد أن يكون شاهداً على أمته بأعمالها، ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ}: أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرؤه ويحب قراءته كقوله: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهْ} [سورة الحاقة: (١٩)] إلى قوله: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ} [سورة الحاقة: (٢٥)] الآيات، وقوله تعالى: {وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً} قد تقدم أن الفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة، وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في قول الله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} قال: ((يُدعى أحدُهم فيُعطَى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم آتنا بهذا، وبارك لنا في هذا، فيأتيهم، فيقول لهم: أبشروا؛ فإن لكل رجل منكم مثل هذا، وأما الكافر فيسود وجهه، ويمد له في جسمه، ويراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من هذا، أو من شر هذا، اللهم لا تأتنا به، فيأتيهم فيقولون: اللهم اخزه، فيقول: أبعدكم الله؛ فإن لكل رجل منكم مثل هذا))[1].

وقوله تعالى: {وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى} الآية، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة وابن زيد: {وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ}: أي في الحياة الدنيا، {أَعْمَى}: أي عن حجة الله وآياته وبيناته، {فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى}: أي كذلك يكون {وَأَضَلُّ سَبِيلاً}: أي وأضل منه، كما كان في الدنيا، عياذاً بالله من ذلك.

---

[1] - سنن الترمذي: (٣٠٢/٥) باب ومن سورة بني إسرائيل: برقم: (٣١٣٦) وضعفه الألباني.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ}، الباء في {بِإِمَامِهِمْ} يحتمل أن تكون للإلصاق، كما تقول: دعوتك باسمك، ويحتمل أن يكون المعنى: {نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ} متلبسين بإمامهم، أي أن إمامهم معهم، ندعوهم بإمامهم، فيكون ذلك باعتبار أنه متعلق بمحذوف، والأصل كما هو معلوم عدم التقدير، و"إذا دار الكلام بين الاستقلال والإضمار فالأصل الاستقلال"، أما معنى الإمام، فيقول هنا: **اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي بنبيهم، قال بعض السلف: هذا أكبر**... إلى آخره، يعني إمام أهل الحديث هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، **وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم**، فيقال: يا أهل التوراة، وقول من قال: إنه بنبيهم، يمكن أن يستدل له بمثل قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا} [سورة النساء: (٤١)]، فيؤتى بالرسل -عليهم الصلاة والسلام.

يقول: **واختاره ابن جرير**، أي أنه بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع، يقول: يا أهل التوراة، يا أهل الإنجيل، يا أهل القرآن، لكن ابن جرير قد لا يكون اختار هذا القول، وإنما اختار أنه الذي يأتمون ويقتدون به في الدنيا، أيًّا كان، من يتبعونه في الدنيا، من مقدم ومطاع سواء كانوا يتبعون نبياً أو يتبعون شيطاناً، أو يتبعون فاجراً من الفجار، كل أناس يؤتى بهم يوم القيامة بمقدمهم ومطاعهم ومتبوعهم الذي كانوا يتبعونه، والإمام في اللغة هو كل من يؤتم به ويتبع، سواء كان ذلك نبياً من الأنبياء أو كتاباً يتبعونه، أو مطاعاً يطيعونه ويقتدون به، كل ذلك يقال له: إمام.

يقول ابن جرير: وأولى هذه الأقوال عندنا بالصواب قول من قال: معنى ذلك {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} الذي كانوا يقتدون به، ويأتمون به في الدنيا؛ لأن الأغلب من استعمال العرب الإمام -هذه طريقة الترجيح، سبب الترجيح كعادته رحمه الله- يقول: لأن الأغلب من استعمال العرب الإمام فيما ائتُمّ واقتُدي به، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر أولى ما لم تثبت حجة بخلافه يجب التسليم لها، فكلام ابن جرير بهذا الاعتبار: أنه من يتبعونه ويقتدون به، وليس المقصود الكتاب الذي أنزل عليهم، وعلى كل حال هذه الأقوال: من يقول بكتبهم إلى آخره، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: إن المقصود به كتاب الأعمال، {بِإِمَامِهِمْ}: أي **بكتاب أعمالهم**، واحتج له من القرآن، قال: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [سورة يس: (١٢)]، وهذا هو كتاب الأعمال، {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ} فهذا الإمام هو كتاب الأعمال، وليس الكتاب الذي فيه التشريع.

{وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا} ليس إلى كتابها الذي أنزل وإنما إلى كتاب الأعمال؛ لأن ما بعده يفسره، قال: {الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، ينطق عليهم بما عملوا، فليس المقصود به كتاب التشريع، وشواهد هذا من القرآن كثيرة، فهذا القول الذي اختاره ابن كثير، والقرينة التي ترجحه، -مع أن الآية تحتمل أن يكون المقصود به كل متبوع أو كل مطاع، أو أنه النبي، أو أنه الكتاب الذي أنزل عليهم- أن الله قال بعده: {فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ}، فالإمام هو كتاب الأعمال، فمن أوتيه بيمينه فقد فاز وأفلح، فهذه قرينة من الآية، والأمر الآخر الذي يرجح هذا القول هو الآيات الأخرى الواردة في القرآن التي توضح هذا المعنى وتقويه، وهذا الذي اختاره ابن كثير -والله تعالى أعلم- هو أرجح هذه الأقوال، وهذه المعاني المشار إليها، والقول بأنه كل من يأتمون ويقتدون به في الدنيا، هذا الذي اختاره ابن جرير، وقال به طائفة من السلف، وممن اختاره من المعاصرين الشيخ محمد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، مع أنه ذكر جملة من هذه الأقوال وأيد بعض هذه الأقوال بأدلة من القــرآن، واستحسن ما ذكره الحافظ ابن كثير، وأن ما بعده يدل عليه، لكن كأنه يميل إلى ما سبق، مع أنه نقل كلام ابن جرير من كلام ابن كثير هناك، والله أعلم.

أما هذا الحديث الذي ذكره فقد ضعفه الشيخ ناصر الألباني -رحمه الله- في ضعيف الترمذي[٢].

قوله: {وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى}، **قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد**: {مَن كَانَ فِي هَذِهِ}: **أي في هذه الحياة الدنيا**، والإشارة تكون على مرتبتين، وبعضهم يجعلها على ثلاث مراتب، فللقريب هذا، وهذه للمؤنثة، وذاك للمتوسط، وذلك للبعيد، ومن جعلها على مرتبتين يقول: القريب والبعيد، ولا يقول بالمتوسط، فــ(هذه)، في الآية بعض أهل العلم قال: إنها إلى القريب، وترجع إلى ما ذكر قبله: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً * ... وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ} النعم {أَعْمَى}، لكن هذا فيه بعد، والأقرب والذي عليه عامة المفسرين أنه {مَن كَانَ فِي هَذِهِ} أي: الدنيا {أَعْمَى} أعمى عن ماذا؟ قال هنا نقلاً عن جماعة من السلف: أي **عن حجة الله وآياته وبيناته**، {فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى} **كذلك يكون**، فمن أهل العلم من يقول: {مَن كَانَ فِي هَذِهِ}: يعني الدنيا، {أَعْمَى}: عن حجج الله وآياته الدالة على أن الله هو الذي خلقها وأوجدها، وأنه هو الذي دبرها هذا التدبير الدقيق، وصرفها هذا التصريف العجيب، الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأفلاك، وما يحصل من إنزال المطر، وما يحصل من إخراج النبات، إلى غير ذلك مما يدل على قدرته -سبحانه وتعالى-، وأنه الخالق وحده والمدبر وحده، وأنه المعبود وحده لا شريك له، فمن كان أعمى عن هذه الحقائق التي يشاهدها، ودلائل القدرة، {فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى}، فبعضهم يقول: في شأن الآخرة، أي: إذا لم يعرف هذا الذي يشاهد الدلائل الواضحة أن له مدبِّراً وخالقاً عظيماً وهو يرى هذا التصريف الدقيق العجيب، كيف يتكون الإنسان من النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، وهو في بطن أمه تتكون له الأذن، وتتكون العين، ويتكون الفم، ويتكون الأنف، مع أنه لا يحتاج إلى الأنف في بطن أمه، ولا إلى الفم، ولا إلى العين، ولا إلى أقدامه في بطن أمه ليمشي على الأرض، ولا إلى أصابعه، ولا إلى يديه، وإنما خُلِق ليخرج إلى مكان آخر يحتاج فيه هذه الأمور جميعاً، فهذا الخلق، وهذا التقدير وهذا التصريف العجيب يدل على خالق قادر مدبر مصرِّف مريد عليم، سميع بصير -سبحانه وتعالى-، فمن كان عن هذه الحجج والبراهين الواضحة أعمى فهو عن الآخرة أعمى، وعن أمرها وشأنها وحقيقتها ووجودها، وأنها أمر كائن لا محالة، لأنه إذا كان يعجز عن استكشاف ومعرفة هذا الشيء الذي يراه كل أحد، فكيف بأمر الآخرة التي هي من أمر الغيب؟، فلا شك أنه سيكون أكثر عماية وجهالة وإعراضاً عنها إن كان معرضاً عن هذه الأمور المشهودة، فمن عمِي عن أمر الشهادة فلم يوفق إلى معرفتها، كيف يكون حاله في أمر الغيب؟، فهو عن الآخرة أعمى فهو لا يعرفها ولا يؤمن بها، ولا يرجو لقاء الله -عز وجل-، والبعث بعد الموت والحساب والنشور وما شابه ذلك، فهذا معنىً ذكره طائفة من أهل العلم في هذه الآية، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير، والعمى الأول المذكور في قوله: {وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى} ليس المقصود

---

[٢] - تقدم تخريجه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عمى البصر وإنما المقصود عمى البصيرة، وعمى القلب؛ لأن هذا هو العمى الحقيقي، {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [سورة الحج: (٤٦)]، كما قال بعضهم:

إذا أبصرَ القلبُ المروءةَ والتقَى *** فإن عمى العينين ليس يضيرُ

يقول ابن عباس -رضي الله عنهما- لما كف نظره في آخر حياته:

إنْ يأخذ الله من عينيّ نورَهما *** ففي فؤادي وقلبي منهما نورُ

قلبي ذكيّ وعقلي غير ذي دخلٍ *** وفي فمي صارمٌ كالسيف مشهورُ

فالعمى هو عمى القلب، وليس عمى البصر، فإن الإنسان يعمى بصره ويكون عنده من العلم والمعرفة بالله -عز وجل- ما لا يكون عند ملايين المبصرين، فالعمى الأول هو عمى البصيرة، والعمى الثاني، في قوله: {فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى} يحتمل معنيين:

يحتمل أن يكون في الآخرة أعمى عمى البصر، فيحشر أعمى، كما قال تعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا}[سورة الإسراء: (٩٧)] ويدل عليه قوله -تبارك وتعالى- عن الكافر: {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا}[سورة طه: (١٢٥)]، ولم يكن عنده مقصوداً بصرُ القلب في الدنيا، وإنما يقصد بصر العين، فيحشر أعمى، {لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [سورة طه: (١٢٥-١٢٦)].

ويحتمل أن يكون كما سبق، {فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى}: أي في شأن الآخرة أعمى لا يبصر ولا يعرف أنها كائنة، وأنها أمر لا بد من وقوعه، وأن الله يجزي النفوس بما قدمت وعملت، وأنه حكَم عدْل، إلى آخره، كما سبق من كلام ابن جرير.

وهل أعمى الثانية بمعنى أفعل التفضيل، أي: أشد عمىً؟ إذا فسرت الآية بمعنى عمى البصر، فليس المقصود به أفعل التفضيل قطعاً، وإنما المقصود به أنه يحشر بهذه الصفة من العمى، تقول: فلان أعمى، وليس المقصود: فلان أعمى من فلان؛ لأن عمى البصر لا يتجزأ، فلا يقال: فلان أعمى من فلان، ولا يصح في اللغة، وإنما يقال ذلك في الأشياء التي تتفاضل، تقول: فلان أعلم من فلان، فلان أصح من فلان، فلان أقوى من فلان، وإذا قصد به عمى القلب والجهالة والغفلة عن حقائق الآخرة ودلائلها فيمكن أن يقع فيه التفاضل، تقول: هذا أعمى من هذا في حقائق الآخرة؛ لأن ذلك يتفاوت؛ فهي ظلمات بعضها فوق بعض، فالمعنى: إذا كان جاهلاً مغيباً عن حقائق القدرة وبراهين الوحدانية في الدنيا، وأن الله مصرف لهذا الخلق، ومدبر له، وأنه هو الذي أوجد هذه الحياة، وأنه هو الذي يقوم بتدبيرها وتصريفها بهذا التصريف العجيب الدقيق، فهو في شأن الآخرة التي هي من أمر الغيب أشد عمىً، والله تعالى أعلم.

سؤال: قوله تعالى: {نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ}: هل ترجع كلمة إمام إلى الأم؟

هذا قول لم أذكره؛ لأنه قول في غاية البعد، والحديث الذي ورد في هذا لا يصح بحال، لا يُدعَى الناس يوم القيامة بأسماء أمهاتهم وإنما يدعون، وينسبون إلى آبائهم، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يرفع لكل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غادر يوم القيامة لواء يقال: هذه غدرة فلان بن فلان))[٣] ولم يقل: ابن فلانة، فمن قال: {**نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**}: إن ذلك يرجع إلى الأم، وإنه يُدعى العبد بأمه: فلان ابن فلانة، فهذا باطل لا يصح.

[٣] - صحيح البخاري: (٢٢٨٥/٥) باب ما يدعى الناس بآبائهم: برقم: (٥٨٢٣) ومسلم: (١٣٥٩/٣) باب تحريم الغدر: برقم: (١٧٣٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً} [سورة الإسراء:٧٣-٧٥].

يخبر تعالى عن تأييده رسوله -صلوات الله عليه وسلامه-، وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره مؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، "كاد" تأتي لمقاربة الشيء دون وقوعه؛ ولهذا قال بعده: {وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً}، و"لولا" هذه حرف امتناع لوجود، يعني لولا وجود التثبيت من الله -عز وجل- لوقع الركون إليهم، وهذا الركون إليهم مع أنه قليل -كما وصفه الله تعالى- إلا أن الله توعد نبيه -صلى الله عليه وسلم- بهذا الوعيد الشديد {إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ}، {ضِعْفَ الْحَيَاةِ} أي: عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات، هذا معنى {ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ}، ليس المقصود أن حياته تكون مضاعفة، وإنما أن العذاب الذي يكون في الدنيا يكون مضاعفاً، ضعف الحياة، يعني أن الله يعذبه في الدنيا وفي الآخرة عذاباً مضاعفاً، ذلك أنه كما قيل: على قدر المقام يكون الملام، فإذا علت مرتبة الإنسان كان اللوم المتوجه إليه بسبب المخالفة أكبر؛ ولهذا قال الله تعالى: {يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ} [سورة الأحزاب:٣٢]، وكان مما ذكر منزلتهن وشرفهن على سائر النساء، فقال ضمن ذلك: {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ} [سورة الأحزاب:٣٠]، وقال أيضاً في الثواب: {وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ} [سورة الأحزاب:٣١]، فكان العذاب مضاعفاً لها لمنزلتها ورفعة درجتها، وقربها من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإن تدنيس شرف رسول الله -عليه الصلاة والسلام- ليس كتدنيس شرف غيره.

{وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاّ قَلِيلاً * سُنّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنّتِنَا تَحْوِيلاً} [سورة الإسراء:٧٦-٧٧].

نزلت في كفار قريش لما هموا بإخراج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً، وكذلك وقع، فإنه لم يكن بعد هجرته من بين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أظهرهم بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم؛ ولهذا قال تعالى: {سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا} الآية، أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب، ولولا أنه -صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم- رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ} [سورة الأنفال:٣٣] الآية.

قوله: {وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزّونَكَ مِنَ الأرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاّ قَلِيلاً}، ظاهر كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- الذي فسر به الآية أن ذلك وقع منهم، وأن العقوبة التي توعدهم الله -عز وجل- بها حلت بهم في يوم بدر، ولكن هذا الكلام لا يخلو من إشكال لوجوه متعددة، فمن هذه الوجوه: أن الله -عز وجل- قال: {وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزّونَكَ مِنَ الأرْضِ}، ومعلوم أن "كاد" تدل على المقاربة دون وقوع الشيء، فذلك لم يقع، ومعنى الاستفزاز: الإزعاج، {كَادُواْ لَيَسْتَفِزّونَكَ} بمعنى أنهم يزعجونه -صلى الله عليه وسلم- إزعاجاً يخرجه من بين أظهرهم، {مِنَ الأرْضِ} المقصود بالأرض يعني أرض مكة، فـ"ال" عهدية، والأمر الآخر: أن الله -عز وجل- قال: {وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً}، في القراءة الأخرى المتواترة قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو {خلفك}، والمعنى واحد.

{سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا} يمكن أن يكون منصوباً على نزع الخافض، أو يمكن أن يكون بمقدر محذوف، يعني: سَنّ بهم مثلاً سنة من قد أرسلنا، وسنة الله -تبارك وتعالى- في الأمم السابقة نزول العذاب المستأصل الذي يقطع دابرهم، وهذا لم يقع لأهل مكة، فهذا هو الأمر الثاني، قال: {وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ}، لا يلبثون، {إِلاَّ قَلِيلاً}، فمعنى ذلك أنه يَنزِل عليهم عذابٌ يقطع دابرهم، وهذا لم يقع، وسنته -تبارك وتعالى- في الأمم المكذبة السابقة التي نزلت بها المَثُلات والعقوبات العامة المستأصلة لم تحصل في هذه الأمة، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- عرض عليه الملَكُ أن يطبق عليهم الأخشبين، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- رفض رجاء أن يخرج الله من أصلابهم من يوحد الله -عز وجل- لا يشرك به شيئاً، فالمعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير لا يخلو من إشكال، والذي عليه عامة المفسرين أن ذلك لم يقع، ولا يفسر بيوم بدر، وقد يقول قائل: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج من بين أظهرهم، اضطروه للخروج، والله -عز وجل- أضاف ذلك إليهم {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} [سورة محمد:١٣]، فأضاف الخروج إليهم، {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ} [سورة الممتحنة:١]، وتارة يضيف الخروج إلى المؤمنين، وتارة يورِد ذلك بالبناء للمجهول {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ} [سورة الحج:٤٠] فالشاهد أن خروج النبي -صلى الله عليه وسلم- كان بأمر الله في وقتٍ وقّته، ولهذا لم يهاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- لمجرد أنهم أزعجوه أو اضطروه إلى الخروج، أو أنهم قاموا بإخراجه فعلاً، وإنما كان يصبر على الأذى ويتحمل، ويأمر أصحابه بالصبر، ثم أمرهم فهاجروا إلى الحبشة، وبقي النبي -صلى الله عليه وسلم- ينتظر أمر الله، ثم بعد ذلك جاءه الأمر بالخروج فعرض ذلك على أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- كما هو معلوم- أن يصحبه معه في سفر الهجرة، فهذا هو الجواب الذي يذكر على هذا الإيراد أو السؤال أو الإشكال،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيكون الإخراج المقصود في الآية هو أن يقوم هؤلاء الكفار بإخراجه فعلاً، وأما خروجه -صلى الله عليه وسلم- فكان بأمر الله -تبارك وتعالى-، والله أعلم.

{أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىَ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىَ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً} [سورة الإسراء:٧٨-٧٩].

يقول -تبارك وتعالى- لرسوله -صلى الله عليه وسلم- آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ}.

وقال هشيم عن مغيرة عن الشعبي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: دلوكها زوالها، ورواه نافع عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-، ورواه مالك في تفسيره عن الزهري عن ابن عمر، وقاله أبو برزة الأسلمي -رضي الله تعالى عنه- ومجاهد، وبه قال الحسن والضحاك وأبو جعفر الباقر وقتادة، ومما استشهد عليه ما رواه ابن جرير عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: دعوت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((اخرج يا أبا بكر، فهذا حين دلكت الشمس))[1]، فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس فمن قوله: {لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىَ غَسَقِ اللَّيْلِ} وهو ظلامه -وقيل غروب الشمس- أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

وقوله: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} يعني: صلاة الفجر، وقد ثبتت السنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تواتراً من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر في مواضعه، ولله الحمد.

قوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ} نقل بعض أهل العلم الإجماع على أن هذه الآية في مواقيت الصلاة المكتوبة، وقد مضى بعض الآيات التي تتعلق بهذا المعنى، والدلوك أصله الميل، {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ} أي: لميلها، والذي عليه عامة المفسرين كما نقله عن طائفة من السلف -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- أن الدلوك هو الزوال، وهذا الذي اختاره جمع من أهل اللغة كالأزهري، وكبير المفسرين ابن جرير، وغير هؤلاء كثير، هذا هو المشهور، والقول الآخر: أن الدلوك بمعنى الغروب، وهذا أيضاً قال به بعض أهل اللغة، قال به طائفة من السلف، إلا أن القول الأول أشهر، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- جمع بين القولين فذهب إلى أن الدلوك يصدق على هذا وهذا، وأن ذلك من جهة الدلوك له مبدأ ومنتهى، فمبدؤه ميل الشمس عند الزوال، ومنتهاه الغروب، فيدخل بدلوك الشمس في قوله: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ} -إذا مالت عن كبد السماء بعد الظهر- صلاة الظهر وصلاة العصر.

{إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} أي: ظلامه، إذا أقبل الليل بظلامه فذاك غسقه، فيدخل فيه المغرب والعشاء، {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} صلاة الفجر هذا هو المشهور، -والله تعالى أعلم-، ومن أهل العلم من يقول: إن أصل كلمة "غسق" بمعنى السيلان، غسقتْ أي سالت، والمقصود بإقبال الليل ظلامه، ونحو هذا من العبارات التي يذكرها السلف

---

١ - جامع البيان في تأويل القرآن، للإمام الطبري (٥١٨/١٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

-رضي الله تعالى عنهم-، **قال**: {لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} **وهو ظلامه، وقيل: غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر**.. إلى آخره"، وقوله: وقيل: غروب الشمس، يحتمل أنه يقصد القول الثاني في المسألة، معنى دلوك الشمس، قيل: الزوال، وقيل: غروب الشمس، فيكون ذكر القولين، ويكون غروب الشمس تفسيراً لغسق الليل، هذا قال به بعضهم، ولا منافاة، فإن غروب الشمس يعني إقبال الليل، كما قال الله -عز وجل-: {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} [سورة الفلق:٣] الغاسق قيل: القمر إذا غاب، وقيل: إذا طلع، وبعضهم فسر الغاسق بالليل، وهذان القولان متلازمان، بمعنى أن القمر آية الليل، فإذا ظهر القمر فمعنى ذلك أن الظلام قد وُجد وأن الليل قد حل، {غَسَقِ اللَّيْلِ} أي: ظلامه، وقيل: غروب الشمس، فالقولان متلازمان، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، يعني إلى هذا القدر، {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ}، أربعة فروض.

{وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} قال: يعني صلاة الفجر، وقد ثبت بالسنة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-..إلى آخره.

وتسمية صلاة الفجر بقرآن الفجر هو تسمية للشيء بجزئه، وهذا يدل على أن القراءة في الصلاة مطلوبة، وأنها ركن فيها؛ لأن القاعدة أن الشيء لا يسمى بجزئه إلا إذا كان هذا الجزء لا ينفك، كما يقال عن الإنسان: إنه رقبة، ولا يقال عنه: إنه يد، فاليد من الممكن أن تُقطع ويعيش الإنسان، لكن إذا قطعت الرقبة لا يعيش، فإنما يطلق على الشيء بجزء منه إذا كان هذا الجزء غير منفك، ومن هنا أُخذ استنباط أن القراءة في الصلاة ركن، ولا شك أن القدر الذي يصدق عليه هذا هو قراءة سورة الفاتحة، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها، {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ}، وليس المقصود به القراءة خارج الصلاة أو في السنّة الراتبة، وإنما قرآن الفجر هو القراءة في صلاة الفجر.

وقول الله -عز وجل-: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} فـ{قُرْآنَ} منصوبة؛ لأنها معطوفة على الصلاة، أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر، يكون هذا المعنى: أمر بإقامة الصلاة وإقامة قرآن الفجر، ويكون هذا تأكيداً له؛ لأنه داخل في عموم الصلاة، لكن الله -عز وجل- ذكر في الأول الفروض الأربعة، من قوله: {لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} ثم قال: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} وصلاة الفجر، وبعضهم يقول: منصوب على الإغراء: وعليك قرآن الفجر.

{إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً} عن ابن مسعود عن أبي هريرة -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه الآية {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً} قال: ((تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار))[٢]**، وروى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر)) يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً}**[٣].

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود وأبي هريرة -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً} قال: ((تشهده ملائكة الليل وملائكة

---

٢ - رواه ابن ماجه، كتاب الصلاة، باب وقت صلاة الفجر، برقم (٦٧٠)، والحاكم في المستدرك (٣٣٠/١)، برقم (٧٦٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح (٦٣٥).

٣ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}، برقم (٤٤٤٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النهار))[٤]، ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وفي لفظ في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم -وهو أعلم بكم- كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون))[٥]، وقال عبد الله بن مسعود: يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء، وكذا قال إبراهيم النخعي ومجاهد وقتادة وغير واحد في تفسير هذه الآية.

قوله: {إِنّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً} تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، وهذا تدل عليه الأحاديث، والقول الآخر: أي يشهده الله -تبارك وتعالى- وتشهده ملائكته، هذا القول قد تدل عليه بعض الروايات الواردة في حديث النزول فإن في بعضها: ((حتى يضيء الفجر))، وفي بعضها ((حتى يسطع))، فحتى يضيء الفجر: إذا أضاء الفجر فهذا هو وقت الصلاة، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يصلي الصبح بغلس، وحينما ينصرف كان النساء لا يُعرفن من الغلس، من الظلام، وقد جاء في رواية عند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- في حديث النزول: ((ينزل الله -عز وجل- إلى سماء الدنيا لنصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟)) إلى أن قال: ((حتى يطلع الفجر أو ينصرف القارئ من صلاة الصبح))[٦]، وهذا الحديث صححه الشيخ الألباني -رحمه الله- في تعليقه على السنة لابن أبي عاصم، وقوله: ((أو ينصرف القارئ)) يحتمل أن الذي قال هذه الجملة: ((أو ينصرف)) النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني بهذا السياق، ويحتمل أن يكون ذلك شكًّا من الراوي، فالحاصل أن مثل هذا الحديث يمكن أن يستدل به على هذا القول: يشهده الله -عز وجل- والملائكة، فالله -عز وجل- ينزل إلى سماء الدنيا فيقول: ((من يدعوني)) إلى آخره، ((حتى ينصرف القارئ من صلاة الصبح))،... يكون هذا تفسيراً لقوله: {إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}، يشهده الله وملائكته، والأمر كما قال بعض أهل العلم: إنه لا منافاة بين القولين، يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، ويشهده الله جل جلاله، فأصحاب هذا القول ما نفوا القول الآخر بل أثبتوه وزادوا عليه، وهذا معنىً كبير ليس بالشيء السهل، فالله -عز وجل- جعل هذه الشهود، وإلا فإن الله -عز وجل- على كل شيء شهيد، مطلع على الخلق، سامعٌ لأقوالهم، مبصرٌ لجميع أعمالهم، وحركاتهم وسكناتهم، نافذ البصر فيهم، لكن هذا شهود خاص لصلاة الصبح.

---

٤ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة بني إسرائيل، برقم (٣١٣٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، كتاب الصلاة، باب وقت صلاة الفجر، برقم (٦٧٠)، والحاكم في المستدرك (٣٣٠/١)، برقم (٧٦٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ومسلم بلفظ قريب منه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، برقم (٦٤٩).

٥ - رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، برقم (٥٣٠)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، برقم (٦٣٢).

٦ - رواه أحمد في المسند (٣٢٠/١٦)، برقم (١٠٥٤٤)، وقال محققوه: صحيح دون قوله: "أو ينصرف القارئ... إلخ"، وصححه الألباني في تحقيق ظلال الجنة برقم (٤٩٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ} أمْرٌ له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: ((صلاة الليل))[٧]؛ ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد ما كان بعد نوم. قاله علقمة والأسود وإبراهيم النخعي وغير واحد، وهو المعروف في لغة العرب، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس وعائشة وغير واحد من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، كما هو مبسوط في موضعه، ولله الحمد والمنة.

قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ}، "مِن" هذه تبعيضية؛ لأنه لا يطالب بقيام كل الليل، ذكر طائفة من أهل العلم أن الضمير عائد إلى القرآن، تهجدْ به، أي بالقرآن، و{تَهَجَّدْ} من الهجود، والهجود كما قال ابن الأعرابي -وهو إمام كبير من أئمة اللغة المتقدمين، من أهل السنة-: إن ذلك من الأضداد، أي إنها تدل على المعنى وضده، فتقول: هجد بمعنى نام، ويقال أيضاً: الهجود بمعنى السهر، فهو يقول: إن هذه اللفظة هنا {فَتَهَجَّدْ بِهِ} لفظة تهجد أو هجد تدل على معنيين متضادين، والأزهري -رحمه الله- وهو إمام من أئمة اللغة وهو من أهل السنة- يقول: إن أصل ذلك من النوم، تقول: هجد، اهجد، هجدوا يعني ناموا، لكن التفعُّل، تهجّدْ يدل على التباعد، كما تقول: تأثّمْ وتحرّجْ، الحرج معروف، والإثم معروف، فتحرجْ يعني تجافَ عن الحرج، وتأثمْ تجافَ عن الإثم، فتكون تهجدْ بمعني تجافَ عن الهجود، كما قال الله -عز وجل-: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} [سورة السجدة:١٦] فهو يتباعد عن الهجود عن النوم ليقوم يصلي، وهذا المعنى الذي ذكره حسن، {فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ}، وكون هذه اللفظة تدل على قول من قال: إنه يكون بعد النوم لا ينفي عن كون الصلاة التي يصليها الإنسان من بعد العشاء، ولو قبل النوم، أو لم ينم أصلاً طول الليل، فلو قام من وسطه أو آخره أو أوله، لا ينفي أن كل هذا من قيام الليل، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} [سورة المزمل:٦]، بعض أهل العلم فسر الناشئة بالصلاة التي تكون بعد النوم، والتهجد غالباً ما يعبر به على الصلاة أو القيام الذي يكون بعد نوم، ولا شك أن هذا أفضل من الصلاة التي لا تكون بعد نوم -والله تعالى أعلم-، وذلك من وجهين، الوجه الأول: لما يتطلبه ذلك من المجاهدة، وورد في هذا أحاديث في القيام من النوم ليصلي الإنسان، فيمن يضحك له الله -تبارك وتعالى-، وأن ذلك يكون أدعى للاستحضار، حضور القلب، فإن الإنسان إذا نام واستراح كان ذلك أصفى ما يكون في الذهن، ولهذا العلماء يذكرون فيما يتعلق بالعلم والتعلم والحفظ وما أشبه ذلك، يذكرون السَّحَر، بحيث يكون الإنسان قد استراح، أما بعد العشاء فالإنسان يكون مشوشاً فكره بسبب سائر أعمال اليوم ، ويكون في غاية الإجهاد، يحتاج إلى الراحة، فالذهن يكون في حالٍ من الضعف والكلال، بخلاف ما إذا نام، فإنه يكون قد استعاد نشاطه وقوته، ويكون أدعى لحضور القلب، وهو الذي اختاره ابن جرير، والأزهري -رحمهما الله-، والله المستعان.

---

٧ - رواه مسلم، كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم، برقم (١١٦٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تتمة تفسيره لقول الله -جل وعلا-: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ} [سورة الإسراء:٧٩] الآية.

قال: وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء، ويحمل على ما كان بعد النوم.

وقوله تعالى: {نَافِلَةً لَّكَ} إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواتُه النوافلُ الذنوبَ التي عليه، قاله مجاهد، وهو في المسند عن أبي أمامة الباهلي -رضي الله تعالى عنه-.

وقوله: {عَسَىَ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} أي: افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً، يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم -تبارك وتعالى-، قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه محمد -صلى الله عليه وسلم- يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم، عن حذيفة -رضي الله تعالى عنه- قال: يجمع الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، حفاة عراة كما خلقوا، قياماً لا تَكلَّم نفس إلا بإذنه، ينادي: يا محمد، فيقول: ((لبيك وسعديك، والخير في يديك والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك، ومنك وإليك لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت))[١] فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله -عز وجل-. وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة، وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد، وقاله الحسن البصري.

وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله تعالى: {عَسَىَ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً}، قلت: لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد، فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعدما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: لست لها، حتى يأتوا إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- فيقول: ((أنا لها، أنا لها))[٢] كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع إن شاء الله تعالى.

---

١ - رواه البزار في مسنده برقم (٢٩٢٦)، والطيالسي برقم (٤١٤)، وعبد الرزاق الصنعاني في مصنفه برقم (٢٥٦٦)، وصححه الألباني في ظلال الجنة برقم (٧٨٩).

٢ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب -عز وجل- يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، برقم (٧٠٧٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها، وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته، وهو أول شفيع في الجنة كما ثبت في صحيح مسلم.

وفي حديث الصور أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته، وهو أول داخل إليها، وأمته قبل الأمم كلهم، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لا تليق إلا له، وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة، شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك، وقد بسطت ذلك مستقصى في آخر كتاب السيرة في باب الخصائص، ولله الحمد والمنة، ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود وبالله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} النافلة الزيادة، فمن نظر إلى أن الزيادة هنا بمعنى الزيادة على الأصل فسر ذلك بأنها زائدة على الفرائض، فالله -عز وجل- ذكر قبل ذلك الصلوات الخمس {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ} [سورة الإسراء:٧٨] إلى آخره، ثم قال: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ} زيادة على الفرائض، فيكون ذلك زيادة في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أنه مفروض عليه، والقول بأن قيام الليل كان فرضاً عليه -عليه الصلاة والسلام- قول قوي معتبر -والله تعالى أعلم-، لقوله: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة المزمل:٢] فهذا أمر، والأصل أن الأمر للوجوب، وهذا الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، فقال: إن قيام الليل واجب على النبي -عليه الصلاة والسلام-، زائد على الفرائض، أي أنه مفروض عليه مع -أو زيادة- على الفرائض الخمس، وقال الحافظ -رحمه الله-: "**إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفِّر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه، قاله مجاهد**"، وهذا القول عن مجاهد عزاه الواحدي إلى المفسرين، يعني أنه قول المفسرين، باعتبار أن الناس يعملون في محو سيئاتهم، وأما النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد غفر له الذنوب والسيئات، فعمله في رفعة الدرجات والشكران لله -جل جلاله-، فليس هناك سيئات تكفر، فالله قد غفر له، وهذا القول الذي عزاه الواحدي إلى المفسرين رده ابن جرير -رحمه الله-، واحتج لذلك بأمور، من ذلك أن الله -عز وجل- قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم- في آخر حياته مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [سورة النصر:٣]، فأمره بالاستغفار مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثر في ركوعه وسجوده من قول: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي))[٣]، وأن النبي -صلى الله عليه

---

٣ - رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب الدعاء في الركوع، برقم (٧٦١)، وفي كتاب التفسير، باب تفسير سورة: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ}، برقم (٤٦٨٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، برقم (٤٨٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسلم- كانوا يحصون له في المجلس الواحد من الاستغفار ما يزيد عن المائة مرة[٤]، مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه، فابن جرير -رحمه الله- لا يوجه المعنى إلى هذا، {نَافِلَةً لَّكَ} بمعنى أنه مجرد فضيلة ورفعة في الدرجات وزيادة في الأجر والحسنات وأن غيره من الأمة ليس ذلك بنافلة في حقه بل هو كما قال الله -عز وجل-: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}[سورة هود:١١٤]، فهم يعملون في سبيل تكفير الذنوب وحط الخطايا والسيئات، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يرى أن النافلة أعم من أن تكون زيادة على الفريضة، أو أن تكون بمعنى قول الفقهاء: إنه ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، وأن المعنى أوسع من هذا وأعم من ذلك، فهو لا يوافق على تحديد ذلك بمعنىً عرفي جرى عليه الاستعمال في العصور المتأخرة، فعند ابن القيم -رحمه الله- {نَافِلَةً لَّكَ} أي: زيادة لك في رفع الدرجات، بغض النظر عن حكمه، قد يكون هذا الذي يرفع به الدرجات من قبيل الفرض، وقد يكون من قبيل النفل، وظاهر كلامه -رحمه الله- أن قيام الليل في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- واجب، وعبر هنا بالنافلة؛ لأنه رفع في درجاته -عليه الصلاة والسلام-، وهذا في الواقع عند التأمل يشبه قول مجاهد، لكن قول مجاهد لم يتعرض فيه صراحة إلى أنه فرض أو ليس بفرض، وإنما ذكر أن الناس بالنسبة إليهم تكفر الذنوب والسيئات فهم يعملون الصالحات من أجل تكفيرها، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يعمل ليزداد ثواباً وليس هناك ذنوب تكفر، فهذا خلاصة كلام ابن القيم -رحمه الله-، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة المزمل:٢] أمر يفيد الوجوب، وقوله -تبارك وتعالى-: {عَسَىَ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً}، نُقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره من السلف: أن "عسى" من الله واجبة، وبعضهم يقول: "عسى" من الله موجبة، وهكذا أيضاً يقولون: "لعل" من الله واجبة، يعني أن "عسى" في أصل معناها تفيد الترجي، والله -تبارك وتعالى- لا يترجى، وإنما يكون الترجي ممن لا يعلم العواقب، أما الله –عزوجل- فيعلم كل شيء بيده مقاليد الأمور، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فإذا قال: {عَسَىَ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً} فهذا أمر سيقع، وأن الله سيبعثه، هو وعد خرج بهذه الصيغة على طريقة كلام العرب واستعمالاتهم، فإن العظيم منهم من الملوك والعظماء إذا أخرج الوعد فإنما يخرجه غالباً بهذه الطريقة، يقول: عسى أن نحقق لك ما طلبت، عسى أن يحصل لك مقصودك ونحو ذلك، ويفهم منه أنه وعَدَ بذلك وعداً جازماً، لكنه أخرجه بهذه الطريقة، وقوله تبارك وتعالى: {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً} [سورة الممتحنة:٧]، لابد أن يكون، وقد حصل، وأبو سفيان هو أول من قاتل أهل الردة، فإنه قدم من اليمن، وتوفي النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في الطريق، فلقي ذا الخمار وقد ارتد عن الإسلام، فقاتله قبل قتال الصديق، مع أن أبا سفيان هو الذي كان يقود جيوش الشرك، فتحولت تلك العداوة إلى محبة، وكان يحرض الناس في يوم اليرموك على الجهاد والصبر، ويثبتهم بعد ما كان من الشرك والعداوة التي كان يكنها

---

٤ - رواه أبو داود من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-، كتاب سجود القرآن، باب في الاستغفار، رقم (١٥١٦)، والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما يقول إذا قام من المجلس، برقم (٣٤٣٤)، وابن حبان في صحيحه برقم (٩٢٧)، وقال الألباني في صحيح أبي داود: "إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه ابن حبان والترمذي"، برقم (١٣٥٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لهذا الدين، {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً}، وأسلم عكرمة، وأسلم خالد بن الوليد الذي كان سبباً في هزيمة المسلمين في يوم أحد، فالشاهد أن "عسى" و"لعل" موجبة، {لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} [سورة الطلاق:١] وهو الرجعة لمن التزم بما أمر الله -عز وجل- به في شأن الطلاق، {إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} وقال: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [سورة النساء:١٩]، فإذا طبقت هذه المعاني فلا ينتظر بعد ذلك إلا الرجعة، والمقام المحمود يحتمل أن يكون هذا اللفظ المفرد يقصد به معنىً مفرد، بمعنى الشفاعة العظمى، وهذا الذي ذهب إليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، وهو قول الجمهور، وتدل عليه الأحاديث التي أورد بعضها المصنف في الشفاعة العظمى، وهنا قال: {عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} جاءت منصوبة، يحتمل أن يكون بتضمين بعث معنى أقام، أي عسى أن يقيمك ربك مقاماً محموداً، ويمكن أن يكون نصب "مقاماً" على الظرفية، ويمكن أن يكون على الحال أي ذا مقام محمود، ويحتمل أن يكون المقام هنا لفظه مفرد ومعناه العموم، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}[سورة البقرة:١٢٥]، فمقام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- في القولان، قيل: المقام الذي يصلى خلفه، {وَاتَّخِذُواْ} وتكون الآية في هذا المعنى، ويدل عليه سبب النزول، فإن هذا من موافقات عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- فإنه قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، ويقصد به الحجر الذي قد انطبعت عليه أثر القدم، فنزلت {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}، وفي القراءة الأخرى: {وَاتَّخَذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}، فيه معنيان الأول: تصلون خلفه، أي خلف المقام، والمعنى الثاني وهو لا ينافي المعنى الأول لكنه أعم منه أي: من مقامات إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- في الحج، {مُصَلًّى} أي: متعبداً، وهذا معنىً له وجه، ولا ينافي المعنى الأول، وهو أعم منه، فمن ذلك الصلاة خلف المقام المعروف، والوقوف في عرفة، والمبيت في مزدلفة، والبقاء في منى، ورمي الجمار، وكل ذلك فهو من مقاماته -صلى الله عليه وسلم- في الحج، فيتخذ ذلك متعبَّداً، فهذا المعنى أعم {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ}، والكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يشعر بأنه يريد بذلك ما هو أعم من الشفاعة، فالشفاعة داخلة فيه ولكن كل مقام محمود للنبي -صلى الله عليه وسلم- في الآخرة فهو داخل في هذا، كونه أول من يدخل الجنة، وأول من يستفتح باب الجنة، وحامل لواء الحمد -عليه الصلاة والسلام-، إلى غير ذلك من الخصائص التي تكون له في الآخرة، والذين يصنفون في الخصائص يذكرون خصائص النبي -صلى الله عليه وسلم- في الآخرة، وخصائص النبي -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا، ويذكرون خصائص أمته في الدنيا، وخصائص أمته في الآخرة، الشاهد أن الآية تحتمل هذا المعنى، {عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} أي: في مقامات شريفة عظيمة، يحمده عليها الخلائق، فيدخل في ذلك دخولاً أولياً الشفاعة العظمى، مع العلم بأنك لو تأملت الروايات الواردة في الشفاعة وهي كثيرة جداً، لا تجد في الروايات الصحيحة ما يصرح بالفصل بين الخلائق عموماً، حسب ما وقفت عليه، ومن محاولة تتبع الروايات، وإنما الأحاديث في أنه -عليه الصلاة والسلام- يقول: ((أمتي أمتي)) فيدعو، مع أن أهل العلم يكادون يطبقون على أن الشفاعة العظمى هي الفصل بين الخلائق حينما يبلغ العرق من الناس ويشتد الموقف والكرب، فيفصل بين الخلائق، والروايات قد لا تجد فيها ما يصرح بهذا، وحينما يسجد -عليه الصلاة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والسلام- يقال له: ((ارفع رأسك وسل تُعطَ واشفع))[٥]، فيسأل لأمته -عليه الصلاة والسلام-، لكن يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن ذلك يقتضي ويستلزم الفصل بين الخلائق، فإن أمتهم لا يحصل لهم ذلك إلا بعد أن يفصل الله -عز وجل- بين الناس، ويقضي بينهم، فيذهب من يذهب إلى الجنة، ويذهب من يذهب إلى النار، فتكون أمته أول من يدخل الجنة، فيكون ذلك مضمناً في هذا المعنى، -والله تعالى أعلم-.

ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود وبالله المستعان.

روى البخاري عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- يقول: "إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً"[٦].

المقصود بقوله: "جُثاً" هنا ليس بمعنى جاثين -يعني يجثون على الركب-، وإنما "جثاً" هنا جمع جثوة، وهي الجمع أو الجماعة، يبعثون جماعات كل أمة تتبع نبيها.

روى ابن جرير عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم فيقول: لست بصاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً))[٧]، وهكذا رواه البخاري في الزكاة وزاد: ((فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم))[٨].

وروى أبو داود الطيالسي عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: ثم يأذن الله -عز وجل- في الشفاعة فيقوم روح القدس جبريل، ثم يقوم إبراهيم خليل الله، ثم يقوم عيسى أو موسى -قال أبوالزعراء: لا أدري أيهما- قال: ثم يقوم نبيكم -صلى الله عليه وسلم- رابعاً، فيشفع لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفع، وهو المقام المحمود الذي قال الله -عز وجل-: {عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا}.

روى الإمام أحمد -رحمه الله- عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: أتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه، فنهش منه نهشة، ثم قال: ((أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم؟، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟، فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم فيأتون آدم -عليه السلام- فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟، ألا ترى ما قد بلغنا؟، فيقول آدم: إن ربي قد غضب

---

٥ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}، برقم (٤٤٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣).

٦ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا}، برقم (٤٤٤١).

٧ - رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٢٩/١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٤٦٠).

٨ - رواه البخاري، من حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثرا، برقم (١٤٠٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟، ألا ترى ما قد بلغنا؟، فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله قط، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟، ألا ترى ما قد بلغنا؟، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى -عليه السلام- فيقولون: يا موسى أنت رسول الله اصطفاك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟، ألا ترى ما قد بلغنا؟، فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلّمت الناس في المهد صبياً، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد -صلى الله عليه وسلم-، فيأتون محمداً -صلى الله عليه وسلم- فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي -عز وجل- ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطهْ واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبُصرى))[٩]. **أخرجاه في الصحيحين.**

صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يقول: ((يأتي عليه يوم وهو كَظيظٌ من الزحام))[١٠]، ثمانية أبواب بهذا المقدار، أسأل الله -عز وجل- أن يجعلنا وإياكم منهم.

وحينما يقال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اشفع تشفع يقول: أمتي يا رب أمتي يا رب))، هذا لا يكون إلا بعد فصل القضاء بين الناس، فيزول عنهم الكرب الذي حصل؛ لأنهم حينما كانوا ينتظرون ويشتد عليهم الأمر فيشفع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيقضي الله -عز وجل- بين الناس، ثم يكون أول من يدخل الجنة

---

٩ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}، برقم (٤٤٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤).

١٠ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هم أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، بهذا المعنى، لكن قد لا تجد ما يصرح بذلك في الروايات، -والله أعلم-.

سؤال:

أهل التأويل هل هم أهل التفسير؟ وما الفرق بين لفظة التفسير والتأويل؟

الكلام في هذا كثير جداً، وخلاصة الصحيح منه بعيداً عن التكلف وبعيداً عن كلام أهل البدع: أن التأويل تارة يأتي بمعنى التفسير، تأويل الآية كذا أي تفسيرها، ((وعلِّمه التأويل))[١١] يعني التفسير، فتأويل الكلام أي تفسيره، وتارة تأتي لفظة التأويل لمعنىً آخر غير التفسير، فلا تكن متفقة معه، فإذا قلت مثلاً: تأويل الرؤيا بمعنى تفسير الرؤيا، فهذا موافق للتفسير، ويأتي بمعنى فعل الامتثال، فعل ما أمر الله به مثلاً، فتحقيق الأمر يقال له: تأويل، والله حينما قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ}** كان النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- يكثر في ركوعه وسجوده يقول: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي))[١٢] يتأول القرآن، يعني يمتثل، يحقق، ينفذ، ويأتي أيضاً لمعنىً ثالث، وهو فيما يتصل بالأخبار، وذلك بوقوع المخبر به، أي بتحققه، **{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ}** [سورة الأعراف:٥٣]، **{يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ}** يعني: وقوع وتحقق ما أخبر به من الأهوال والأوجال التي تكون في الآخرة والبعث والنشور والحساب والجنة والنار، فهذا تأويله، وتأويل الخبر وقوع المخبر، وتأويل الرؤيا بالمعنى الآخر وقوعها وتحققها قال: **{هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ}** [سورة يوسف:١٠٠]، يعني هذا مصداق تحققها ووقوعها، بينما في الآية الأخرى حينما قال: **{نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ}** [سورة يوسف:٣٦] تأويل الرؤيا، رؤيا الملِك، يعني نبئنا بتسفيره، فتأويل الرؤيا يأتي بمعنى تفسير الرؤيا ويأتي بمعنى تحقق الرؤيا، ووقوعها، فهذه ثلاثة معانٍ على سبيل التفصيل للتأويل، الأول منها هو الذي يوافق التفسير، والمعنيان بعده مغايران له، وهناك معنىً آخر شاع عند المتأخرين ولم يكن معروفاً عند السلف وهو صرف الكلام من المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح، فهذا كما سبق -في الأصول وكما سبق في عدد من المناسبات- ثلاثة أنواع، فما كان لدليل فإنه يكون تأويلاً صحيحاً، وقد يكون لدليل لا يصح فيكون تأويلاً بعيداً، أو لشبهة أو نحو ذلك، ويمثل الأصوليون على ذلك بتأويل الأحناف: ((أيما امرأة نكحت نفسها بغير

---

١١ - رواه أحمد في المسند (٤/٢٢٥)، برقم (٢٣٩٧)، وقال محققوه: إسناده قوي على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن عثمان بن خثيم، فمن رجال مسلم، وهو صدوق، وابن حبان في صحيحه برقم (٧٠٥٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٥٨٩).

١٢ - رواه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب الدعاء في الركوع، برقم (٧٦١)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، برقم (٤٨٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذن وليها فنكاحها باطل))[١٣] قالوا: المقصود الصغيرة، أما الكبيرة فلها أن تعقد على نفسها، لأنها تعرف مصلحتها، فقيل لهم: النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((امرأة)) والصغيرة ليست امرأة، فلجئوا إلى القول بأن المقصود المكاتبة، فيقال: المرأة أعم من ذلك، ولا يحمل على معنىً قليل أو نادر، فهذا يسمى تأويل بعيد، والقسم الثالث الذي يسميه الأصوليون باللعب،

"وما خلا فلعباً يفيد"

وذلك مثل تأويلات الرافضة لقوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} [سورة البقرة:٦٧] قالوا: عائشة -رضي الله تعالى عنها-، {يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ} [سورة النساء:٥١] يقولون: أبوبكر وعمر، وقول بعض الصوفية {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} قالوا: هي النفس تذبح بسكين الطاعة، فهذا لعب، وتحريف للكلم عن مواضعه، ومثل تأويلات الباطنية الفاسدة، يؤولون الصفا والمروة بالإمام، أو بعليّ، أو النبي وعليّ، أو الإمام والولي، وما شابه ذلك من الخزعبلات، وتأويل الفاطمية لقوله تعالى: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [سورة النصر:١] يقولون زوراً وبهتاناً: هم العبيديون، فيقول كبيرهم لاثنين من كُتَّامِه وقد سمى أحدهما بنصْر الله والثاني بالفتح، يقول: أنتما من عنى الله بقوله: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}، وهكذا قوله تعالى: {وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} [سورة الجمعة:١١] يقول: كوك: هذا اسمه كوك، وهكذا، -والله أعلم-.

---

١٣ - رواه الترمذي، كتاب النكاح، باب ما جاء لا نكاح إلا بولي، برقم (١١٠٢)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، برقم (١٨٨٠)، وأحمد في المسند (٤٠/٤٣٥)، برقم(٢٤٣٧٢)، وقال محققوه: حديث صحيح، والحاكم في المستدرك برقم (٢٧٠٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٧٠٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك علي نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: حكم التهجد في حقه -صلي الله عليه وسلم:

قد اختلف السلف والخلف في أنه هل كان فرضا عليه أم لا؟ والطائفتان احتجوا بقوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ}[سورة الإسراء: (٧٩)]، قالوا: فهذا صريح في عدم الوجوب قال الآخرون: أمره بالتهجد في هذه السورة كما أمره في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة المزمل: (١-٢)] ولم يجئ ما ينسخه عنه، وأما قوله تعالى: {نَافِلَةً لَّكَ} فلو كان المراد به التطوع لم يخصه بكونه نافلة له، وإنما المراد بالنافلة الزيادة، ومطلق الزيادة لا يدل على التطوع، قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً} [سورة الأنبياء: (٧٢)] أي زيادة على الولد، وكذلك النافلة في تهجد النبي -صلي الله عليه وسلم- زيادة في درجاته وفي أجره؛ ولهذا خصه بها، فإن قيام الليل في حق غيره مباح ومكفر للسيئات، وأما النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهو يعمل على زيادة الدرجات وعلو المراتب، وغيرُه يعمل في التكفير، قال مجاهد: إنما كان نافلة للنبي -صلى الله عليه وسلم- لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت طاعته نافلة، أي زيادة في الثواب، ولغيره كفارة لذنوبه. قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا يعلى بن أبي عبيد قال: حدثنا الحجاج عن ابن جريج عن عبد الله بن كثير عن مجاهد قال: ما سوى المكتوبة فهو نافلة، من أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب، وليست للناس نوافل إنما هي للنبي -صلى الله عليه وسلم- خاصة والناس جميعاً يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها.

{وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا * وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}. [سورة الإسراء: (٨٠-٨١)].

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا}، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، فأراد الله قتال أهل مكة، أمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال -الله عز وجل-: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ} الآية.

وقال قتادة {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ}: يعني المدينة، {وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ}: يعني مكة، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا} قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له. وقال قتادة فيها: إن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم علي بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم، فلا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناواه؛ ولهذا يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ} إلى قوله: {وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ} [سورة الحديد: (٢٥)] الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا}، المدخل والمخرج مصدران، بمعنى الإدخال والإخراج، والإضافة هنا إلى الصدق {مُدْخَلَ صِدْقٍ} و{مُخْرَجَ صِدْقٍ} يمكن أن تكون للمبالغة، كالمبالغة في قولهم: حاتم الجود، مدخل صدق ومخرج صدق، وهذا المُدخل اختلفوا فيه كثيراً، والقول الذي نقله عن بعض السلف كعبد الرحمن بن زيد وقتادة قال: المدخل: المدينة، والمخرج: مكة، هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، واحتج له بما قبله، ورأى أن ذلك قرينة دالة على رجحانه وقوته؛ لأن الله قال قبله: {وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ} [سورة الإسراء: (٧٦)] أي: من أرض مكة، {لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا}، فقال بعده: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ}، أي: أخرجني من مكة، وأدخلني المدينة بهذه الصفة، وبعضهم حمل ذلك على الإماتة والبعث، أي: أدخلني في الموت مدخل صدق، وأخرجني في البعث مخرج صدق، وبعضهم حمله على باب المأمورات والمنهيات، أي: أدخلني فيما أمرتني به من طاعتك مدخل صدق، وأخرجني مما نهيتني عنه من معصيتك مخرج صدق، وبعضهم يقول: أدخلني في الأمن مدخل صدق، وأخرجني من المخاوف مخرج صدق؛ لأنه قال قبله: {وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ}، وبعضهم يقول: أخرجني من بين المشركين مخرج صدق، وأدخلني مدخل صدق، وبعضهم يقول: إن المقصود أدخلني مدخل عز، وأخرجني مخرج نصر، وبعضهم يقول: هذا يتعلق بأمر النبوة، أدخلني فيها لمّا أكرمتني بها مدخل صدق، وأخرجني منها أي: من تبعاتها مخرج صدق، فلا يحصل تقصير في البلاغ، والقيام بأمر الله -تبارك وتعالى-، أخرجني منه إذا توفيتني مخرج صدق، وبعضهم يقول: أدخلني في القبر مدخل صدق، وأخرجني منه بالبعث مخرج صدق، وهذه الأقوال لا يوجد دليل على واحد منها بعينه، غاية ما هنالك أن بعض هذه الأقوال ربما احتُج له بقرينة تشعر عند القائل به برجحان قوله، ولعل الأحسن من هذا كله -والله تعالى أعلم- قول من حمل ذلك على العموم، وقال: الله لم يحدد، وهذا دعاء علّمه الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ} في الأمور كلها، ومن ذلك المدينة، المهاجر الذي يهاجر إليه، وهكذا في كل شأن يدخل فيه من الأمور الحسية والمعنوية، {وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ} في كل ما يخرج منه، سواء كان ذلك من الفراغ من الأمور المعنوية، أو الخروج حساً مما يخرج منه، والعلم عند الله -عز وجل-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال: {وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا} السلطان هنا -كما في المواضع الأخرى- بعضهم حمله على الحجة القاهرة، {وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا} [سورة القصص: (٣٥)]، {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} [سورة الإسراء: (٣٣)]، فبعضهم يقول: أي الحجة القاهرة يغلب بها أعداءه، مَن خالفه وناوأه، ويظهر عليهم بالحجة والبرهان، وبعضهم يقول: المقصود بذلك العز القاهر والقوة الغالبة، ويكون ذلك بالتمكن والملك، وعلى كل حال {وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا}: يقول الحافظ ابن كثير: **قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له، وقال قتادة: إن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله ولحدود الله ولفرائض الله ولإقامة دين الله**، فيكون هنا بمعنى الملك، وليس بمعنى الحجة، فهذا القول اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وهو الذي يظهر أنه رجحه ابن كثير، وقد صرح برجحانه -أن المقصود العز القاهر والقوة الغالبة وليس الحجة-، وابن جرير ذكر هذا، ولكن من تأمل قوله من أوله إلى آخره يجد أنه جمع بين القولين؛ لأنه قال آخراً بعدما ذكر هذا المعنى: العز والغلبة والملك والقهر، قال: وذلك لا يكون إلا بحجة قاهرة، فهذه الجملة الأخيرة في كلام ابن جرير -رحمه الله- تدل على أنه قصد الجمع بين القولين، وهذا جيد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- حصل له هذا وهذا.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى ذكره: {رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ}: أمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، وأخبر عن خليله إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين، فقال: {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [سورة الشعراء: (٨٤)]، **وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق فقال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ}** [سورة يونس: (٢)] **وقال: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}** [سورة القمر: (٥٤-٥٥)]، **فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق، وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.**

فمدخل الصدق ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله، وفي مرضاته بالظفر بالبغية وحصول المطلوب ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها كمخرج أعدائه يوم بدر، ومخرج الصدق كمخرجه -صلى الله عليه وسلم- هو وأصحابه في تلك الغزوة، وكذلك مدخله -صلى الله عليه وسلم- المدينة كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد والظفر والنصر وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل كان محادة لله ولرسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار، وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- حصن بني قريظة، فإنه لما كان مدخل كذب أصابه معهم ما أصابهم، فكل مدخل ومخرج كان بالله ولله فصاحبه ضامن على الله، فهو مدخل صدق ومخرج صدق، وكان بعض السلف إذا خرج من داره رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجاً لا أكون فيه ضامناً عليك، يريد أن لا يكون المخرج مخرج

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صدق؛ ولذلك فسر مدخل الصدق ومخرجه بخروجه -صلى الله عليه وسلم- من مكة ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل فإن هذا المدخل والمخرج من أجلِّ مداخله ومخارجه -صلى الله عليه وسلم-[1].

هذا الكلام لا تجدونه لأحد، غير ابن القيم، رجل ألين له الكلام كما ألين لداود -عليه السلام- الحديد، والإنسان يدخل مداخل كثيرة ويخرج مخارج، أحياناً يدخل مداخل الريب، أو يدخل مداخل كاذبة لا يريد بها وجه الله -عز وجل-، وإنما يريد دنيا، وعرضا زائلا، أو يريد ما عند الناس، كالمَحمدة في قلوب الخلق، وأحياناً يريد أن يتوصل بهذا إلى أمور فاسدة، فالمنافق لا يدخل مدخل صدق، ولا يخرج مخرج صدق، وهكذا في الأمور التي يدخل فيها الإنسان من الأعمال والمشاريع، قد يدخل فيها بنية غير ثابتة، ولا يقوم بالعمل على الوجه المطلوب.

هذه الدقة عند ابن القيم -رحمه الله- مع أن الذين رجحوه ما قالوا بأنه على سبيل التمثيل، فابن جرير -رحمه الله- احتج لهذا القول -المدينة ومكة-، بما قبله {وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ}، حتى في الحجة، {وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا} قال: الغلبة والقهر، قال: لأن هذا يُحتاج إليه؛ لأنه قال قبله: {وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ} فدفْعُهم يحتاج إلى قوة وتمكن وغلبة، فهم رجحوا هذا القول بعينه ولم يحملوه على التمثيل، لكن ابن القيم -رحمه الله- وجه ما ورد عن بعض السلف وحمله على هذا فقال: هذا يقصد به التمثيل، وإلا فالمعنى أعم من هذا بكثير.

وإلا فمداخله ومخارجه كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق، إذ هي لله وبالله وبأمره ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه أو مدخلاً آخر إلا بصدق أو بكذب فمخرج كل واحد ومدخله لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان.

وأما لسان الصدق فهو الثناء الحسن عليه -صلى الله عليه وسلم- من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء الكذب، كما قال عن إبراهيم -عليه السلام- وذريته من الأنبياء والرسل -عليهم صلوات الله وسلامه-: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا} [سورة مريم: (٥٠)] **والمراد باللسان ههنا الثناء الحسن، فلما كان الصدق باللسان -وهو محله- أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق جزاء وفاقاً، وعبر به عنه، فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا، واللغة، كقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ}** [سورة إبراهيم: (٤)] **وقوله: {وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ}** [سورة الروم: (٢٢)] **وقوله: {لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ}** [سورة النحل: (١٠٣)] **ويراد به الجارحة نفسها كقوله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}** [سورة القيامة: (١٦)]**، وأما قدم الصدق ففسر بالجنة، وفسر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وفسر بالأعمال الصالحة، وحقيقة القدم: ما قدموه، وما يقدمون عليه يوم القيامة، وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ويقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.**

---

[1] - التفسير القيم لابن القيم: (٢٣/٢)، ومدارج السالكين: (٢٧١/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فمن فسره بها أراد: ما يقدمون عليه، ومن فسره بالأعمال وبالنبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فلأنهم قدموها وقدموا الإيمان به بين أيديهم، فالثلاثة قدم صدق.

هذا ربط بين المعاني الثلاثة، العمل الذي هو السبب، والجزاء، والواسطة التي يُتوصل بها، أو الوسيلة التي يُعرف بها محابُّ الله -عز وجل-، وهو النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب -تبارك وتعالى- ووصْفُ ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره وأنه حق، ودوامه ونفعه وكمال عائدته، فإنه متصل بالحق سبحانه كائن به وله، فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل، ونافع غير ضار، وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل. انتهى.

المقصود أن هذه الجملة تحمل على أعم المعاني، وذلك لا يختص بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما يدعو به الإنسان في أحواله كلها، في كل ما يأتي ويذر، يعني حينما يدخل مكان العبادة -المسجد الحرام مثلاً-، يدخل لماذا؟ من الناس من يدخل للفرجة، ومن الناس من يدخل للرياء، ومن الناس من يدخل للعبادة، ومنهم من يدخل لينظر إلى النساء، ويزاحمهن في الطواف، أو يتفرج على الناس وهم يطوفون، مثلاً، والآخر حين يدخل السوق، لماذا يدخل؟ بعضهم يدخل مدخل صدق، وبعضهم يدخل مدخل فجور، والذي يفتح متجراً لماذا يدخل فيه؟ من الناس من يفتح متجراً في سوق النساء ويصرح لأصحابه بأنه لم يفتح لحاجة، ولا من أجل التجارة، وإنما فخ يصطاد به النساء فقط، هذا مدخل فجور، وقل مثل ذلك في الدراسة التي يدرسها الإنسان، لماذا يدرس؟ أحد الأشخاص دخل تخصصاً ويصرح لبعض أصحابه أنه دخل هذا من أجل أن يكون له منعة لأمر ما، فجر بامرأة وحصل اتفاق مبدئي على أنه يتزوجها، فدخل في تخصص معين؛ ليكون له منعة فلا يستطيعون إلزامه بهذا، والطب بعض الناس يدخل فيه من أجْلِ مواساة الناس والمسح على آلامهم وهذا من أجلِّ الأشياء، فأصحاب المعاناة لا يشعر أحد بمشاعرهم إلا من جرب وعانى، فالطبيب يمسح على هذه الآلام، وهو من أشرف الأعمال ومن أجلِّها وأعظمها، ومما يقرب إلى الله -عز وجل-، وبعض الناس قد يدخل؛ من أجل أن يرى العورات، ويلمس النساء بطريقة حريرية مقبولة عند الجميع، لا غبار عليها عند كثير من الناس، ولا إشكال، مهذبة، لا سيما إذا تخصص في عورات النساء، الولادة ونحو ذلك، فهذا ساقط المروءة، لا تقبل شهادته، وليس له عدالة، فرجل يدخل في هذا التخصص! ليس بمدخل صدق، وبعض الناس يدخل يقول: أنا أريد مكانة اجتماعية عند الناس، فهذا ليس بمدخل صدق، وهكذا العلوم الشرعية، فأجلُّ العلم هو العلم الشرعي ومع ذلك بعض الناس يدخل فيه ليقال: عالم، أو يقال: طالب علم، فهذا ليس بمدخل صدق، وهكذا الدخول في القنوات، وإلقاء الخطب والمحاضرات، ومصاحبة الأخيار، والعمل في المشاريع الدعوية وغير هذا، قد يكون مدخل صدق وقد لا يكون مدخل صدق، فبعض الناس قد يقيم أعمالا، أو يدخل في مشاريع، ويقصد جمع الأموال لنفسه، فتحصل له ثروة، والواسطة هي العمل الخيري، فليس بمدخل صدق، فهذا يدعو به الإنسان دائماً.

وقوله: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} الآية، تهديد ووعيد لكفار قريش، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع، وزهق باطلهم أي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء، {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}.[سورة الأنبياء: (١٨)].

وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: دخل النبي -صلي الله عليه وسلم- مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: {وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [سورة الإسراء: (٨١)]، **{جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}** [سورة سبأ: (٤٩)].

{وَقُلْ جَاء الْحَقُّ} إذا نظرت إلى أقوال السلف -رحمهم الله- فمنهم من يقول: جاء الإسلام، ومنهم من يقول: جاء القرآن، ومنهم من يقول غير هذا، وهذا من قبيل اختلاف التنوع، وليس من قبيل اختلاف التضاد، **{جَاء الْحَقُّ}**، هذه الكلمة كل ما يدخل تحتها فهو مضمَّن في هذا المعنى، ولهذا قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **هو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع**، فالأقوال التي قالها السلف جميعاً داخلة فيه.

{وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} زهق يعني ذهب واضمحل، تقول: زهقت نفسه.

{إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} هذا من شأنه، أنه زهوق يعني مضمحل، **{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ}** [سورة الرعد: (١٧)]، فالأباطيل لا بقاء لها، قد تشغل طائفة من الناس مدة من الزمان، ولكنها ما تلبث أن تذهب وتضمحل، ويبقى الحق ثابتاً راسخاً لا يتزعزع، وهذا في كل شيء، فالباطل ضعيف خفيف ليس له جذور، وابن جرير -رحمه الله- أيضاً حمل قوله: **{جَاء الْحَقُّ}** على العموم، فكل ما قاله السلف فهو داخل فيه، **{وَزَهَقَ الْبَاطِلُ}** الكفر والشرك بالله -عز وجل-، ويدخل فيه المعاصي، ومحادّة الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، فكله من الباطل، وكل ما خالف أمر الله فهو باطل، من الكفر وما تفرع من شجرته، فإن ذلك زائل، وكل ما أغرى بالباطل فهو كذلك، من ألوان الدعاية الداخلة تحت قوله -تبارك وتعالى-: **{وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ}** [سورة الإسراء: (٦٤)]، كالقنوات الفاسدة، والمجلات الفاسدة، والكتابات الفاسدة، تذهب وتضمحل، ويبقى الحق، كما قال ابن القيم -رحمه الله-:

والله لولا اللهُ حافظ دينه *** لتهدمتْ منه قوى الأركان

لكثرة ما أجلب على الإسلام، وكثرة ما جرى من المحاولات بتبديل دين الله -عز وجل-، ولكن ذهبت وتلاشت، وهكذا كل ما يجري في هذا الزمان وفي غيره من محاولات لتبديل دين الله -عز وجل- وإطفاء نوره فإنه سيذهب ويضمحل **{فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ}** [سورة الأنفال: (٣٦)]، هذه النهاية، وكل هذا يزول ويذهب، والله المستعان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً} [سورة الإسراء:٨٢].

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد-: إنه شفاء ورحمة للمؤمنين: أي يُذهب ما في القلب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاءً في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيد سماعه القرآن إلا بُعداً وكفراً، والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}[سورة فصلت:٤٤]، وقال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}[سورة التوبة: ١٢٤-١٢٥]، والآيات في ذلك كثيرة، قال قتادة في قوله: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه، {وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً} أي: لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} "مِن" هنا ليست للتبعيض، وإنما هي لابتداء الغاية، أو لبيان الجنس، وكما لا يخفى فإن المعنى يختلف تماماً، فإذا قلنا: إنها تبعيضية فيكون بعض القرآن شفاء وليس كل القرآن، وإذا قلنا: إنها لابتداء الغاية أو لبيان الجنس فإن جميع القرآن شفاء، وهذا هو الصحيح، وهذا الشفاء يدخل فيه المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو أنه شفاء لأمراض القلوب من الشبهات والشكوك، فيجلي ذلك، ويذهبه، فلا يبقى شيء منها مع أنوار القرآن، فالله بين فيه الحقائق كما بين فيه الحلال والحرام، ولم يعد للتخرُّصات والأوهام محل في صدور أهل الإيمان، بخلاف ما كان الناس عليه في الجاهلية، حيث يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، فجاءهم هذا الفرقان الذي يفرق الله فيه بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ويدخل فيه النوع الآخر أيضاً من الشفاء وهو شفاء الأبدان، مما ألمّ بها من العلل، والأوصاب، وهذا أمر لا شك فيه، وآثاره ظاهرة، ويتفاوت الناس في هذين الشفاءين، القرآن من حيث هو شفاء، ولم يقل الله -عز وجل-: إنه دواء؛ لأن الدواء قد يتخلف معه البرء وقد لا يناسب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعض الناس، فيحصل بسببه الداء، وأما الشفاء فهو نتيجة مباشرة ذكرها الله -عز وجل-، وشفاء القلوب، وشفاء الأبدان، يتفاوت الناس فيه؛ بحسب تقبلهم له، وما يكون عند الإنسان من اليقين، فالذي ينظر إلى القرآن باعتبار أنه كتاب يتلى للتقرب والتعبد بحروفه وكلماته ونحو ذلك فحسب، لكنه لا يفهم معانيه كالأعجمي فمثل هذا لا تذهب وساوسه وأوهامه وشبهاته بهذا القرآن؛ ولهذا يتفاوت الناس بحسب ما عندهم من اليقين والمعرفة بمعاني هذا القرآن، وهكذا فيما يتصل بشفاء الأبدان، فإن ذلك يتفاوت أيضاً بحسب المحل القابل، فالذي يرقى بالقرآن مثلاً، وهو يعتقد أن هذه أشياء لا أثر لها، وأن ذلك لا جدوى له، أو أنه يفعل ذلك على سبيل التجربة، فمثل هذا لا شك أن أثر هذه الرقية سيكون ضعيفاً غاية الضعف، وما ذكره الله -عز وجل- من أثر هذا القرآن على الذين لا يؤمنون به، فهو كما قال الله -عز وجل-، كما أنه شفاء للمؤمنين كذلك بالنسبة لغير المؤمنين يكون عليهم عمى، -نسأل الله العافية-، ولهذا فإن ما أنزله الله -عز وجل- من الهدى والحق كما أن النفوس الطيبة تنتفع به غاية الانتفاع، كذلك النفوس الرديئة لا يزيدها إلا رجساً وارتكاساً في ضلالها وعمايتها، {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ}، وهكذا ما يتفرع من ذلك من العلم النافع، فإن من الناس من قد يتعلم العلم ولا يزيده ذلك إلا تيهاً وكبراً وتعالياً وتعاظماً على الناس وغروراً مع ما يحصل له من الجفاء وقسوة القلب، -نسأل الله العافية-؛ ولهذا كان من أسباب إعراض الصوفية عن العلوم الشرعية كما ذكر الغزالي في كتابة "بداية الهداية" أن العلم لربما يحمل صاحبه على الغرور والكبر والتعاظم والتعالي على الخلق، ومعلوم أن العلم لا يحمل على هذا، لكن قد يوجد في محل لم يروض بطاعة الله -عز وجل- ظاهراً وباطناً، فمن أخذ العلم بغير الطريق الصحيح فإنه قد يضل ويزل، قد يتعلم الإنسان العلوم الشرعية ويكون ذلك سبباً لمزيد من الحيل والبحث عن المخارج والتبريرات، ويعلل لنفسه ويزين لها أفعالاً يتحرز منها العامة، فهو يخرّج كل هذه التصرفات والانحرافات بتخريجات فقهية، وإذا عرف من خلاف العلماء أشياء فإن ذلك يكون بالنسبة إليه مبرراً للأخذ بما يهوى من الأقوال، وهذا يوجد، فكلما ازداد تعلماً ازداد انحرافاً، ومثل هؤلاء إن لم يصلح حاله وقلبه فلربما الأفضل له أن يبقى على جهله، ولا يعرف من كلام العلماء في المسائل ما يكون سبباً لانحرافه.

{وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرّ كَانَ يَئُوساً * قُلْ كُلّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً} [سورة الإسراء:٨٣].

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله تعالى في حالتَي السراء والضراء، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته {وَنَأَى بِجَانِبِهِ} قال مجاهد: بعُدَ عنا، قلت: وهذا كقوله تعالى: {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ} [سورة يونس:١٢]، **وقوله: {فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ}** [سورة الإسراء:٦٧].

وبأنه إذا مسه الشر -وهو المصائب والحوادث والنوائب- {كَانَ يَئُوساً} أي: قنط أن يعود فيحصل له بعد ذلك خير، كقوله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [سورة هود:٩-١١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ}، الإعراض هو أن يولي غيره عرض وجهه، بمعنى الإشاحة، والنأي بالجانب يعني أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره، وهذا هو الفرق بين العبارتين، والجملة الثانية أدل على الكبر والتعاظم، فكما قال الله -عز وجل-: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق:٦-٧]، والإنسان هنا يراد به جنس الإنسان، هكذا طبيعته، كما أنه يميل إلى الأمور التي توافق هواه، قد رُكب فيه الهوى، كذلك هو يتأثر بما يلاقيه من الأمور المحبوبة ومن الأمور المكروهة، فإذا لقي الأمور المحبوبة التي يحبها وحصل له الغنى تعاظم وطغى، وإذا حصلت له المكاره انكسر ويئس وأظلمت الدنيا في عينه، ورأى أن هذا هو نهاية المطاف، فحصل له القنوط، هذا من حيث جنس الإنسان، وليس كل أحد؛ لأن النفس قابلة للتهذيب والترويض والتربية فيتغير حاله تماماً، وقد ترى من هذا أشياء في الحياة عجيبة، إنسان يصيبه البلاء فيكون في غاية القنوط، ثم بعد ذلك يُبصَّر ببعض الأمور فيتحول هذا البلاء بالنسبة إليه إلى نعمة يفرح بها ويلتذ، فالإنسان إذا روض وهذب وبُصِّر فإنه تتغير حاله، لا ينكسر أمام الشدائد ولا ييأس ولا يقنط، وإذا أصابه الغنى، وبُصِّر بحقيقة الدنيا، وبعظم المعبود -جل جلاله-، وأنه هو المنعم المتفضل، وبضعف الإنسان، فإنه لا يحصل له الطغيان، فيكون مخبتاً مع الغنى.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا} أي: يقنط، وهذا لا ينافي قوله -تبارك وتعالى- في الآية الأخرى: {فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ} [سورة فصلت:٥١]، إذا أصابه شدة، فيمكن أن يقال: إن هذا يقع لبعض الناس، وهذا يقع لبعضهم، أو يجمع بين الأمرين فيقال: إنه يدعو بهذا الدعاء العريض مع ما ينتابه من مشاعر اليأس والقنوط، فيعتقد أنه لا يمكن أن يربح بعد خسارته، أو أن يبرأ بعد علته ونحو ذلك، والله المستعان.

وقوله تعالى: {كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىَ شَاكِلَتِهِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: على ناحيته، وقال مجاهد: على حدته وطبيعته، وقال قتادة: على نيته، وقال ابن زيد: دينه، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، وهذه الآية -والله أعلم- تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: {وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ} الآية، ولهذا قال: {يَئُوساً قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىَ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىَ سَبِيلاً} أي: منا ومنكم، وسيجزي كل عامل بعمله فإنه لا يخفى عليه خافية.

قوله تعالى: {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىَ شَاكِلَتِهِ} هذه اللفظة "الشاكلة" مأخوذة من الشكل، تقول: لست على شكلي، لست على شاكلتي، ويقال: وما كان على هذه الشاكلة، يعني على هذا الشكل، نظير ذلك، من الأمور التي تشابهه، فالشكل هو النظير والشبيه والمثيل، والمعنى أن كل إنسان يعمل على ما يشاكل أخلاقه التي ألفها، وهذا في كل الأشياء، فالمعاني التي ذكرها السلف هنا: على ناحيته، على طبيعته، على نيته، على دينه، وهكذا قول من قال: على طريقته، كل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، وعباراتهم متقاربة، {كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىَ شَاكِلَتِهِ} على طريقته، على ما يشاكل طبعه وهواه، وما تميل إليه نفسه، سواء كان ذلك في باب الأعمال بالجوارح، فهذا يجدّ في معصية الله -عز وجل-، وهذا يشغل سمعه بسماع المعازف، وهذا يشغل سمعه بسماع القرآن، وهذا يشغل لسانه بالغيبة والنميمة، وهذا يشغل لسانه بذكر الله -تبارك وتعالى-، وهذا يشغل بصره بالصور المحرمة، وهذا يشغل نظره بالنظر إلى آيات الله -عز وجل- المتلوة والمشهودة، وكذلك في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

باب الخلطة والمصاحبة، هذا يخالط الأشرار ويميل إليهم، وهذا يخالط الأخيار والصالحين، هذا يخالط أهل الدنيا والجِدة والثراء، ويحب مجالستهم ومخالطتهم، والآخر يحب مجالس الذكر والعلم، من الناس من يضيق ذرعاً إذا حضر موعظة أو خطبة جمعة، أو كلمة لمدة سبع دقائق، وآخر لا يشبع من مجالس الذكر، فهي روضة بالنسبة إليه من رياض الجنة {كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ}، والموفق من وفقه الله -تبارك وتعالى-، فقد ترى الرجل أحياناً ينشأ في بيئة طيبة وبيئة صالحة وبيئة علم ودعوة، ولا يميل إلى هذه الأشياء أبداً، وينفر منها غاية النفور، لكن يبحث عن شيء آخر إما مجالس التجار، وإما أصحاب اللهو، وإما يبحث عن الشِّعر النبطي، وإما يبحث عن الأكل والمطاعم، وأنواع الخلطات السرية، وآخر ليس له شغل إلا التجول في الأسواق، {كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ}، في كل جانب من جوانب الحياة، وهكذا فيما يتعلق بالاعتقادات، فتجد أن اليهود يميلون إلى من يشاكلهم، والنصارى يميلون إلى من يشاكلهم، وأن المنافقين يميلون إلى من يشاكلهم، فينبغي للإنسان أن ينظر إلى أي شيء يميل قلبه، وهل يجد قلبه في مجالس الذكر أو أن قلبه يجذبه إلى مجالس الأشرار وأعمال الفجار، فيعرض الإنسان نفسه على كتاب الله -عز وجل-.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "قال تعالى: {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ}.

في تصديره الباب بهذه الآية دلالة على عظم قدره وجلالة محلّه من هذا العلم، فإن معنى الآية: كل يعمل على ما يشاكله ويناسبه ويليق به، فالفاجر يعمل على ما يليق به، وكذلك الكافر والمنافق ومريد الدنيا وجيفتها عامل على ما يناسبه، ولا يليق به سواه، ومحب الصور عامل على ما يناسبه ويليق به، فكل امرئ يهفو إلى ما يحبه وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه، فالمريد الصادق المحب لله يعمل ما هو اللائق به والمناسب له، فهو يعمل على شاكلة إرادته وما هو الأليق به والأنسب لها"[1].

وقال -رحمه الله- تعالى: "النفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار، فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأجل، والنفس المهينة الحقيرة والخسيسة بالضد من ذلك، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى: {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} أي: على ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعاداته التي ألفها وجبل عليها، فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم، ومحبته، والثناء عليه، والتودد إليه، والحياء منه، والمراقبة له، وتعظيمه وإجلاله"[2].

وقال -رحمه الله-: "قال تعالى: {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} أي: على ما يشاكله ويناسبه ويليق به كما يقول الناس: كل إناء بالذي فيه ينضح، فمن أرادت من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية في مقام الصدق بين الملأ الأعلى فقد أرادت ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين، ولو أن ملِكاً من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سفلة الناس وسقْطهم وغرتهم الذين تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح

---

١ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام ابن القيم (٣٧١/٢).

٢ - الفوائد، للإمام ابن القيم الجوزيه (١٧٦-١٧٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والرداءة والدناءة لقدح الناس في ملكه وقالوا: لا يصلح للملك، فما الظن بمجاوري الملك الأعظم مالك الملوك في داره وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه ومرافقتهم للملأ الأعلى الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم؟"[٣]

هذا المعنى يجده الإنسان في كل شيء، فالذي يفتح القنوات والإنترنت مثلاً أين يذهب؟، قل له: {كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ}، هذا يبحث عن مواضع في العلم الشرعي، وهذا يبحث عن مواعظ، وهذا يبحث عن الخلاعة، وذاك يبحث عن الشبهات -نسأل الله العافية-، مواقع محادة لله -عز وجل- يبحث عنها ويقرأ فيها، ويجد نفسه هناك، فمثل هذه المعاني جديرة بأن الإنسان يقف عندها ويعرض نفسه وقلبه وعمله عليها، وهذا الأمر {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ}، يراد به ليس الإباحة أو الوجوب، وإنما يفهم منه معنى التهديد، كقوله: {فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} [سورة فصلت:٥].

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة الإسراء:٨٥].

وروى البخاري في تفسير هذه الآية عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: بينا أنا أمشي مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في حرث وهو متوكئ على عَسِيب إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابُكم إليه؟.

قوله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} المتبادر إلى الذهن أن المقصود بالروح يعني التي تعمر الجسد، فالإنسان عبارة عن المجموع بين الجسد والروح، فإذا خرجت منه الروح يقال له: جثة، والروح وحدها لا يقال لها: إنسان، فإذا مازجت البدن فإن هذه الممازجة يكون منها ما يسمى بالنفس عند بعضهم، ويكون منها الإنسان، فمجموع الروح والبدن إنسان، والنفس يقال: إنها هي الروح، ومنهم من يقول: هي الروح إذا مازجت البدن حصل لها من هذه الممازجة ما تُكَوَّن به، والشاهد أن السؤال عن الروح يعني التي تعمر البدن، وبعض السلف يقول: السؤال عن جبريل، {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ} [سورة النحل:١٠٢]، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} جبريل -عليه السلام-، وقيل: السؤال عن القرآن؛ لأن الله سماه روحاً أو وصفه بأنه روح، به حياة القلوب، وقيل: الروح ملك عظيم من الملائكة، {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ} [سورة النبأ:٣٨]، وقيل: الروح جبريل هنا، وقيل: هو ملك من الملائكة، {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ} فذكره من بينهم لعظمه، ويكون ذلك من قبيل عطف العام على الخاص -الروح والملائكة-، وابن القيم -رحمه الله- اختار هذا المعنى: أن الروح ملك من الملائكة، وهذا -والله أعلم- لا يخلو من إشكال وغرابة، والأولى أن تحمل ألفاظ القرآن على المتبادر الظاهر، وابن القيم -رحمه الله- يتساءل: يعني لماذا يسألونه عن الروح التي تعمر البدن وهي شيء لا يعرفونه، بل هو أمر غيبي؟، والناس في الكلام على الروح من الفلاسفة وغيرهم لهم كلام كثير، فبعض أهل العلم ذكر لهم ما يقرب من مائة وثمانية عشر قولاً في بيان حقيقة الروح، هذا الاختلاف الكثير بين هؤلاء؛ لأنها أمر خفي، لا ندركه بشيء، فلا يستطيع أحد أن يتكلم عن الروح ويبين حقيقة هذه الروح،

---

٣ - طريق الهجرتين وباب السعادتين، للإمام ابن القيم (١٧٧-١٧٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالإنسان يتحرك والعين تتحرك، وينظر ويسمع وبمجرد ما تخرج هذه الروح فإذا هو لا فرق بينه وبين الخشبة والجدار، لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم، ولا يتحرك، ولا يمشي ولا يوجد عنده مشاعر، ولو قُطع قطعاً لم يشعر، وحينما كانت هذه الروح فيه لو لامسه أدنى شيء انتبه، فالمراد بالروح أنها التي في الجسد، والله تعالى أعلم.

وقوله: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} [سورة الإسراء:٨٥] "مِن" هنا بيانية، وليست تبعيضية بطبيعة الحال، والأمر هنا يأتي لمعنيين، الأمر بمعنى الطلب، ويخصه أكثر الأصوليين بما كان من أعلى إلى أدنى، طلب الفعل، هذا أمر، وما كان من مساوٍ يسمونه التماساً، وما كان من أدنى إلى أعلى يسمونه دعاء، تأدباً، فهذا المعنى الأول للأمر، والمعنى الثاني للأمر هو الشأن، تقول: ما أمر فلان؟، يعني ما شأنه؟، فهنا {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} يعني: المراد به الشأن هنا، شأن ربي، والإضافة للاختصاص، من أمر ربي، أي أن ذلك اختص الله -تبارك وتعالى- بعلمه فلا يعلمه أحد، فهي أمر غيبي، الله -تبارك وتعالى- هو الذي خلقها وهو الذي يعلمها، لذلك من عيوب الطب الحديث أنه يركز على البدن فقط، يعالج الأبدان، مع أن ارتباط الأبدان بالأرواح ارتباط وثيق جداً، والأرواح تتأثر بما يحصل للأبدان كما أن الأبدان تتأثر بما يحصل للنفس والروح، قد يحصل للإنسان هم وغم فيمرض بدنه، وقد يحصل أشياء من السحر أو التلبس فيمرض البدن، وقد يموت، فالنفس يحصل لها إيلام، فلو ضرب إنسان نفسه يحصل لها إيلام، لو قيلت له كلمات جارحة تتألم النفس لكن البدن لا يتألم، لكن أحياناً لشدة ألم النفس يؤثر على البدن، قد يشعر بحرارة، وقد يرتفع الضغط، وقد يرتفع السكر، ولهذا يذكرون أن الطب الحديث أُخذ من بيئة غربية علمانية مادية، فتركز على جانب البدن فقط، فحصل النقص بسبب ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة الإسراء:٨٥].

وروى البخاري في تفسير هذه الآية عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: بينا أنا أمشي مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في حرث وهو متوكئ على عَسِيب، إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابُكُم إليه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه. فقالوا سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي)))[١] الآية، وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية، وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأن يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية.

وقد روى ابن جرير عن عكرمة قال: سأل أهل الكتاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الروح، فأنزل الله {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ} الآية، فقالوا: تزعم أنا لم نؤتَ من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً} [سورة البقرة:٢٦٩]، قال: فنزلت: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ} [سورة لقمان:٢٧] الآية، قال: ((ما أوتيتم من علم فنجاكم الله به من النار، فهو كثير طيب، وهو في علم الله قليل))[٢].

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ} الآية: وذلك أن اليهود قالوا للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من الله؟، ولم يكن نزل عليه فيه شيء، فلم يُحِر إليهم شيئاً، فأتاه جبريل فقال له: {قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي وَمَا أُوتِيتُم مّن الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً}، فأخبرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ قال: ((جاءني به جبريل من عند الله)) فقالوا له: والله ما قاله لك إلا عدونا، فأنزل الله: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [سورة البقرة:٩٧][٣].

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} [سورة الإسراء:٨٥]، برقم (٤٤٤٤)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الروح وقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ}، برقم (٢٧٩٤).

٢ - رواه الإمام الطبري في تفسيره(٥٤٢/١٧).

٣ - رواه الإمام الطبري في تفسيره(٥٤٣/١٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الروايات التي أوردها المصنف -رحمه الله- في سبب نزول هذه الآية كلها تدل على أن هذه الآية نزلت بسبب سؤال اليهود، وإنما كان ذلك بالمدينة، والرواية الأولى في صحيح البخاري، وجاء في بعض روايات هذا الحديث أنه قال: فرفع رأسه فعلمت أنه يوحى إليه، وهذه الرواية سواء بهذا اللفظ أو اللفظ الذي أورده المصنف -رحمه الله- ليست بصريحة في أن ذلك هو سبب النزول، فقد يكون سكت ورفع رأسه ينتظر نزول الوحي فلم ينزل عليه شيء بخصوصه فيما يتعلق بهذا الموضوع، فذكر لهم الآية التي نزلت عليه بمكة، فقال: (({وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي})) فابن مسعود -رضي الله عنه- يقول: علمت أنه يوحى إليه فقمت مقامي فلما نزل الوحي قال: {وَيَسْأَلُونَكَ}، يحتمل أن الملك نزل إليه وأمره أن يقرأ عليهم آية الإسراء، فالله تعالى أعلم، والروايات الأخرى التي أوردها ابن جرير عن عكرمة: سأل أهل الكتاب، وهي رواية مرسلة، والمرسل من أقسام الضعيف، والرواية الأخرى أيضاً من طريق العوفي عن ابن عباس ضعيفة، وإن كان اليهود هم الذين سألوا، فرواية البخاري تشهد له، وكذلك أيضاً قول اليهود: من صاحبك؟ يسألونه، فلما ذكر جبريل قالوا: ذاك عدونا، هذا صح في غير هذه الرواية، فيكون ذلك شاهداً له، وأيضاً ثبت في أسباب النزول أنها نزلت بسبب سؤال المشركين بمكة، ولكن ذلك ليس في الصحيحين -أن المشركين سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الروح-، وهذا موافق لكون السورة مكية، فمن أهل العلم في مثل هذا من يعمد إلى الترجيح، والترجيح له طرق كثيرة، فيمكن أن يرجح الرواية التي دلت على أن ذلك قد نزل بسبب سؤال المشركين بمكة باعتبار أن السورة مكية، هذا وجه، ويمكن أن ترجح الرواية الدالة على أنها في المدينة، حديث ابن مسعود لكونه أقوى من جهة الثبوت والصحة، وكذلك أيضاً لكون ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- راوي الحديث حاضر القصة، يقول: بينا أنا أمشي مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حرث وهو متوكئ على عسيب، فمن شهد هذا مُرجَّحٌ على غيره، وقد يقال وهو الأحسن -والله تعالى أعلم-: إن الآية نزلت بمكة بسبب سؤال المشركين، ولا يمنع ذلك من أن تنزل ثانية بالمدينة، فإن من القرآن ما يتكرر نزوله، ومما يُقطع به في هذا أن الأحرف السبعة نزلت الأحرف الستة منها في المدينة، ولم ينزل شيء منها في مكة، وإنما كان ينزل على حرف قريش، ولما هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- نزلت عليه باقي الأحرف، وهذه الأحرف لا تختص بالسور النازلة في المدينة قطعاً، وإنما هي أيضاً في السور المكية، ومعنى ذلك أن تلك الآيات والسور أو الأوجه الأخرى من القراءة نزلت في المدينة، ليس كل السورة ولكن الآيات التي فيها أوجه أخرى من القراءة نزلت في المدينة، يعني سورة الفاتحة مكية، فـ{مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة:٤]، و{مالك يَوْمِ الدِّينِ}، أحد القراءتين نازلة في المدينة، فهذا مثال واضح لا ينازع فيه، يبقى الكلام في مثل هذا في أسباب النزول، قال بعض أهل العلم: إن تكرار النزول خلاف الأصل، والفائدة من تكرار النزول كما يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله- بأن الآية قد تنزل ثانية تذكيراً بالحكم وتأكيداً له، وأن حكم هذه الواقعة هو حكم ما سبق، ويوجد لهذا نظائر كثيرة وإن كانت لا تخلو من ضعف بمفردها، لكن مجموعها يحصل به قوة، ويعضد بعضها بعضاً فيما يتعلق بسبب النزول كقوله: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَا عُوقِبْتُم بِهِ} [سورة النحل:١٢٦]، قيل بأنها نزلت بعد أحد، لما قتل من قتل من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- ومثل بحمزة -رضي الله تعالى عنه-، وصح أيضاً أنها نزلت عام الفتح، فيمكن أن تكون الآية نزلت مرتين، ولما قال المشركون للنبي -صلى الله عليه وسلم- صف لنا ربك فنزلت: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [سورة الإخلاص:١]، وسأله اليهود أيضاً فنزلت هذه السورة، وذلك غير ممتنع -والله تعالى أعلم-، فمثل هذا أحسن من الترجيح؛ لأن الترجيح إهدار لبعض هذه الروايات الصحيحة، لكن إذا تعددت هذه المرويات وعلمنا تقارب الزمان فيمكن أن نقول بأن الآية نزلت بعد هذه الأحداث جميعاً، مثل آية اللعان، لما جاء عويمر العجلاني ورمى امرأته وقذفها بالزنا فنزلت آية اللعان وكذلك أيضاً لما جاء هلال بن أمية -رضي الله تعالى عنه- وقذف امرأته بالزنا فيمكن أن يقال: إن هذه الحوادث وقعت متقاربة، وهكذا صدر سورة التحريم {لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} [سورة التحريم:١]، يمكن أن يقال -والله أعلم-: إن هذه الروايات في الصحيحين وفي غيرهما أن ذلك نزل بسبب شربه -صلى الله عليه وسلم- العسل عند بعض نسائه، وصح أيضاً أنه نزل بسبب الجارية لما وقع عليها، فلابد من القول -إذا أردنا أن نجمع بين القولين- بأن ذلك وقع في زمان متقارب؛ لأن ذلك لا يمكن أن يقال: إنه تكرر فيها النزول؛ لأن ذلك لا يمكن أن يقع، ومثل ذلك قصة هلال بن أمية -"اللعان"-، والسبب أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يمكن أن يقول لمن جاءه يقذف امرأته بالزنا وقد نزل عليه فيه اللعان، أن يقول له: ((البينة أو حد في ظهرك))[٤]، وإنما سيرشده إلى الملاعنة، -والله تعالى أعلم-.

ورواية العوفي عن ابن عباس لو صحت فهي صريحة في أنهم سألوا عن الروح التي تعمر الجسد، وليس كما قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله- بأنه ملك من الملائكة، مع أن ابن القيم -رحمه الله- عزا ذلك إلى المفسرين من السلف، والسلف لم يتفقوا على هذا المعنى، بل تفرقت أقوالهم فيه كما تقدم -والله أعلم-.

ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر، وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء، كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها ماءً صار ماءً مُصْطاراً أو خمراً، ولا يقال له "ماء" حينئذ إلا على سبيل المجاز، وكذا لا يقال للنفس "روح" إلا على هذا النحو، وكذا لا يقال للروح "نفس" إلا باعتبار ما تئول إليه، فحاصل ما نقول: إن الروح هي أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه، لا من كل وجه، وهذا معنى حسن، والله أعلم.

قلت: وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها، وصنفوا في ذلك كتباً، ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده في كتاب سمعناه في الروح.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا ادعى أو قذف فله أن يلتمس البينة وينطلق لطلب البينة، برقم (٢٥٢٦)، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الروح أمر غيبي، ويكفي أن نقول بأنها هي التي تعمر الجسد، أما ماهيتها فذلك مما اختص الله -تبارك وتعالى- به، والكلام الذي أورده ابن كثير -رحمه الله- هنا يتعلق بالفرق بين النفس والروح، حاصله أن الروح هي أصل النفس، ولكن ذلك يكون بعد ملابسة الروح للجسد، فإذا اتصلت بالجسد قيل لها: نفس، وأما بمفردها فلا يقال لها: نفس، وهو كلام له حظ من النظر، لكن القطع بهذا لا شك أنه يتوقف على معرفة حقيقة الروح، فمن الناس من يقول: النفس هي الروح، ومنهم من يفرق بينهما، فهذا من الفروق التي لها حظ من النظر، والعلم عند الله -عز وجل-، فروح الإنسان إذا خرجت وهي منفردة عن الجسد يقال لها روح، ولا يقال لها نفس إلا إذا كانت متصلة بالجسد، فإذا انفكت منه قيل لها: روح، ومجموع الروح والجسد يقال له: إنسان، والجسد بلا روح يقال له: جثمان، ولا يقال: نفخ الملَك فيه النفْس، وإنما يقال: نفخ الملك فيه الروح، -والله أعلم-.

{وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنّ بِالّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً * إِلاّ رَحْمَةً مّن رّبّكَ إِنّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً * قُل لّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنّ عَلَىَ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً * وَلَقَدْ صَرّفْنَا لِلنّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلّ مَثَلٍ فَأَبَىَ أَكْثَرُ النّاسِ إِلاّ كُفُوراً} [سورة الإسراء: ٨٦-٨٩].

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم -صلى الله عليه وسلم- فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: يطرق الناسَ ريحٌ حمراء -يعني في آخر الزمان- من قبل الشام، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية، ثم قرأ ابن مسعود: {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنّ بِالّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} الآية.

صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يسرى على القرآن في ليلة وذلك في آخر الزمان، فالآية التي ذكرها الله -عز وجل- هنا ليس المقصود بها آخر الزمان، وإنما يقول الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنّ بِالّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} لو شئنا لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر، فالذي أنزله عليك قادر على رفعه ومحوه ثم لا تجد من يتوكل علينا في رد شيء منه بعد أن ذهبنا به، {ثُمّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً} يتوكل برده بعد رفعه، فالله -تبارك وتعالى- على كل شيء قدير.

وقوله: {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنّ بِالّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً * إِلاّ رَحْمَةً مّن رّبّكَ}، يحتمل أن يكون الاستثناء متصلاً، ويحتمل أن يكون الاستثناء منفصلاً منقطعاً، فإذا كان الاستثناء متصلاً فالمعنى إلا أن يرحمك ربك فلا نذهب به، وإذا كان منقطعاً يكون بمعنى لكن، فيكون المعنى لكن لا يشاء ذلك؛ رحمة من ربك، أي لكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به، والفرق بين المعنيين واضح.

ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال له ولا عديل له؟!.

وقوله: {وَلَقَدْ صَرّفْنَا لِلنّاسِ} الآية، أي بيّنا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا {فَأَبَىَ أَكْثَرُ النّاسِ إِلاّ كُفُوراً} أي: جحوداً للحق ورداً للصواب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَقَالُواْ لَن نّؤْمِنَ لَكَ حَتّىَ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنّةٌ مّن نّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجّرَ الأنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىَ فِي السّمَاءِ وَلَن نّؤْمِنَ لِرُقِيّكَ حَتّى تُنَزّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبّي هَلْ كُنتُ إِلاّ بَشَراً رّسُولاً} [سورة الإسراء:٩٠-٩٣].

روى ابن جرير عن محمد بن إسحاق حدثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلاً من بني عبد الدار.

قوله: عن محمد بن إسحاق حدثني شيخ من أهل مصر، الشيخ من أهل مصر تبيّنه بعض الروايات الأخرى وهو محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول.

وأبا البختري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيهاً ومنبهاً ابني الحجاج السهميين، اجتمعوا أو من اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه أنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنَتُهم حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة، فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رَئِيّاً تراه قد غلب عليك- وكانوا يسمون التابع من الجن الرَّئِيَّ- فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإنْ تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم))[٥]، أو كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليماً-، فقالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، ولييعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك، صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً

---

٥ - رواه ابن جرير في تفسيره (١٧/٥٥٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما تقول، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم)) قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جناتٍ وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم))، قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ذلك إلى الله، إن شاء فعل بكم ذلك))، فقالوا: يا محمد أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب؟، فيتقدم إليك ويعلمك ما تُراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يُعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نَهلك أو تهلكنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً، فلما قالوا ذلك، قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فو الله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وانصرف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه[٦].

هذه الرواية ضعيفة، وقد يتساهل بها في السيرة، ولكن عند الكلام على أسباب النزول لابد من تطبيق شروط المحدِّثين.

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأُجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً له، فقيل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: إن شئت أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة؟ فقال: ((بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة))[٧]، وهذا قوله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً}[سورة الإسراء:٥٩]،

---

٦ - رواه ابن جرير في تفسيره (١٧/٥٥٦).

٧ - رواه أحمد في المسند (٤/٦٠)، برقم (٢١٦٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والبيهقي في السنن الكبرى برقم (١٧٥١٠)، والطبراني في الكبير برقم (١٢٧٣٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٣٨٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال تعالى: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً * تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً} [سورة الفرقان:٧-١١].

فائدة:

لا يوجد ما يدل على أن الإنسان إذا جاء في الآخرة أنه ينسى ما علم، والله -عز وجل- يقول: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}[سورة المجادلة:١١]، فهذا تفاوت بين مراتب أهل الإيمان، فأعلاهم في المراتب هم أهل العلم، ورأسُهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- يُبعث متقدماً على العلماء بِرَتْوة[٨]، قيل: يعني موضع رمية، وقيل غير ذلك.

والعلم الذي يرتفع به الإنسان في الآخرة هو العلم بالله -عز وجل- ودينه وشرعه، ودار جزائه، هذا هو العلم، وكل ما ورد في فضل العلم فهو محمول على هذا، ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً))[٩] إلى آخره، ولا يزهد الناس بالعلوم النافعة، فإن هذا يؤجر الإنسان عليه إذا كان له فيه نية، والناس أيضاً يتفاضلون فيه، فأشرف هذه العلوم بعد العلم الشرعي هو علم طب الأبدان، فهو علم شريف، ثم بعد ذلك تأتي العلوم الأخرى بحسب الحاجة إليها.

---

٨ - رواه الحاكم في المستدرك برقم (٥١٧٠)، ورقم (٥١٧٥)، والطبراني في المعجم الكبير برقم (٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٨٨٠).

٩ - رواه مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، برقم (٢٦٩٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تتمة تفسير قوله تعالى: {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا} [سورة الإسراء: (٩٢)] الآيات.

وقوله تعالى: {حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا} [سورة الإسراء: (٩٠)] الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل على الله تعالى يسير لو شاء لفعله، ولأجابهم إلى جميع ما سألوه وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس: (٩٦-٩٧)] وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ} [سورة الأنعام: (١١١)] الآية.

وقوله تعالى: {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ} أي: أنك وعدتنا أنّ يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهي، وتدلي أطرافها، فعجل ذلك في الدنيا وأسقطها كسفاً، أي: قطعاً، كقولهم: {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ} [سورة الأنفال: (٣٢)] الآية، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة الشعراء: (١٨٧)] فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة، {إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [سورة الشعراء: (١٨٩)]، وأما نبي الرحمة ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين فسأل إنظارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً، وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذُكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، حتى عبد الله بن أبي أمية الذي تبع النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً وأناب إلى الله -عز وجل-.

وقوله تعالى: {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة: هو الذهب، وكذلك هو في قراءة ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: أو يكون لك بيت من ذهب، {أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ} أي: تصعد في سلم ونحن ننظر إليك، {وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ} قال مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، تصبح موضوعة عند رأسه.

وقوله تعالى: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً}: أي: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمْركم فيما سألتم إلى الله -عز وجل-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا}، {حَتَّى تَفْجُرَ} قرأه حمزة والكسائي وعاصم هكذا، وقرأه الباقون بالتشديد {حَتَّى تُفَجِّرَ}، وقوله {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً}، تسقط السماء كِسَفاً، هكذا بفتح السين، قرأه جماعة كنافع وابن عامر وعاصم، وهو جمع كِسْفة، والكِسْفة هي القطعة من الشيء، يعني تسقط علينا السماء قطعاً، يعني أنهم يطلبون العذاب، أن يسقط الله ذلك عليهم، وقرأه غير هؤلاء الثلاثة بالإسكان {كِسْفاً}، وبعضهم فسر هذه القراءة {كِسْفاً}: أي قطعة، وكأنهم طلبوا أن يسقط السماء عليهم طبقاً واحداً، يطبق عليهم السماء، أو يسقط عليهم قطعة من السماء، لكن ابن جرير -رحمه الله- فسر قراءة الإسكان بغير ذلك، باعتبار أنها جمع كِسْفة، كِسْفاً جمع كِسْفة، واعتبر ذلك من قبيل جمع الكثرة في العدد، بخلاف كِسَفاً، فالكِسَف عند ابن جرير -رحمه الله- للقليل ما بين الثلاثة إلى العشرة، والكِسْف جمع الكثير كما تقول: تمر وتمرة، كِسْف وكِسْفة، ولذلك يختار هذه القراءة باعتبار أنها أدل على المعنى الذي قصدوه، وهو أنهم لم يطلبوا قطعاً محدودة من الثلاث إلى العشر تسقط عليهم من السماء، وإنما أرادوا أبلغ ما يكون من ذلك، وهذا يحصل بالكثرة، ومن فسر هذه القراءة {كِسْفاً} باعتبار أن الكِسْفة: هي القطعة من الشيء، بعضهم يقول كالزجّاج: من كسفت الشيء إذا غطيته، فسرها بهذا فكأنهم طلبوا أن السماء تقع عليهم فتغطيهم، يعني تسقط عليهم السماء طبقاً واحداً، وعلى كل حال هما قراءتان متواترتان، والله -عز وجل- يقول في الآية الأخرى: {إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ} [سورة سبأ: (٩)] وهذا يشهد للقراءة الأولى.

وقوله -تبارك وتعالى-: {أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً}، قبيلاً: فسره بعضهم بالمعاينة، نعاينهم، يقابلوننا أو نقابلهم معاينةً، فطلبوا رؤية الله والملائكة ليشهدوا بصحة ما جاء به، وأن الله أرسله، وهذا اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم فسر هذا بالكفيل، ونحن لا زلنا نعبر بهذا، يقول الواحد: أنا قبيل فلان، أنا قبيله، فلان قبيل فلان، أي المتكفل أو الكفيل، وبعضهم فسره بالشهيد، أي شهداء يشهدون أنك قد أرسلت من قبل الله -تبارك وتعالى-، وتفسيره بالكفيل قال به طائفة من السلف، واختاره من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، والآية تحتمل هذا وهذا، هم لشدة مكابرتهم طلبوا أن يشهد على ما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- الله -جل جلاله- والملائكةُ، وهؤلاء الذين فسروه بالشهيد قولهم يتضمن القول الأول، طلبوا أن يحضر لهم ربهم -تبارك وتعالى- والملائكة ليروهم من أجل أن يشهدوا له، فلماذا يريدونهم أن يأتوا؟، هل لمجرد رؤيتهم فقط؟ بل من أجل أن يشهدوا، وهذا من شدة مكابرتهم وعنادهم، {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ} يعني: الذهب، {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} [سورة الزخرف: (٣٣)] دُرُج، {وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ * وَزُخْرُفًا} [سورة الزخرف: (٣٤-٣٥)] أي ذهباً، والقراءة التي ذكرها قراءة شاذة، ولكنها تفسر هذه القراءة المتواترة، فالزخرف يقال للذهب، كما أنه يقال للزينة، وذاك إطلاق عربي صحيح، فهو وإن فسره به

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعض المفسرين هنا، لكن الكفار لم يطلبوا أن يكون له بيت من زينة، وإنما طلبوا أن يكون هذا البيت من الذهب؛ تعجيزاً.

{أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ} وقد فسرها بعض أهل العلم بأنهم قصدوا أن ينزّل على كل واحد منهم كتاباً، كما قال الله -عز وجل-: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً}[سورة المدثر: (٥٢)].

{وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً * قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء: (٩٤-٩٥)].

يقول تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ}: أي أكثرهم، {أَن يُؤْمِنُواْ} ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً، كما قال تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ} [سورة يونس: (٢)]، وقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا} [سورة التغابن: (٦)] الآية. وقال فرعون وملؤه: {أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} [سورة المؤمنون: (٤٧)]، وكذلك قالت الأمم لرسلهم: {إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}[سورة إبراهيم: (١٠)] والآيات في هذا كثيرة، ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم؛ ليفقهوا عنه ويفهموا منه؛ لتمكُّنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ} [سورة آل عمران: (١٦٤)] وقال تعالى: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ} [سورة التوبة: (١٢٨)] وقال تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}[سورة البقرة: (١٥١-١٥٢)]؛ ولهذا قال ههنا: {قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ} أي كما أنتم فيها {لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً} أي من جنسهم، ولمّا كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة.

يقول الله -عز وجل-: {قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ}: يعني أن الناس قد ألفوهم واعتادوا على رؤيتهم، {لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً}، ولكن لمّا كان الناس لا يألفون ذلك ولا يطيقونه؛ فإنهم لا يحتملون رؤية الملك على هيئته، كما أنهم لا يحتملون الأخذ والتلقي عنه مباشرة، فجبريل -عليه الصلاة والسلام- رآه النبي -صلى الله عليه وسلم- على هيئته له ستمائة جناح على كرسي بين السماء والأرض قد سد ما بين الأفق، فالملائكة خلق هائل عظيم، لا يطيق البشر النظر إليهم ورؤيتهم، فكيف يطلب هؤلاء أن يأتي الملائكة ويأتي الله -جل جلاله- معهم؟!، فهؤلاء ما قدروا الله حق قدره، لمّا تجلى ربنا -جل جلاله- للجبل جعله دكّاء، وخرَّ موسى صعقاً، وهو موسى -عليه الصلاة والسلام-، لم يطق ذلك مع أنه ما رآه، والجبل لم يحتمل مع شدته وضخامته وصلابته فكيف بالبشر؟ والله -عز وجل- ذكر في سورة الأنعام: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}[سورة الأنعام: (٩)] لصار رجلاً من أجل أن يتمكنوا من الأخذ عنه، وإذا صار بهذه الهيئة وهذه المثابة فكيف يعرفون أنه ملك؟ سيجادلون ويكابرون أن هذا بشر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وليس بملك، فيقع عليهم اللبس، والآيات كثيرة في هذا المعنى، والمقصود أنهم كانوا يستبعدون غاية الاستبعاد أن يبعث الله أحداً من البشر؛ ليكون مبلغاً ورسولاً من قِبَله، وهذه دعوى قالها قائلون قبلهم من الأمم، فما نفعهم ذلك ولا أجدى عنهم شيئاً، وأخبر الله -عز وجل- أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- كما هي سنته الجارية- بشرٌ يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وجعل الله -عز وجل- لهم أزواجاً وذرية، وهذا هو مقتضى حكمته -تبارك وتعالى-؛ لأن الله -عز وجل- لو أرسل إليهم رسولاً من غير جنسهم وتمكنوا من الأخذ عنه، فإنهم قد يتذرعون بترك العمل والامتثال باعتبار أن هذا الرسول ليس من جنسهم، فهو يخاطبهم بأمور لا يطيقونها، ولا يحتملونها، فهو وإن قام بها وعملها وأطاقها، لكنه ليس من جنس البشر، فالبشر قد ركبت فيهم الشهوات، وفيهم من ألوان الضعف والعجز ما يقعدهم عن كثير من المقامات والأعمال الفاضلة، فسيعتذرون بمثل هذه الأعذار، لكن إذا جاء بشر يرونه ويعرفونه، ويصيبه ما يصيبهم من اللأواء والتعب والعنت والأذى، ويرون صبره وبذله وتحمّله في ذات الله -عز وجل-، ويخاطبهم بما يفهمون، ويرون عبادته وعمله، فهذا يكون محلاً للاقتداء.

{قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[سورة الإسراء: (٩٦)].

يقول تعالى مرشداً نبيه -صلى الله عليه وسلم- إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به: إنه شاهد عليَّ وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} [سورة الحاقة: (٤٤-٤٦)]، **وقوله: {إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}: أي: عليماً بهم، بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة؛ ولهذا قال: {وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا}** [سورة الإسراء: (٩٧)].

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه، أي: يهدونهم، كما قال: {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا}[سورة الكهف: (١٧)]، **وقوله: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} روى الإمام أحمد[١] عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: قيل: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: ((الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم)). وأخرجاه في الصحيحين[٢].**

وقوله: {عُمْيًا}: أي لا يبصرون، {وَبُكْمًا}: يعني لا ينطقون، {وَصُمًّا}: لا يسمعون، وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق، فجُوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه، {مَّأْوَاهُمْ}: أي منقلبهم ومصيرهم {جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى

---

[١] - مسند أحمد بن حنبل: (١٦٧/٣) برقم: (١٢٧٣١).

[٢] - صحيح البخاري: (١٧٨٤/٤) باب قوله: {الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا}: برقم: (٤٤٨٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عنهما-: سكنت، وقال مجاهد: طفئت، {زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} أي لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال: {فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا} [سورة النبأ: (٣٠)].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} هذا على ظاهره: أنهم يحشرون على وجوههم، الله -تبارك وتعالى- قال: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}[سورة القمر: (٤٨)]، فهذا في سحبهم في النار على الوجه؛ ليحصل لهم بذلك غاية الإهانة؛ لأن الله أخبر عن عذاب النار ووصفه بأوصاف: أنه أليم وشديد وعظيم ومهين، والإهانة: عذاب يقع على النفس، والألم يقع على البدن بالدرجة الأولى، كما يقع أيضاً على النفس، فهذا عذاب مهين، وهو عذاب أليم، فمن سوء صنوف الإهانة التي تحصل لهم في النار أن الله -تبارك وتعالى- أخبر أنهم يسحبون في النار على وجوههم، والوجه هو أشرف ما يكون في الإنسان؛ ولهذا نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ضرب الوجه، وكذلك أيضاً لمّا رأى الدابة قد وُسمت على وجهها قال: ((لعن الله من فعل هذا))[٣]، حتى الدابة، فالمقصود أنهم يسحبون في النار على وجوههم، لكن الآية هنا في الحشر: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} ولهذا تفسيره هنا لا يكون بقوله تعالى: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} ليس هذا هو المقصود -والله أعلم-، وإنما المقصود في الحشر يحشرون على وجوههم، لا أنهم يسحبون على وجوههم، فهذا أمر لا غرابة فيه، وهو ممكن، ولو كان المقصود ذلك لما سأل عنه الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- فإنهم سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم-: كيف يحشر الناس على وجوههم والإنسان يقف على قدميه؟، قال: ((الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم))، فمعنى ذلك أن الناس يقفون على قدمين، ويقف آخرون على الوجه، وفي أسوأ حال، أعمى وأبكم وأصم، لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم، وهو في غاية الأهوال والأوجال، وصح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما عند الترمذي[٤] وغيره[٥] أنه قال: ((إنكم محشورون رجالاً وركباناً)) رجالاً: يعني على الأقدام، وأناس يحشرون في حال الركوب، ((رجالاً وركباناً وتجرون على وجوهكم)) يمكن أن يكون هذا بمعنى الآية {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ} لكن ذاك في العذاب في النار وهنا قال: ((وتجرون على وجوهكم)) فيمكن أن يكون المراد به السحب على الوجوه، ولكن السحب على الوجوه أمر لا يستغرب، فقد يحصل لهم كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك هنا في قوله: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا}، لو كان المقصود مجرد السحب على الوجه فإن هذا أمر متصور، لا يحتاج إلى أن يسأل الناس عنه، ولو كان المقصود السحب لبينه لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجواب، ولكن بيَّن أن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يحشرهم على وجوههم، فدل على أنهم يحشرون على هذه الهيئة والصفة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {عُمْيًا}: **أي لا يبصرون**، {وَبُكْمًا}: **يعني لا ينطقون**، {وَصُمًّا}: **لا يسمعون**، إلى آخره، لا يفسر بأنهم عمي عن الحق -مثلاً- وبكم عن النطق به، لا ليس هذا المراد، وإنما عمي لا يبصرون، وهذا يشهد لقوله -تبارك وتعالى-: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [سورة طه: (١٢٤)]، وقد ذكرت

---

[٣] - مسند أحمد بن حنبل: (٢٩٦/٣) برقم: (١٤١٩٧).

[٤] - سنن الترمذي: (٦١٦/٤) برقم: (٢٤٢٤).

[٥] - مسند أحمد بن حنبل: (٥/٥) برقم: (٢٠٠٦٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوجوه في تفسيرها، وأن من ذلك أنه من كان في هذه أعمى عن الحق فهو في الآخرة أشد عمىً، هذا إذا فسر بأفعل التفضيل، أو من كان أعمى عن الحق، والبراهين الدالة على أن الله خلق هذه الحياة وأجراها بهذه الهيئة، فهو عن أمر الآخرة والأمور الغيبية أشد عمىً، ولا يتوصل إلى معرفتها، والإيمان بها، ونحو ذلك، والمعنى الآخر: أن {أَعْمَى} ليس المقصود به أفعل التفضيل، أي من كان في هذه أعمى عن الحق وبراهينه ودلائله فهو في الآخرة أعمى، جزاءً وفاقاً، يحشر وهو لا يبصر، وهذا هو الراجح، ويدل عليه قوله -تبارك وتعالى-: {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا} [سورة طه: (١٢٥)]، فهو لا يسأل لماذا حجبت عني براهين الحق، وإنما يقول: لماذا أخذت بصري، {وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا} في الدنيا؟، {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [سورة طه: (١٢٦)]، فهنا يقول: {عُمْيًا}: **أي لا يبصرون**، {وَبُكْمًا}: **يعني لا ينطقون**، {وصماً}: **أي لا يسمعون**، وهنا يرد سؤال وهو أن هؤلاء يحشرون بهذه الصفة، لا يسمعون ولا يبصرون ولا يتكلمون، والله -تبارك وتعالى- يقول: {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} [سورة الفرقان: (١٣)] دعوا، تكلموا، ويقولون: {رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا} [سورة المؤمنون: (١٠٦)]؟ هذا الكلام الذي ينطقون به وما ذكره الله -عز وجل- بعضه واقع في النار، والكلام هنا في المحشر، ثم إن يوم القيامة يوم طويل، يمكن أن يكون في بعض الأوقات لا يسمعون ولا يبصرون، وفي بعض الأوقات يبصرون كما قال الله -عز وجل-: {يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ} [سورة الشورى: (٤٥)]، وقال: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ} [سورة القلم: (٤٣)]، من شدة الهوان والمذلة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} خبت يعني خفتَ وهجُها، وضَعُف لهبُها، زادهم الله -عز وجل- سعيراً، وهذا لا يعارض قوله -تبارك وتعالى-: {لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ} [سورة الزخرف: (٧٥)]، وإنما المقصود أنه لا يكون لهم نفس فيها، لا يكون هناك انقطاع في العذاب، وإنما يبقى عذابهم على أشد حالته، والنار تبقى مضطرمة مستعرة عليهم، كلما خفتت زيدت.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالى- في كتابه "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب":

قوله تعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا} الآية، هذه الآية الكريمة يدل ظاهرها على أن الكفار يبعثون يوم القيامة عمياً وبكماً وصماً، وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [سورة مريم: (٣٨)]، وكقوله: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا} [سورة الكهف: (٥٣)]، وكقوله: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا}[سورة السجدة: (١٢)].

والجواب عن هذا من أوجه:

قوله: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا}، أي: ما أسمعهم وما أبصرهم.

الوجه الأول: هو ما استظهره أبو حيان من كون المراد مما ذكر حقيقته، ويكون ذلك في مبدأ الأمر، ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم، فيرون النار، ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع.

الوجه الثاني: أنهم لا يرون شيئاً يسرهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون بحجة، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون، ولا ينطقون بالحق، ولا يسمعونه، وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

-رضي الله تعالى عنهما-، وروي أيضا عن الحسن كما ذكره الألوسي في تفسيره، فنزَّل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العدم؛ لعدم الانتفاع به كما تقدم نظيره.

الوجه الثالث: أن الله إذا قال لهم: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [سورة المؤمنون: (١٠٨)] وقع بهم ذاك العمى والصمم والبكم من شدة الكرب واليأس من الفرج، قال تعالى: {وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ} [سورة النمل: (٨٥)] وعلى هذا القول تكون الأحوال الثلاثة مقدرة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً} [سورة الإسراء:٩٨- ٩٩].

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به، من البعث على العمي والبكم والصمم جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا {بِآيَاتِنَا} أي: بأدلتنا وحجتنا، واستبعدوا وقوع البعث، {وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا} أي: بالية نخرة، {أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً} أي: بعد ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية؟ فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [سورة غافر:٥٧]، وقال: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} [سورة الأحقاف:٣٣] الآية، وقال: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [سورة يس:٨١-٨٢] إلى آخر السورة، وقال ههنا: {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم، وقوله: {وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ} أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لابد من انقضائها، كما قال تعالى: {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ} [سورة هود:١٠٤]، وقوله: {فَأَبَى الظَّالِمُونَ} أي: بعد قيام الحجة عليهم، {إِلاَّ كُفُوراً} إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً}، يستدل على قدرته -تبارك وتعالى- على البعث بخلقه هذه الأجرام، والمخلوقات العظام التي هي أشد من خلق الناس، {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}، وهذا أحد الطرق التي يستدل بها القرآن على تقرير أمر البعث، فتارة يحتج عليهم بالنشأة الأولى، وتارة بأمثلة مضروبة واقعة في أقوام أحياهم الله -عز وجل- بعدما ماتوا، كأولئك الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، وكالذي مر على قرية، وتارة يحتج عليهم بأن أخرج لهم من الشجر الأخضر ناراً، فصاروا يوقدون منه، إلى غير ذلك من طرق إثبات البعث، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ} إن فُسر الأجل هنا بأنه الموت -كما قاله بعض السلف- فلا إشكال فيه؛ لأنهم لا يُمارون بالموت، يقرون أن الموت ملاقيهم، فيكون المعنى هكذا {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاّ رَيْبَ فِيهِ} أي: الموت، فتكون الواو عاطفة على ما قبلها، ولكن إذا فسر الأجل بيوم القيامة كما ذهب إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فهم لا يؤمنون بالبعث، فالقول بأن الواو عاطفة على هذا المعنى فيه إشكال، على هذا المعنى يكون {أَوَلَمْ يَرَوْاْ} يعني الرؤية هنا علمية وليس بالبصر، أولم يعلموا {أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىَ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاّ رَيْبَ فِيهِ} فهم لا يؤمنون أصلاً بالبعث، وبعض المفسرين يقول: إن الآية فيها تقديم وتأخير ويقدرها هكذا، {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}، {وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاّ رَيْبَ فِيهِ}، {قَادِرٌ عَلَىَ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ}، لكن الأصل في الكلام الترتيب، ولا حاجة لدعوى التقديم والتأخير إذا كانت الآية يمكن أن تفهم على وجه صحيح من غيره، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن الواو استئنافية، وهذا قول لعله أجود هذه الأقوال: إن الواو للاستئناف وليست عاطفة، {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىَ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} يحتج على قدرته على البعث وإعادتهم ثانية بالنشأة الأولى، ثم يخبر بعد ذلك أنه جعل لهم أجلاً لا ريب فيه، {وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاّ رَيْبَ فِيهِ}، وبهذا تنفك هذه الجملة وما تضمنته من المعنى عما قبلها فلا يكون ذلك داخلاً في قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْاْ} أولم يعلموا؛ لأنهم لا يعلمون هذا ولا يؤمنون به، إذا فسرناه بالقيامة، فهم ينكرون البعث أصلاً.

{قُل لّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبّي إِذاً لأمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنسان قَتُوراً} [سورة الإسراء:١٠٠].

يقول تعالى لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه-: قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكتم خشية الإنفاق، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة: أي الفقر، خشية أن تُذهبوها مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال: {وَكَانَ الإِنسان قَتُوراً} قال ابن عباس وقتادة: أي بخيلاً منوعاً، وقال الله تعالى: {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً} [سورة النساء:٥٣] **أي: لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه، فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: {إِنَّ الإِنسان خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ}** [سورة المعارج:١٩-٢٢]**؛ ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين: ((يد الله ملأى لا يَغِيضها نفقةٌ، سَحَّاءُ الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه))**[(١)].

قوله -تبارك وتعالى-: {إِذاً لأمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ} أي: خوف الإنفاق، يقول: قال ابن عباس وقتادة: أي الفقر، وهذا ليس من قبيل التفسير بالمطابق، فإن قوله: {خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ} ليس معناه الفقر، وإنما هذا تفسير له بلازمه أو نتيجته، فإنه خشية الإنفاق، لئلا يفتقر، والسلف يفسرون تارة بالمطابق وتارة بالتضمن، وتارة يفسرون الشيء بلازمه، أو بنتيجته، أو يفسرون على المعنى، يقال: هذا تفسير على المعنى، وليس بتفسير على اللفظ، فهذا من هذا القبيل، وليس بتفسير على اللفظ مباشرة، وإنما قال الله -عز وجل- مثلاً في النار التي في الدنيا إنه جعلها تذكرة، قال: {وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ} [سورة الواقعة:٧٣]، فأصل هذه اللفظة أي النازلين في

---

١ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [سورة ص:٧٥]، برقم (٦٩٧٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، برقم (٩٩٣)، واللفظ له.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأرض القواء يعني القفر، يوقدون ويصطلون وما إلى ذلك، ولهذا فسرها بعضهم بالمسافرين، مع أن لفظة المُقْوين ليس معناها المسافرين، ولكن هؤلاء الذين في الأرض القواء، ويكون ذلك في أسفارهم وتنقلاتهم، ففسره من فسره من السلف بهذا، وإلا فأصل المعنى هو النازل في أرض القواء، الأرض القفر التي ليس فيها أحد، الصحراء، فقوله: {لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ} قال: أي الفقر، الله ما قال: خشية الفقر، قال: {خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ} خشية الإنفاق؛ لئلا يفتقر، ولهذا يقول بعض المفسرين: إن قتل الأولاد كان خشية العار، مع أن الله قال: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [سورة الإسراء:٣١] يعني الفقر، من أملق الرجل: لم يبق له إلا الملقات، وهي الحجارة الملساء، فهم إنما قتلوهم خشية الفقر لئلا يؤدي ذلك إلى أن تضطر البنت لبيع عرضها، فهذا يكون ثانياً، أي مما يترب عليه، وينتج عنه، فهكذا في قوله: {لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ} قال: أي الفقر، يعني إذا أنفقوا أدى ذلك إلى الفقر، في تصورهم وزعمهم.

{وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا}، قتور صيغة مبالغة، يعني شديد التقتير، شديد الإمساك، والله يقول: {وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ} [سورة النساء:١٢٨]، {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة التغابن:١٦]، فأضاف الشح إلى النفوس لشدة تمكنه منها، وهو مختص، وكأنه يختص بها، ملاصق لها، لا تنفك عنه إلا بمجاهدات وترويض وتهذيب لهذه النفوس.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُوراً * فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً * وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً} [سورة الإسراء:١٠١-١٠٤].

يخبر تعالى أنه بعث موسى -عليه السلام- بتسع آيات بينات وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهي العصا، واليد، والسنين، والبحر والطوفان، والجراد والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

وقال محمد بن كعب: هي اليد والعصا، والخمس في الأعراف والطمْسَة، والحجر، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة: هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

هذه الآيات التسع اختلف العلماء -رحمهم الله- فيها ولم يتفقوا على قول معين، وهذا القول الذي نقله عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال به كثير من المفسرين، العصا، واليد، والسنين، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، إلا أنهم ذكروا بدلاً من البحر: نقص الثمرات، والمقصود بالبحر أن الله أمره أن يضرب بعصاه البحر فانفلق {فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [سورة الشعراء:٦٣]، {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} [سورة طـــه:٧٧]، فقال: العصا واليد والسنين، {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ} [سورة الأعراف:١٣٠] وهو القحط والجدب، والبحر والطوفان، {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ} [سورة الأعراف:١٣٣]، ومن السلف كالحسن البصري -رحمه الله- من ذكر هذه الأشياء إلا أنه ذكر مكان السنين ونقص الثمرات: الجبل والبحر، والمقصود بالجبل ما ورد في قوله: {وَإِذْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ} [سورة الأعراف:١٧١]، رُفع الجبل فوق هؤلاء وصار كالسحابة لما عتوا عن أمر الله -عز وجل- وأبوا عن قبول ما جاء عنه، فكانوا في غاية المكابرة، يقولون: سمعناه يقول: كذا وكذا، ثم قال: إن شئتم فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا، فرفع فوقهم الجبل، فخروا سجداً من الخوف، ويقال: إنهم رفعوا عيناً إلى السماء وهم في حال السجود من الخوف، خشوا أن يقع الجبل عليهم، ولهذا يقال: إن سجدة اليهود، يسجد على عين ويرفع الأخرى، هذا هو أصل سجودهم حينما سجدوا لمّا رُفع الجبل عليهم، لشدة عتوهم، ويقول محمد بن كعب: هي اليد والعصا والخمس التي في الأعراف والطمسة، والمقصود بالطمسة أو الطمس لما دعا موسى -عليه الصلاة والسلام- ربه فقال: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ} [سورة يونس:٨٨]، هذا هو المراد، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة: هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

والآيات التي أعطاها الله لموسى كثيرة، ومن أبرز هذه الآيات: التسع التي أشار الله إليها.

{فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ} أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت فيهم: فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، وقالوا: {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا} إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات: {إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً} قيل: بمعنى ساحر، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ}، وقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا}، هذه الآيات في ظاهر السياق تدل على أن الآيات التي أراها الله -عز وجل- فرعون وقومه وكابروا وأبوا من الدخول في الإيمان فكانوا يقولون: { يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ} [سورة الأعراف:١٣٤-١٣٥]، الذي يظهر أن الآيات التسع هي الآيات التي وجهت إليهم، وأن الجبل حينما رُفع هو آية من الآيات التي أعطاها الله لموسى -عليه الصلاة والسلام-، وهذا ليس على سبيل المعجزة قصداً وابتداءً من أجل الدخول في الإيمان، ومن أجل أن يثبت لهم أنه نبي، وإنما حصل هذا بعد إهلاك فرعون، رفع الله فوقهم الجبل، فوق الإسرائيليين، والفراعنة ما رأوا هذا، ولم تكن تلك الآية مسوقة لهم؛ ولذلك أكثر المفسرين ما ذكروا الجبل، كذلك أيضاً البحر: جمهور المفسرين ما ذكروا البحر؛ لأنه لم يكن من الآيات التي جاء بها موسى -عليه الصلاة والسلام- لهؤلاء من أجل الدخول في الإيمان، وإنما كان في نهاية المطاف عند الغرق، حين انتهى كل شيء، فالله -عز وجل- يقول: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا}، وفرعون حينما قال: إني لأظنك يا موسى، لم يكن له تعلق بالجبل الذي حصل بعد إنجاء موسى ومن معه، ولم يكن له تعلق بالبحر حيث انفلق ثم أغرق الله -عز وجل- الفراعنة، فتكون الآيات بهذا الاعتبار العصا واليد والسنين، {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ} [سورة الأعراف:١٣٠]، ونقص الثمرات بدلاً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من البحر، والطوفان فاض عليهم النيل، {وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ} هذه الآيات، والله تعالى أعلم، فالآيات التسع ينبغي أن تحصر بما كان قبل إغراق فرعون مما ساقه لحملهم على الإيمان.

وقوله: {إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا}، إذا حُمل "مسحور" بمعنى مفعول على ظاهره يعني أنه قد وقع عليك السحر فأصابك بسبب ذلك شيء في عقلك ونظرك فادعيت هذه الدعوى أنك نبي مرسل من عند الله -عز وجل-، يكون "مسحور" كما قالوا أيضاً لأنبيائهم -عليهم الصلاة والسلام-: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}[سورة الشعراء:٢٧]، به جنون، يدعي أنه نبي وأنه رسول، وأن الله أرسله، فهو يقول كما قال الله -تبارك وتعالى- عن قول الأمم عامة حينما يأتيهم الأنبياء فإن قولهم بذلك متحد: {إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [سورة الذاريات:٥٢]، فقول: {إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا} يمكن أن يكون المراد على ظاهره "مسحور" يعني باعتبار مفعول، أي أنه وقع عليك السحر، أصابك سحر فأصابك شيء من التخليط بسببه، ويحتمل أن يكون المراد مفعول بمعنى فاعل، تقول: هذا رجل مشئوم، يعني أنه ذو شؤم، وليس الشؤم وقع عليه، لكنه يكون منه، فمفعول تأتي بمعنى فاعل أحياناً في كلام العرب، فيكون "مسحور" بمعنى ساحر، {إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا} أي: ساحراً، وهذا تشهد له الآيات الأخرى {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ} [سورة الزخرف:٤٩]، مع أن بعض المفسرين تكلف فيه وقال: إنهم قصدوا بذلك يا أيها العالِم؛ لأن السحر عندهم بمنزلة رفيعة، فإذا أرادوا أن يمدحوا ذلك ونحو ذلك قالوا: يا أيها الساحر، وهذا خلاف الظاهر، ولا يجوز حمل القرآن على غير ظاهره إلا لدليل، لكن هم يعتقدون أنه ساحر، فقالوا ذلك، مثل الذين قالوا: صبأنا صبأنا، عندما أرادوا أن يدخلوا في الإسلام قالوا: صبأنا صبأنا، فهؤلاء يقولون: الساحر، ولما جاءهم موسى -عليه الصلاة والسلام- بالبينات قالوا: إنه ساحر، ولهذا طلبوا السحرة، {ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [سورة يونس:٧٩] بكل سحار من أجل إبطال ما جاء به -صلى الله عليه وسلم-، فيكون من باب مفعول بمعنى فاعل، وهذا الذي تشهد له الآيات الأخرى التي ذكر الله فيها قول فرعون في موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهكذا قال الملأ: إن موسى -عليه الصلاة والسلام- كان ساحراً.

فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة ههنا، وهي المعنية في قوله تعالى: {وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ} إلى قوله: {فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ} [سورة النمل:١٠-١٢].

قوله: {فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ} آيات يعني بيّنة، آيات: دلائل وحجج على صحة ما جاء به موسى -صلى الله عليه وسلم-، ولم يكن منها نتوق الجبل ولا انفلاق البحر؛ لأن ذلك لم يكن من أجل الدخول في الإيمان، وإنما كان في نهاية المطاف.

فذكر هاتين الآيتين العصا واليد وبيّن الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصلها، وقد أوتي موسى -عليه السلام- آيات أخر كثيرة، منها ضربة الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمام.

حينما كانوا يستسقون يحملون حجراً فيضربه موسى -صلى الله عليه وسلم- إذا احتاجوا إلى الماء، فينفجر من هذا الحجر اثنتا عشرة عيناً، على عدد أسباط قبائل بني إسرائيل، {قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ} [سورة البقرة:٦٠]، فهذه آية، لكن لم تكن موجهة لفرعون وقومه، وإنما كان ذلك بعد إهلاكهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنها تظليلهم بالغمام.

هذا كان في التيه لما خرجوا بعد إهلاك فرعون.

وإنزال المن والسلوى.

ومثل هذه لم يكن المقصود بها إثبات النبوة، مثل الآيات التي جرت للنبي -صلى الله عليه وسلم-، مثل نبع الماء من بين أصابعه -صلى الله عليه وسلم-، وتكثير الطعام ونحو ذلك، كانت تجري من غير طلب من أحد، وكان ذلك بين أهل الإيمان؛ ولذلك فإن ما يسميه المتأخرون بالمعجزات وهي دلائل النبوة وآيات الأنبياء منها ما يكون قصد به التحدي مثل انشقاق القمر، والقرآن، وعصا موسى -عليه الصلاة والسلام-، وحينما يخرج يده بيضاء من غير سوء، من غير برص، ونحو ذلك، فهذه يقصد بها التحدي، وهناك أشياء تجري على يد هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وعلى أتباع الأنبياء مما يسميه المتأخرون بكرامات الأولياء، وكل ذلك في عرف المتقدمين يقال له: آيات الأنبياء، ويقال له: دلائل النبوة، لكنّ المتأخرين قالوا لما يجري على يد الأنبياء معجزات، وقالوا لما يجري على يد أتباعهم كرامات، يعني من الخوراق، فهذه ليس المقصود بها كما يقوله المتكلمون من الأشاعرة ونحوهم بأنها خوراق للعادة، يُعرّفون المعجزة بأنها: أمر خارق للعادة، على سبيل التحدي، مقرون بدعوى النبوة، هذا تعريفهم هم؛ لأنهم لا يفرقون تفريقاً صحيحاً بين المعجزة وبين السحر، فعندهم ذلك يلتبس على الناس، فلهذا جاءوا بهذا التعريف للأسف الذي أصبح مشهوراً ويدرسه كثير من الناس ولا يتفطنون لما تحته، لا تكاد تجد من يتكلم على المعجزة إلا ويذكر هذا التعريف: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، أو على سبيل التحدي، مع دعوى النبوة، مقرون بدعوة النبوة، هذا الكلام غير صحيح فإن المعجزات منها ما لا يكون على سبيل التحدي، كنبع الماء بين أصابعه -صلى الله عليه وسلم-، وتكثير الطعام، وإنزال المن والسلوى على موسى -عليه الصلاة والسلام-، والتظليل بالغمام، هذا لم يكن على سبيل التحدي، وقولهم: مقرون بدعوى النبوة، ليس بلازم، فهم يريدون أن يفرقوا بينه وبين ما يجري على أيدي السحرة، والفرق الحقيقي بين ما يجري على يد السحرة وبين ما يجري على يد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من الخوارق: أن خوارق السحرة لا تكون خارقة للعادة، نعم، قد تكون خارقة لعادة غيرهم من الناس، فحينما يمشي الساحر مثلاً على النار، ويقول: درست هذا في دورة، هذه خارقة لعادة غيرهم، ويمكن لكل من تعلم هذا السحر الباطل أن يفعل مثله، وقل مثل ذلك في جميع أباطيلهم، وللأسف صارت هذه الأشياء اليوم تروج تحت مسمى دورات، فالأحجار الآن يعتقد فيها، هذا حجر فيه الخاصية الفلانية، وهذا الحجر فيه الخاصية الفلانية، هذه وثنية يأتون بها من أمم شرقية لا يعرفون الدين ولا يعرفون الله، وتروج أحياناً تحت مسميات وألقاب ومصطلحات مقبولة، يظن من لا بصر له أنها فعلاً مصطلحات علمية وجيدة، وهذا الحجر له خاصية كذا، وهذا يسحب الغم والهم، وهذا يسحب الروماتيزم، وهذا يسحب المرض الفلاني، وهذا ضد العين، وغير ذلك من الخزعبلات.

وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولهذا قال موسى لفرعون: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به، {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا} أي: هالكاً، قاله مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ملعوناً، وقال أيضاً هو والضحاك: {مَثْبُورًا} أي: مغلوباً، والهالك كما قال مجاهد يشمل هذا كله.

وقوله هنا: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ}، {لَقَدْ عَلِمْتَ} هكذا قرأه الجمهور بفتح التاء، وفي قراءة متواترة، قراءة الكسائي بضم التاء، {لَقَدْ عَلِمْتُ} فموسى يتحدث عن نفسه -عليه الصلاة والسلام-، فيقول: أنا أعلم ذلك وأنت لا تعلمه يا فرعون، لكن قراءة الجمهور {لَقَدْ عَلِمْتَ}، يؤيدها قوله -تبارك وتعالى-: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [سورة النمل:١٤]، وقوله: {بَصَائِرَ} هذا نصبُه على الحال، {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا} أي: هالكاً، وذلك قاله موسى -عليه الصلاة والسلام- بعد أن خاطبه بأسلوب ألين من هذا، فالله -عز وجل- قال: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا}[سورة طه:٤٤] فجاءه بهذه الآيات فلما كابر وكفر كان آخر الدواء الكي، فخاطبه بهذا الخطاب الذي ذكره الله -عز وجل-: {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا} أي: هالكاً، والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الإسراء (٢٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً} [سورة الإسراء:١٠٣] الآيات.

وقوله: {فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ} أي: يخليهم منها ويزيلهم عنها، {فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً * وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ} [سورة الإسراء:١٠٣-١٠٤] وفي هذا بشارة لمحمد -صلى الله عليه وسلم- بفتح مكة، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا}[سورة الإسراء:٧٦] الآيتين؛ ولهذا أورث الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- مكة فدخلها عنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة الشعراء:٥٩]، وقال ههنا: {وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً} أي: جميعكم أنتم وعدوكم، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة والضحاك: {لَفِيفاً} أي: جميعاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ} قال: "**أي يخليهم منها ويزيلهم عنها**"، فهو بمعنى الإخراج، هذا هو المشهور من أقوال المفسرين، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا} ولكن يرد على هذا التفسير أن فرعون كان يأبى خروج الإسرائيليين من مصر، ولهذا كان موسى -عليه الصلاة والسلام- يطالبه بأن يرسله معهم؛ لأنه كان يستعبدهم ويمتهنهم ويحملهم الأعمال الشاقة، كما قال الله -تبارك وتعالى- عنه: {يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ} [سورة الأعراف:١٤١]، يقتّلون أبناءهم لإضعافهم، ويستحيون نساءهم: يُبقون البنت حية من أجل أن تبقى للخدمة، يستذلونها ويستعبدونها، فموسى -عليه الصلاة والسلام- كان يقوله له: {فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ} [سورة طه:٤٧]، فكان فرعون يمتنع من هذا ويأبى، فما وجه قوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ}؟ هل كان يريد أن يخرجهم منها؟ هم خرجوا كما هو معلوم خفية دون علم فرعون، فلما شعر بهم تبعهم، فمن أهل العلم من نظر إلى هذا المعنى فقال: إن قوله: {فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ}: أي يخليهم منها -من الأرض- بالقتل؛ لأنه بدأ يحرض عليهم {إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ} [سورة الشعراء:٥٤-٥٦]، فكأنه كان يمهد لها وقال: {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [سورة غافر:٢٦]، وكذا فعل مع السحرة {لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ} [سورة الأعراف:١٢٤]، وتوعدهم بالصلب، فمن أهل العلم من فسره بالقتل من أجل هذا الملحظ، -والله تعالى أعلم-. ولو أنه فسر بالاستفزاز كما فسر بالإخراج، استفزاز موسى -صلى الله عليه وسلم- بالتضييق عليه فيضطر إلى الخروج، أو بإخراجه فعلاً، فهم كانوا يضيقون عليهم غاية التضييق كما هو معلوم، أما أن يخرجوهم فعلاً من الأرض فكان هذا مطلوباً لموسى -صلى الله عليه وسلم-، إلا أن يقول قائل: إن الذي طلبه موسى -صلى الله عليه وسلم- هو أن يرسل معه بني إسرائيل، يعني بترك استعبادهم وتركهم يتبعون موسى -عليه الصلاة والسلام- ويعبدون الله ويتبعون شرائعه بدلاً من هذا الاستعباد والاستذلال، مع ادعائه للربوبية {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}[سورة النازعات:٢٤]، فطلب منه أن يترك هؤلاء وشأنهم، قد يقول قائل: إن هذا الذي قصده موسى -صلى الله عليه وسلم- لا الإخراج من أرض مصر؛ لأنهم قد استوطنوها منذ أزمان طويلة من بعدما جاءوا إلى مصر حينما كان يوسف -عليه الصلاة والسلام-، وجاء إخوته كما هو معلوم، والله تعالى أعلم.

وقول الله -تبارك وتعالى-: {وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ} [سورة الإسراء:١٠٤] عندما خرج بنو إسرائيل من مصر إلى الشام وحصل لهم ما حصل من التيه، المؤرخون يقولون: إنهم ما رجعوا بعد الإغراق، وهذا الذي يدل عليه ظاهر القرآن، أنهم توجهوا إلى الشام وما رجعوا إلى مصر بعد الإغراق واستوطنوها، لكن الله -عز وجل- قال في موضع آخر: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}[سورة الشعراء:٥٩]، وفي الموضع الآخر {قَوْمًا آخَرِينَ} [سورة الدخان:٢٨]، وهم بنو إسرائيل، والمقصود بالأرض أرض مصر بعدما ذكر إهلاك فرعون، وفي الآية الأخرى قال: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [سورة الأعراف:١٣٧]، فالأرض: من أهل العلم من يقول: مصر والشام، ومنهم من يقول: الشام، ولا يتعارض مع كونهم ذهبوا إلى الشام أن الله -عز وجل- أورثهم أرض مصر بحيث صارت تابعة لهم، ومعلوم أن البلاد المصرية كان الناس قبل الإسلام فيها يدينون بالنصرانية، ويوجد طائفة من اليهود، فالقبط هم الذين كانوا يحكمون مصر، وبنو إسرائيل كما هو معلوم هم اليهود والنصارى، إلا أنهم انقسموا بعد بعث عيسى -صلى الله عليه وسلم- {فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ} [سورة الصف:١٤]، فالذين آمنوا هم الذين عرفوا بعد ذلك بالنصارى، {الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى} [سورة المائدة:١٤]، وإلا فكل هؤلاء من بني إسرائيل، الذين كانوا يحكمون مصر كانوا من الإسرائيليين، بمعنى أنهم كانوا نصارى، حتى جاء عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه- وفتحها، والمقوقس كان نصرانياً، فالشاهد أنها بقيت تابعة لهم لكن لا يعني هذا أن موسى -صلى الله عليه وسلم- ومن معه رجعوا وبقوا في أرض مصر، وإنما توجهوا إلى الشام، ومعروف في التاريخ أن مفتاح البلاد المصرية هو الشام، ولذلك الذين يحكمون مصر عبر التاريخ أول ما يحرصون عليه هو وضع اليد على الشام، من أجل أن يؤمنوا البلاد المصرية من الغزو أو الغزاة، فإذا وقعت الشام في أيديهم فهذا هو المفتاح، وُجدت الوحدة بين الشام ومصر حتى في عصور متأخرة، وقبل ذلك وجد التوسع المصري، واحتلال بلاد الشام من قبل أمراء من المصريين تابعين للبلاد، أو للدولة العثمانية، ووقع ذلك لمحمد علي باشا، وكان يطالب الدولة العثمانية دائماً باحتلال مصر، وما نهضت همته لمحاربة الوهابيين كما يسمونهم وإرسال ابنه طوسون في بداية الأمر، ثم بعد ذلك فشل طوسون،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وانهزموا، ثم أرسل إبراهيم بجيش من البحر وجيش من البر، ولم يذهب إلا بعدما أعطته الدولة العثمانية عهداً، وعقدت معه عقداً أن تعطيه الشام، فلما وافقوا له بهذا سيّر الجيش، وكانت الدولة العثمانية أضعف من أن تغزو هذه البلاد، كانت في حالٍ من الترهل والضعف، فالشاهد أن قوله -تبارك وتعالى-: {اسْكُنُواْ الأَرْضَ} يحتمل أن تكون أرض الشام، ويحتمل أن يكون جنس الأرض، يتبوءون منها حيث شاءوا ممكنين، لا يخافون من عدو يستذلهم، ويقتل أبناءهم، ويصرفهم عن طاعة الله -عز وجل-.

يقول الله -عز وجل-: {فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا}، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي أنتم وعدوكم جميعاً**"، {لَفِيفًا} تقول: جاء القوم بلفهم ولفيفهم، يعني: أن الله يحشرهم في حال يجمعهم جميعاً، يختلط بعضهم ببعض، المؤمن بالكافر، يُحشر الإسرائيليون والفراعنة وغير هؤلاء من الأمم التي أهلكها الله -عز وجل-، وممن آمن بالرسل وأتباع الرسل، يحشر الجميع مختلطين مؤمنهم وكافرهم، فاللفيف ما اجتمع من أخلاط الناس، وقبائلهم المختلفة، فهم يحشرون مختلطين، لا يتميزون، ولا يكون الحشر لبعضهم دون بعض، لا ينتسب أحد منهم ويأوي إلى قبيلته، أو طائفته، أو أهله أو نحو ذلك أو إلى أهل بلده، فكل إنسان مرتهن بعمله، مطلبه فكاك رقبته، والله المستعان، وإلا فإن المرء يفر من أبيه وأقرب الناس إليه، فلا ينحاز أحد منهم إلى أحد.

{وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ مُبَشّراً وَنَذِيراً * وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ عَلَىَ مُكْثٍ وَنَزّلْنَاهُ تَنْزِيلاً}[سورة الإسراء:١٠٥-١٠٦].

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز -وهو القرآن المجيد- أنه بالحق نزل، أي متضمناً للحق، كما قال تعالى: {لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ}[سورة النساء:١٦٦] أي: متضمناً علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه، وقوله: {وَبِالْحَقّ نَزَلَ} أي: ونزل إليك يا محمد محفوظاً محروساً لم يُشَب بغيره ولا زيد فيه ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ} أي: يا محمد {إِلاّ مُبَشّراً وَنَذِيراً} مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين.

وقوله: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ} أما قراءة من قرأ بالتخفيف فمعناه فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ثلاث وعشرين سنة، قاله عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وعن ابن عباس أيضاً أنه قرأ: {فرّقناه} بالتشديد أي أنزلناه آية آية مبيناً ومفسراً؛ ولهذا قال: {لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ} أي: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم، {عَلَىَ مُكْثٍ} أي: مهل {وَنَزّلْنَاهُ تَنْزِيلاً} أي: شيئاً بعد شيء.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ} أي أنزلناه إنزالاً متلبساً بالحق، {وَبِالْحَقّ نَزَلَ} أي: نزل متضمناً للحق، وفيه من الحقائق والهدايات والأمور التي يحتاج إليها الناس مما يتوقف عليه مساعدتهم ونجاتهم وفلاحهم، فالله -تبارك وتعالى- جعله تبياناً لكل شيء، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ}، قرآناً هنا منصوبة بفعل محذوف مقدر يفسره ما بعده، أي فرقناه، يقدرون هكذا: وفرقنا قرآناً، {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ}، فرقنا قرآناً، قال: "**أما قراءة من قرأ بالتخفيف**"، من قرأ بالتخفيف يعني: الراء غير مشددة، {فَرَقْنَاهُ} هذه قراءة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التخفيف وهي القراءة المتواترة، فمعناها فصلناه من اللوح المحفوظ، {فَرَقْنَاهُ} فصلناه، فرَق بين كذا وكذا بمعنى فصل، فرَق بين الخصوم فصل بينهم، فرَق بين الحق والباطل يعني فصل، هذا وجه، والمعنى الثاني {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ} أي: بيناه وأوضحناه، وفرَقنا فيه بين الحق والباطل، وهذا هو المشهور في معنى {فَرَقْنَاهُ} قراءة التخفيف، وهو الذي اختاره أبو عبيد القاسم بن سلام -رحمه الله- وهو إمام في التفسير واللغة والقراءة، ويمكن أن تفسر بهذا وهذا؛ لأن ذلك جميعاً من معنى هذه اللفظة، فما ذكره مستشهداً بقول ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفرقاً منجماً، فالقرآن في اللوح المحفوظ، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ}[سورة البروج:٢٢]، وكذلك أيضاً في صحف بأيدي الملائكة كما في قوله: {فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [سورة عبس:١٣-١٦]، وكذلك أيضاً نزل إلى بيت العزة من سماء الدنيا، فهذا الأثر عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- جاء من طرق متعددة، وهو ثابت صحيح، ومثله لا يقال من جهة الرأي، مثل هذا له حكم الرفع، فالقرآن فُصل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، في ليلة القدر {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [سورة القدر:١] يعني: أنزلناه إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وكذلك أيضاً أن الله -تبارك وتعالى- أنزله على نبيه -صلى الله عليه وسلم-، فهذه تنزلات أربعة للقرآن، التنزل الأول في اللوح المحفوظ، التنزل الثاني إلى بيت العزة، التنزل الثالث وهو أن الله جعله في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة وهم الملائكة السفراء بين الله ورسله -عليهم الصلاة والسلام-، والتنزل الرابع وهو نزوله على النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعقيدة أهل السنة والجماعة كما هو معلوم أن التنزل الرابع هذا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن من بيت العزة، ولا من اللوح المحفوظ، ولا من الصحف التي بأيدي الملائكة، بل من الله مباشرةً، ويدل على هذا حديث التكلم في الوحي، عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلةً كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم، قال: فيقولون يا جبريل ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحق الحق))[1]، وكذلك قول الزهري -رحمه الله-: "أحدث آية بالعرش آية الدين"، فلم يقل ببيت العزة في السماء الدنيا، ولا باللوح المحفوظ، وإنما قال بالعرش، فهذه التنزلات لا تنفي عنه أنه متلقًّى من الله مباشرةً، تلقاه جبريل فنزل به، لكن هذا مما يبين شدة عناية الله -عز وجل- بهذا القرآن، وعظم هذا القرآن، ومنزلته.

قال: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىَ مُكْثٍ}، والقراءة الأخرى قرأ بها جماعة من الصحابة فمن بعدهم، عليٌّ وابن مسعود وأبو قتادة، وقرأ بها جماعة من التابعين كالشعبي، لكنها ليست متواترة، {قرآناً فرّقناه} قال: "**أي أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً**"، يدل على هذا المعنى قوله: {لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىَ مُكْثٍ} يعني: في مدة بقائه -صلى الله عليه وسلم-.

---

١ - رواه البخاري معلقاً في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سورة سبأ:٢٣] ولم يقل ماذا خلق ربكم؟، ووصله أبو داود، كتاب السنة، باب في القرآن، برقم (٤٧٣٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٣٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنّ الّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىَ عَلَيْهِمْ يَخِرّونَ لِلأذْقَانِ سُجّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً} [سورة الإسراء:١٠٧-١٠٩].

يقول تعالى لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ} يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم {آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ} أي: سواء آمنتم به أم لا، فهو حق في نفسه أنزله الله ونوّه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله، ولهذا قال: {إِنّ الّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ} أي: من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه {إِذَا يُتْلَىَ عَلَيْهِمْ} هذا القرآن {يَخِرّونَ لِلأذْقَانِ} جمع ذقن وهو أسفل الوجه {سُجّداً} أي: لله -عز وجل- شكراً على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلاً أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب؛ ولهذا يقولون: {سُبْحَانَ رَبّنَا} أي: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا قالوا: {سُبْحَانَ رَبّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولاً}.

وقوله: {وَيَخِرّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ} أي: خضوعاً لله -عز وجل- وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله {وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً} أي: إيماناً وتسليماً، كما قال: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}[سورة محمد:١٧]، وقوله: {وَيَخِرّونَ} عطْف صفة على صفة، لا عطف السجود على السجود.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنّ الّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ} الضمير الهاء يرجع إلى القرآن، أي: من قبل أن ينزل القرآن، وبعضهم يقول: {مِن قَبْلِهِ} أي: من قبل النبي -صلى الله عليه وسلم-، والمقصود أهل الكتاب، وعلى الخصوص أهل الإيمان منهم، {إِذَا يُتْلَىَ عَلَيْهِمْ يَخِرّونَ لِلأذْقَانِ سُجّداً}، والذقن هو مجمع اللحيين كما هو معلوم، وخصه بالذكر هنا بالسجود؛ لأنه أول ما يقرب من الأرض إذا سجد الإنسان، فحينما يسجد الإنسان لا يبدأ أول ما يبدأ بالجبهة ثم ينزل، وإنما ينزل ثم يضع جبهته، {وَيَخِرّونَ لِلأذْقَانِ} هذه صورة الساجد، ومن أهل العلم من يقول: إنه ذكر الأذقان على الخصوص والمقصود بذلك شدة الخضوع بتغفير اللحية حيث يقع ذلك من الساجد على الأرض، لأن لحيته تكون ملامسة الأرض، ولكن المعنى الذي ذُكر هو الذي ذكره الله تعالى: {وَيَخِرّونَ لِلأذْقَانِ} أي أن هذه هيئة من سجد، {وَيَخِرّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ}.

في البداية قال: {يَخِرّونَ لِلأذْقَانِ سُجّداً}، وفي الثانية قال: {وَيَخِرّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ}، يعني الخرور الأول ذكر فيه سجودهم، ثم ذكر بعد ذلك خشوعهم، فالأول ذكر فيه الخضوع وهو السجود والتذلل لله رب العالمين، وذلك بتغفير الوجه في الأرض، وهو أشرف شيء في الإنسان يكون أدنى شيء منه، حيث يستوي مع قدميه، ولهذا كان الكفار يأنفون ويستنكفون من السجود، أشرف شيء يوضع على الأرض –الوجه-، فهيئة السجود أكبر هيئة تذلل، لكن الناس ألفوها؛ لذا فهم لا يستشعرونها، ولا توجد هيئة أعظم من هذه الهيئة، لكنها صارت مألوفة، وكذلك الركوع، فلو رأيت أناساً يقفون أمام مخلوق بهذه الطريقة فإن هذا مشهد ينخلع له القلب، ويقف له شعر الرأس، فكيف إذا سجدوا لمخلوق؟، كل يوم نحن نفعل هذا لله -عز وجل-، ولكن لا نستشعر، وإلا فهو مشهد هائل عظيم، لو استشعرناه وحده دون قول نقوله أو قراءة نسمعها لكان كافياً لخشوع القلب وخضوعه، وصلاح حال العبد، وحيائه من الله -عز وجل-، ومراقبته له، يكفي أن يضع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجهه على الأرض، فتستقيم جميع أحواله، لكن ما نستشعر هذا، وإلا فهذا الذي قد أذل وجهه على الأرض كيف يستطيع أن يعصيه، وأن يكابره، وأن يستهزئ بشعائره وبأوليائه، ويستنكف مما لا تهواه نفسه؟!.

{قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً} [سورة الإسراء:١١٠-١١١].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله -عز وجل-، المانعين من تسميته بالرحمن {ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} أي: لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}[سورة الحشر:٢٤]، إلى أن قال: {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة الحشر:٢٤] الآية، وقد روى مكحول أن رجلاً من المشركين سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقول في سجوده: ((يا رحمن يا رحيم))[٢] فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين!، فأنزل الله هذه الآية، وكذا روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، رواهما ابن جرير.

قوله: {ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاءَ الْحُسْنَى}، اختلف أهل العلم: هل المقصود بادعوا: التسمية، أو المقصود به الطلب والدعاء، والمعروف المتبادر أن الدعاء يطلق على هذا وهذا، فيقال: فلان هذا يُدعَى بكذا، الرجل الذي يدعى بكذا، يعني يُسمَّى بكذا، تقول: المدعو فلان، يعني الذي يسمى بفلان، وتأتي بمعنى الطلب، يدعو ربه، يعني يسأل ربه، اسألوا الله -تبارك وتعالى- باسمه الله أو باسمه الرحمن، يا الله يا رحمن، فأكثر أهل العلم يقولون: الدعاء هنا بمعنى السؤال والطلب، وبعضهم قال: التسمية، وهذا قاله بعض الناس، ولا أعلم أحداً من السلف سبقه إليه، ولا عبرة بكلامه، وهذا المعنى تحتمله الآية؛ لكن من أهل البدع من يفسرون القرآن بمقتضى اللغة، دون أي اعتبار آخر، فقوله: {ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ} أي: اسألوا الله، يعني اسألوه باسمه الله أو باسمه الرحمن، {أَيّاً مّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاءَ الْحُسْنَى}، وحينما يُدعَى بهذه الأسماء فإن هذا الدعاء بمعنى الطلب مقتضٍ للتسمية؛ لأن الله ذكر الاسمين، فلا تفسر الآية بمجرد التسمية {ادْعُواْ} بمعنى سموه بالرحمن أو سموه الله، فإنه واحد لا شريك له، -تبارك وتعالى-، وهذه من أسمائه، له أسماء حسنى، ونحن إذا فسرناه بالدعاء بمعنى السؤال {ادْعُواْ} أي: اسألوه، سواءً سألتموه باسمه الله أو باسمه الرحمن فإنكم تسألون إلهاً واحداً، هذه من أسمائه، لا تسألون آلهة متعددة كما كان يظنه أو يزعمه أهل الإشراك، لمّا سمعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو، وهذا الحديث الذي ذكره هنا رواه مكحول وهو مرسل، والمرسل من أقسام الضعيف.

وقوله -تبارك وتعالى-: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}، كأن تقدير الكلام هكذا: أياً ما تدعوا فهو حسن، لكنه وضع مكان فهو حسن {فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}، كأن ذلك للدلالة أو المبالغة، وإذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان، {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ}، {فَلَهُ الأَسْمَاء

---

٢ - رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧/٥٨٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْحُسْنَى} ومن ضمن هذه الأسماء الحسنى: الله والرحمن، فلو قال: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ} فكل ذلك حسن، فالمعنى واضح، لكن لو قال: {فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}، فهذا الاسمان "الله والرحمن" اسمان حسنان، ولكنه جاء بما هو أبلغ من هذا فقال: {فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} كل أسمائه حسنى، وليس فقط الله والرحمن، لكن دل على حسنهما هذا العموم {فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}، والمقصود بكونها حُسنى أي: البالغة في الحسن غايته، هذا الحسن يشمل حسن الألفاظ، فليس في شيء من هذه الأسماء ما لفظه مستبشع أو ثقيل على الأسماع أو نحو ذلك، ويدخل فيه حُسن المعاني التي تضمنتها، الصفات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com